فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

437

أيار 2023

مقالات

مظهر محمد صالح

معاذ محمد رمضان

سوران قحطان

هاشم نعمة

ماجد الياسري

سناء عبد القادر مصطفى

نصوص قديمة

غاس هول

نصوص مترجمة

ميشائيل بري

حوارات

حوار مع المعماري

معاذ الآلوسي

أدب وفن

حسب الله يحي

إبراهيم العدراوي

ياسين النصير

علي ابراهيم

رنا صباح خليل

داود سلمان الشويلي

يوسف ابو الفوز

طه الزرباطي

سالتيكوف شيدرين

عامر حميو

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد: 437
أيار: 2023

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: **althakafaaljadeda.net**

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

* أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ان لا يتجاوز حجم المادة عن 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500-3000 كلمة.
* ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
* باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
* وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
* ان تكون المادة معدة اصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
* ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترد لها.
* يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
* بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يلي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
* بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).
* بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، (عنوان الدراسة أو المقالة)، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمةالعدد

مقالات

8 - حرب الخليج الاولى: اللعبة ذات المجموعة السالبة..... مظهر محمد صالح
14 - نوري السعيد: قراءة جديدة..... معاذ محمد رمضان
23 - الطائفة كجماعة مبتكرة ومتخيلة .،ابتكار التقاليد وانتاج الهويات والجماعات..... سوران قحطان
37 - العلاقة بين الديمقراطية والتنمية مع التركيز على حالة البلدان النامية..... هاشم نعمة
48 - مدرسة فرانكفورت النقدية: مرحلة التأسيس والبدايات (1924-1932)..... ماجد الياسري
57 - تكيف القطاع الصناعي في روسيا الاتحادية مع العقوبات الغربية..... سناء عبد القادر مصطفى

نصوص قديمة

65 - الذكرى المئوية لعيد الاول من آيار،في بوتقة المعارك الطبقية ..... غاس هول

نصوص مترجمة

71 - اكتشفوا الاشتراكية مجددا...بقلم: د. ميشائيل بري.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

81 - حوار مع المعماري معاذ الآلوسي.....أدار الحوار: زهير الجزائري

أدب وفن

90 -عن شغيلة الفكر والإبداع.....حسب الله يحيى
92 - البورتريه: استراتيجية للبناء في أسير عاشق لجان جينيه.....إبراهيم العدراوي
104 -جدلية الماء والنار.....ياسين النصير
113 -(السلطة في الرواية العراقية)..قراءة نقدية..... علي ابراهيم
122 - على دوال القص عند جليل القيسي..... رنا صباح خليل

131 -(النخلة والجيران) الريادة والتطور.....داود سلمان الشويلي
139 - نِساءٌ وَمَنادِيلُ ..... يوسف ابو الفوز
144 - (أل زهايمر)..... طه الزرباطي
146 - كيف أطعم قروي اثنين من المسؤولين الحكوميين ،قصة:سالتيكوف شيدرين ،ترجمة: عبد الجبار ناصر
153 - مسرحية ''الكرة الباردة''.....عامر حميو

لوحة الغلاف الاول للفنان فائق حسن

لوحة الغلاف الاخير للفنان فيصل لعيبي

كلمة العدد

التغيير.. ومستلزمات تحقيقه

السطور الأخيرة، من كلمة العدد السابق (436) تَحدّثت عن توقعات عامة لما ستؤول اليه أوضاع البلاد في قادم الشهور. وعلى وجه الخصوص، ذلك التعويل، الذي سيتزايد بمرور الوقت على قوى التغيير السياسية وعلى الحركة الاحتجاجية في احداث التغيير الشامل. حيث بدأت، في الأشهر الأخيرة، تتضح شيئا فشيئا ملامح تمثيل سياسي واسع وحقيقي لقوى التغيير الشامل، تمثيل مدني وديمقراطي حقيقي، يمكن الاعتماد عليه ليمثل بديلا حقيقيا. ولأنه يتكون من أحزاب سياسية عريقة، وأخرى ناشئة، تمثل في مجملها قوى مجتمعية مشاركة في الحركة الاحتجاجية؛ فإنه يمكن اعتباره بهذا المعنى او ذاك تطورا لما يمكن تسميته "الجناح السياسي" للحراك الاحتجاجي. وبالتالي، ان مثل هذه المبادرات السياسية، ربما تؤدي الى حدوث انفراج حقيقي في الازمة الشاملة التي تعصف بالعراق. فكما هو معروف، ان أي ازمة بنيوية، كتلك التي كان وما زال يأن تحت وطأتها العراقيون والعراقيات، هي في جانب منها، وبالضرورة، ازمة الحامل الاجتماعي لمشروع التغيير وقواه السياسية الممثلة. وبالتالي، فإن خروج الأخير من واقعه المأزوم يمثل إيذاناً جليا ان الخلاص صار ممكناً. خصوصا، وان القوى المتنفذة، والتي تمثل السلطة، أي الجانب الاخر من الازمة، لم تعد قادرة، بمحاولاتها المستميتة ومساوماتها الرخيصة، حلولها الترقيعية، على إعادة انتاج وبسط سلطتها وهيمنها ونهجها في الحكم. طبعا، باستثناء قدرتها، على استخدام ما يتوافر "حاليا" من ثروات هائلة في احتواء او تحييد قطاعات كبيرة الى هذا الحد او ذاك من الجماهير. كما ان تفكك هذه القوى المتنفذة بدا جليا. فهي لم تعد قادرة، كما كانت في السابق، لا على إدارة صراعاتها الداخلية، ولا حتى على اخفائها. ولكن، سيبقى المسار التاريخي الملموس متمايزا عن التحليل النظري أعلاه. ذلك ان إمكانياته متعددة ومتعاكسة. وبالتالي يقع على عاتق قوى التغيير، كي تمثل البديل الحقيقي والناضج، عبء كبير من اجل الدفع نحو تحقيق تلك الإمكانيات التي تفتح الأبواب امام تغيير حقيقي وشامل، يصب في مصلحة كل أبناء الشعب خصوصا الكادحين منهم.

تحديد وتثبيت المشتركات

ان الخطوة الأهم عند قوى التغيير السياسية، عندما تنطلق من التغيير كهدف وبالتالي كشعار، تتمثل بالتوصل الى رؤية جماعية للتغير كمشروع، وكذلك الاتفاق على المشتركات. فبدون ذلك لا يمكن توحيد الجهود من اجل الدفع نحو تحقيق التغيير كإمكانية. ولا يمكن تحديد هذه الرؤية وهذه المشتركات الا عبر الاتفاق على الأهداف الرئيسية للمرحلة، وتحديد الخصم المشترك. لكن، هذه المسألة ليست سهلة. فهي تقتضي بالضرورة ان تدرك هذه القوى السياسية طبيعة المرحلة، وان تحدد قواها الاجتماعية المحركة، وكذلك ان تحيط بظروف واشتراطات التغيير،

ومن ثم يمكنها تحديد مهماته واهدافه، ومضامينه الاجتماعية والسياسية. بمعنى آخر، لا يمكن تحديد عمق التغيير المطلوب ولا مداياته، او اتجاهات تطوره القادمة، دون رسم الملامح العامة للتشكيلة الاجتماعية العراقية وللوحتها الاجتماعية-الطبقية الحالية، خصوصا تلك التي برزت في السنوات الاخيرة، والتوقف عند أبرز معالم تحولاتها وآثارها. ففي هذا السياق، من المهم تحديد دقيق للقوى الاجتماعية التي تستند عليها المنظومة السياسية الحاكمة وتعبر عن مصالحها. وأيضا، تعيين تلك القوى الاجتماعية ذات المصلحة بإيصال التغيير الى غايته المرجوة. فلكي يكون لشعارات التغيير اي معنى او قيمة سياسية حقيقية، فإنه من الضروري ان يكون لها محتوى اجتماعي. أي ان عليها ان تنطلق فعليا من قاعدة اجتماعية. وبافتراض ان ما ذكر أعلاه قد تمت دراسته وهضمه من قبل قوى التغيير او بعضها على اقل تقدير، فإننا نرى ان الاهداف المشتركة لهذه المرحلة واضحة، والخصم المشترك أكثر وضوحا. فهو يتمثل، ببساطة، بكل قوى منظومة ونهج المحاصصة بتجلياتها المختلفة الاثنية والطائفية والحزبية والمناطقية والعشائرية. بينما لا تخرج اهداف التغيير الشامل في هذه المرحلة عن كونها: بناء دولة مدنية، تترسخ فيها ديمقراطية حقيقية، وتنهض على أسس محددة من عدالة اجتماعية.

الانتخابات والحراك الاحتجاجي.. رافعتا التغيير

ومن جهة أخرى، يتعين على قوى التغيير ان تتسم بالواقعية عندما ترسم الخطط والتكتيكات وتحدد المهمات المطلوبة لتحقيق الأهداف. وذلك لأن التغير، مشروع معقد، وعملية طويلة، مساراتها مليئة بالمصاعب والتناقضات والمنعرجات، وكذلك بالأماني والتطلعات. وربما يكون تنويع اشكال النضال والعمل السياسي اهم اشكال تجسيد هذه الواقعية على ارض الواقع. فالسعي في هذه المرحلة الى المساهمة في الانتخابات بغية الوصول الى المجالس التمثيلية وخصوصا مجلس النواب يتمتع بأهمية كبيرة. ليس فقط بغية المشاركة في السلطة التشريعية وحتى التنفيذية، وهي قضية مُهمة جدا؛ وإنما أيضا بسبب الدور الذي تلعبه الدعاية الانتخابية في ادامة الصلة مع الجماهير. لكن، يجب عليها أيضا ان لا تتهاون ابدا في المساهمة ودعم في الحركة الاحتجاجية والمطلبية. حيث ستبقى الأخيرة رافعة رئيسية، بل وربما الأرأس، في احداث التغيير المنشود. فإذا كان لهيبها يبدو خابيا الآن، فإن جمرتها ما تزال متقدة. وذلك لأن الأسباب والشروط التي تسببت أساسا في اضطرامها ما زالت موجودة بل وفي تفاقم مستمر.

التغيير.. اصطفاف وطني واسع، وبرنامج سياسي

وهنا، لا بد من التذكير، انه لا يمكن تذليل المصاعب الا بإرادة وطنية صادقة، قادرة على قلب موازين القوى واحداث التغيير المطلوب. وهذا يتطلب اصطفافاً وطنياً واسعا يضم أوسع طيف ممكن من القوى الوطنية والاجتماعية الداعمة، وإن ضمنا، لمشروع التغيير. وبالتالي على قوى التغيير المدنية والديمقراطية ان تكون منفتحة للتعاون والتنسيق مع كل الطامحين للخلاص من منظومة ونهج المحاصصة.

وفي النهاية، يشترط مشروع التغيير وضع برنامج تفصيلي واقعي. تقدم من خلاله قوى التغيير المدنية والديمقراطية رؤيتها في إعادة بناء مختلف مفاصل الحياة السياسة والاقتصادية ولاجتماعية والثقافية في البلاد. ولهذا حديث اخر.

مقالات

حرب الخليج الأولى:
اللعبة ذات المجموعة السالبة

د.مظهر محمد صالح

1 - تمهيد

لم تفترق المبادئ التي اعلنها الرئيس الامريكي جيمي كارتر في خطابه عن حالة الاتحاد في الثالث والعشرين من كانون الثاني1980 امام الكونغرس والتي سميت (بعقيدة كارتر Carter Doc-trine) والتي جاءت بعد مرور شهر واحد من دخول الجيش الاحمر السوفياتي الأربعين أفغانستان واحتلاله (كابل) العاصمة وضم تلك البلاد ـ التي كانت و مازالت تسمى بسقف العالم ـ الى حظيرة المعسكر الاشتراكي، حيث تناول الرئيس كارتر يومها امن الخليج ... مشدداً على استخدام القوة العسكرية عند الضرورة في الدفاع عن المصالح القومية للولايات المتحدة في منطقة الخليج . تلك المنطقة الحيوية التي تمثل امداداتها النفطية الآصرة الاكثر تأثيراً في منطقة شرق المتوسط، حيث تختزن مواردها النفطية قرابة ثلثي الاحتياطي النفطي العالمي والمقدر حالياً بـ (تريليون ونيف) برميل من النفط. اقول لم يختلف خطاب الرئيس كارتر في اعلاه عن خطاب وزير خارجية بريطانيا (لاندزدون) في العام 1903عندما حذر روسيا والمانيا من اقامة اية قواعد عسكرية او نقاط بحرية حصينة في منطقة الخليج، منوهاً إذا ما تحقق ذلك فانه سيعرض مصالح بريطانيا القومية الى الخطر وان بلاده ستقاومه بكل ما لديها من قوة! وبغض النظر عن هذا وذاك، فان الحكم على اية حرب، من وجهة النظر التاريخية الحسية، يستلزم التحليل الشامل وينبغي ايضاً ان لا تقتصر الاحكام على جملة سمات او جملة حقائق منعزلة عن مجموع شروطها وارتباطاتها التي تؤدي الى انبثاق الحرب ونشؤها. وان الحكم على الحرب، كما يقول (هيرمان شيلر) في كتابه الموسوم: الماركسية والحرب الامبريالية (والذي نقله الى العربية العلامة الراحل الاستاذ الدكتور ابراهيم كبة في العام 1960) حيث يؤكد شيلر: ان الحكم على الحرب من وجهة النظر التاريخية الحسية، والذي ينطلق من شمول التحليل وتعميمه،

يقتضي ان يدرس سياسة الدول القائمة بالحرب، قبل الحرب واثنائها في سياقها التاريخي، ولا يصح ان يكتفي - بغية حل الارتباط التاريخي- بمجرد رفض تبضيع الارتباطات المعقدة، بل الوقوف بحزم ضد جميع المحاولات التي تؤدي الى استحالة المعرفة الموضوعية للحقيقة عن طريق الخلط غير الواعي بين الجوهري وغير الجوهري وبين المهم والطارئ.

2 - تخوم الحرب الباردة والصدمة النفطية

كان العام 1979 من اشد الاعوام التي تعرضت اليها (تخوم) الحرب الباردة في منطقة الخليج الى التغيير وأدت الى تحول المشهد السياسي فيها وبصورة انقلابية عنيفة! فعلى رحى الحرب الباردة، كان تاريخ انتصار الثورة الايرانية في 22شباط 1979على معاقل الحرس الشاهنشاهي القديم وإقامة الجمهورية الاسلامية الايرانية كقوة ثورية جديدة ولدت على انقاض الملكية القديمة، هو التغير المهم والمؤثر الذي دفع بالأحداث الاقليمية لتأخذ مسارين وباتجاهين مختلفين ،الاول: هو سعي النظام الايراني الثوري الجديد الى تفكيك خريطة المصالح الغربية القديمة في هذه البلاد ذات التاريخ الامبراطوري الموغل في الزمن واعادة هيكلة مجمل التحالفات التي اقامها نظام شاه ايران السابق مع المنظومة الغربية بما في ذلك ترتيبات الامن الاقليمي او أمن الخليج. والاتجاه الآخر: هو تعرض امدادات النفط الايراني اثناء الثورة الشعبية الايرانية الى التعثر والتوقف بسبب الظروف اللوجستية المتقلبة التي لازمت انتصار الثورة الايرانية، ما اربك التوقعات في اسواق الطاقة وتسببت في ارتفاعات مفاجئة بأسعار النفط العالمية، إذ بلغ سعر برميل نفط الخليج المصدر وقت ذاك، سقفاً لم يبلغه من قبل وبحوالي 40 دولارا للبرميل الواحد (او اقل بقليل وهو السعر الذي يعادل بمفهوم القوة الشرائية الراهنة للدولار بنحو 110 دولارات للبرميل من النفط الخام) ذلك في اسواق النفط الفورية والتي سميت يومها بالصدمة النفطية الثانية! كما رافق ذلك وفي الطرف الآخر من منطقة الخليج ولادة تراكمات مالية ريعية عالية غير مسبوقة لدى البلدان الخليجية النفطية والتي ليس بمقدورها جميعاً استيعاب تلك العوائد النفطية الكبيرة، والتي شكلت يومها رقما مهما في معادلة الحرب الباردة وتطور توجهاتها وميولها الانفاقية نحو تمويل كلفة الأحداث العسكرية اللاحقة.

3 - الحرب العراقية - الإيرانية

اندلعت الحرب العراقية الايرانية في ايلول 1980، بعد ان تبدلت التحالفات وتغيرت الميول السياسية مع أطراف الحرب الباردة ولاسيما في الطرف الشرقي لمنطقة الخليج. فالنظام السياسي العراقي، أمسى أكثر ميلاناً الى المعسكر الغربي في الحرب الباردة! وأكثر التصاقا بمبادئ الرئيس كارتر وعقيدته، يوم مد يد الصداقة الى الغرب للحصول على السلاح من خارج الكتلة الشرقية وللمرة الاولى منذ قيام الجمهورية العراقية في تموز 1958. فضلا عن تصفيته للحركة العمالية العراقية والتنكيل المفرط بكوادر وقيادات اليسار العراقي والقوى التقدمية والإسلامية المناصرة للثورة الإيرانية وتصفية الحزب الشيوعي

العراقي المرتبط أيديولوجياً بالمعسكر الاشتراكي الدولي ومنظمات السلام في العالم. وفي الوقت الذي ابتعد فيه النظام السياسي العراقي عن اي تحالف ثوري مع الجمهورية الاسلامية الايرانية الوليدة فقد قطع روابطه الوحدوية التي كانت على وشك الإقامة مع سوريا، بل عظّم في الوقت نفسه من تحالفه مع الجناح الغربي لمنطقة الخليج. كان النظام السياسي العراقي يحاكي في ميلانه منظومة البلدان النفطية المطلة على الشاطئ الغربي من الخليج وتقربه لسياساتها الاقليمية والدولية، بالدرجة نفسها التي ابتعدت فيها الجمهورية الاسلامية الايرانية في علاقاتها مع بلدان الخليج ذات الشاطئ الجيوسياسي الحساس المقابل لايران. ومع تضاؤل العلاقات السياسية الايرانية -الخليجية بما فيها العلاقات مع العراق نفسه، فان علاقات طهران مع واشنطن لم تستقر هي الاخرى مع الغرب بل تفاقمت مع احتجاز البعثة الدبلوماسية الامريكية في طهران وعدّ دبلوماسييها بحكم الرهائن! هكذا بدأت خريطة الاستقطاب الاقليمي في منطقة تخوم الحرب الباردة قبل ان تندلع الحرب العراقية - الايرانية في ايلول 1980.اذ استطاعت (مبادئ كارتر وعقيدته) ان تبني في صلب السياسة الخارجية للولايات المتحدة محاور اقليمية جديدة في منطقة تخوم الحرب الباردة ولاسيما الجيوب القلقة (العراق وايران) وهما البلدان المتجاوران اللذان يقعان على الشاطئ الشرقي من حوض الخليج ...يوم اطلقت الدبلوماسية الامريكية استراتيجيتها في احتواء الحرب العراقية الايرانية .... وباتجاهين مختلفين، الاول: تمثل بخلق تكتل (امني خليجي) دشن في مطلع العام 1981 وضيفته ضمان الامن الإقليمي لبلدان منطقة الشاطئ الغربي من حوض الخليج وتحت مسمى (مجلس التعاون الخليجي) حيث تولى المجلس المذكور احتواء النظام الايراني الثوري الجديد من الامتداد خارج الجغرافية السياسية الايرانية ،ذلك من خلال جعل العراق منطقة حرب عازلة buffer zone والعمل على استمرار تحفيز جموح النظام السياسي العراقي وتجميل رغبته المتزايدة في الحرب ضمن لعبة الاستبداد الشرقي كنظام اقتصادي سياسي غدا وقتها شديد التعبير عن نمطٍ تاريخي مستحدث من انماط الانتاج الاسيوي القديمة او بالاحرى بات مولعاً في ذلك النمط الذي يقوم على عناصر ثلاثة: الجباية (النهب الداخلي) واشعال الحروب الريعية (النهب الخارجي) وتوفير الاشغال العامة من بنية تحتية بما فيها عسكرة المجتمع لإدامة حياة السلطة المركزية ذات النمط الشرقي الذي يعتاش على نهب الاخرين كسلوك أيديولوجي ومنهج (للحياة). والآخر: هو جعل مجلس التعاون الخليجي بمثابة الرافعة المالية المستمرة في تمويل نشاط تجنيد صفوف ما سمي في حينه (بحركة المجاهدين) وهو تنظيم طالبان ممن دربوا على يد وكالة المخابرات المركزية لتقويض (الدب الروسي) في أفغانستان حيث اختار السوفييت الفخ نفسه الذي غرقت فيه امريكا من قبل وهو مستنقع الحرب الفيتنامية (1959-1975) والتي سميت بحروب التخوم او الحروب الساخنة بالإنابة ضمن لعبة الحرب الباردة او توازن الرعب النووي. فضلا عن ممارسة مجلس

التعاون الخليجي تكتيك (السيطرة المالية) على تصرفات النظام السياسي العراقي واحتواء دوره النفطي واغراقه بديون بدلاً من تمكينه بيع نفطه الذي لم يتمكن من تصديره وتحصيل عوائده بنفسه بعد ان قطعت سوريا إمدادات النفط العراقي العابر من اراضيها في العام 1982 وانخفاض صادرات العراق النفطية من متوسط بلغ أكثر من ثلاثة ملايين برميل نفط يوميا قبل اندلاع الحرب الى اقل من 800 ألف برميل يومياً. وهكذا سخرت الرافعة المالية الخليجية، ذات القوة التراكمية العالية، دورها في سياسة الاحتواء بما يحقق دوام الحرب العراقية الايرانية حتى نهايات العقد الثمانيني ضمن استراتيجية صامتة، أطلق عليها حينذاك (بالحرب المنسية -Forget table war) كي تستمر الحرب الطاحنة بين البلدين الجارين بهدوء ويتاح للمعسكر الغربي إنجاح آخر سياساته في دبلوماسية احتوائه للمنظومة الاشتراكية عبر بوابة افغانستان والحاق الهزيمة بالجيش الاحمر وبلوغ هدف القطبية الاحادية في السياسة الدولية ومن ثم الهيمنة على الاقتصاد العالمي وقيادته بسوق ليبرالية واحدة. لذا، فقد عوض العراق من نصيب نفطه الهابط والمحذوف من سوق الطاقة او سقوف منظمة الاوبك، وقت ذاك، من خلال ارتفاع صادرات مجلس التعاون الخليجي من النفط والتي قدمت عائداته الى النظام العراقي بصورة ديون سيادية وبرافعة مالية مستمرة، كي يجري استهلاكها في ماكنة حرب التخوم (الحرب الساخنة) المستمرة بدون توقف والتي تساعده في تغطية أثمان مشترياته من السلاح الغربي او الشرقي احياناً في حربه مع ايران طوال ثمانينيات القرن الماضي.

4 - النتائج الاقتصادية لحرب الخليج الأولى

خرج البلدان (العراق وإيران) في نهاية صيف عام 1988من حرب مدمرة كانت ضحاياها قرابة واحد مليون انسان من الأمتين العراقية والإيرانية، فضلا عن الخسائر المادية المباشرة التي تمثلت بخراب البنى التحتية ونزوح الملايين من السكان ودمار مدنهم وقراهم وتعطل مشاريع التنمية وتعطل الاستثمار في كلا البلدين وإحلال التسلح المفرط وتوسيع ماكنة الحرب محلهما. وكذلك تحمل خسائر إجمالية غير مباشرة تمثلت في كلفة الفرصة البديلة الناجمة عن توقف الانتاج والتقدم المادي والبشري وعلى مدار ثمان سنوات. وبهذا قدرت الخسائر المادية للحرب إجمالا ولكلا البلدين بتكاليف بلغت (واحد تريليون دولار) او ربما اكثر. ولم يحقق اي من البلدين اهدافهما من الحرب وعاد كل شيء الى وضعه السابق باستثناء خسارة مليون انسان ابتلعتهم ساحات الحرب!! ولم تجن البلدان المطلة على الخليج جميعها من حرب التخوم او الحرب العراقية- الايرانية وحروب طالبان او (المجاهدين المزعومة) سوى الدمار وتخصيص موارد نفطها للتسلح المفرط وإعادة التسلح الثقيل وتعظيم الكثافة العسكرية لبلدانها كبديل عن صنع اقتصاد السلام وتعظيم الاستثمار الحقيقي او النهوض بتنمية المنطقة او اقامة اقليم اقتصادي مزدهر بدلاً عن تكاليف واعباء تلك الحروب ، التي انتهينا فيها وقت ذاك

بقطب دولي واحد ولدته نهايات الحرب الباردة، ولكن جاء يحمل بين أحضانه نظاماً سياسيا في (كابل) كان هجين الهوية ولد من رحم حرب التخوم (الحرب الساخنة).... وهو نظام طالبان!! ختاماً، نتائج حروب التخوم ذات المجموعة السالبة: الدروس والعبر

أ- انها لعبة الحرب العراقية - الايرانية !!انها اللعبة ذات المجموعة السالبة (Negative Sum Game) التي حازت على نتائج مظلمة وحصد البلدان من حربهما، حرب التخوم الساخنة، الافلاس والدمار، وكانت حصيلتها خسارة بلدان منطقة الخليج كلها، وبدون استثناء، مزيجا من الخسائر، سواء من موارد بشرية ومادية او مالية حصرياً، يوم قالها على سبيل المثال الملك فهد ابن عبد العزيز العاهل السعودي، قبل رحيله: بان بلاده حلبت حلباً! ولاسيما بعد ان جرى دمار افغانستان على يد طلبان او على النحو البديل الذي نراه اليوم او الذي سنراه غداً!! فضلا عن جرائم الحرب المروعة التي رافقها استعمال الأسلحة الكيمياوية الظالمة التي طالت الشعب الكردي الاعزل شمال العراق لتؤكد كيف انتزع الضمير الانساني فوق جبال كردستان أمام الصمت الدولي.

ب- الدروس المستقاة: توقفت الحرب العراقية الايرانية على وقع محاضرة جامعية مهمة القاها السفير (ريتشارد مورفي) مساعد وزير الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الاوسط في مدرج الجامعة التي كنت اعد فيها شخصياً درجة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية في المملكة المتحدة اواخر ثمانينيات القرن الماضي .حيث كان (مورفي) قد غادر وظيفته قبل اشهر في حينها، ليبشر بانتهاء حرب التخوم الساخنة في شرق المتوسط، اي الحرب العراقية - الإيرانية وهو ينذر في الوقت نفسه، وانا استمع اليه بدقة، منوهاً مورفي بنفسه... أن مخاطر قوية أخذت تفرزها التطورات الحاصلة في مجال تصنيع الأسلحة البالستية وتعاظم القوة الصاروخية لكلا البلدين المتحاربين (العراق وايران) والتي أضحت تشكل تهديداً للأمن والسلم في الشرق الأوسط! عندها قلت في سري ان حروب المنطقة هي حروب ممتدة ولم تنته، في معادلة اللعبة الحربية ذات المجموعة السالبة او اللعبة الخاسرة!! حقا ولم تمض سنوات لتعلن الولايات المتحدة عقيدتها الجديدة في الاحتواء والمسماة بسياسة الاحتواء المزدوج dual containment صوب كل من ايران والعراق، ذلك في 24 شباط فبراير 1994 وجاءت بناءً على آراء تقدم بها السفير- مساعد وزير الخارجية الامريكية (مارتن أندك). واللافت في تطبيق سياسة الاحتواء المزدوج بأنها لم تمنح الفرصة للنظام العراقي السابق بتصدير نفطه بنفسه كي يتمكن مالياً مرة أخرى من تكرار ممارسة لعبة حرب الاستبداد، بل على العكس استمر فرض الانضباط المالي (او السيطرة المالية) ثانية على تصرفاته للحد من امكانية استخدام سلاح عوائد نفطه ضد جيرانه وحسب صرامة القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الامن والخاصة بغزوه الكويت في العام 1990 او ما سمي (بحرب الخليج الثانية) باستثناء تمكينه من توقيع مذكرة تفاهم مع الامم المتحدة في العام 1996 التي قضت بتصدير شحنات من نفط العراق، على ان تودع عوائده

بحساب مصرفي تحت سيطرت و تصرف الامين العام للأمم المتحدة، لقاء الحصول على بعض السلع الضرورية لإدامة غذاء الشعب العراقي في برنامج سمي بالنفط مقابل الغذاء وكذلك لتمكين النظام العراقي من البدء بتسديد تعويضات حرب الكويت المفروضة عليه والبالغة قرابة 53 مليار دولار. في حين استمرت دول مجلس التعاون الخليجي تطالب العراق بديون الحرب العراقية -الايرانية ولم تبادر الى شطبها او الغائها بموجب اتفاقية نادي باريس الموقعة في العام 2004 وهي متمسكة بمخلفات السيطرة المالية على تصرفات النظام السياسي السابق في حرب الخليج الأولى والممتدة الى حربي الخليج الثانية 1990 والثالثة 2003.

جـ - العبرة التاريخية: تؤشر المادية التاريخية انه لا انفصام بين طابع عصر معين وطابع حروبه، ولهذا فليس من الممكن فهم اية حرب من الحروب فهماً صائباً من دون فهم الشروط العامة للعصر الذي انبثقت الحرب فيه. ففي عصر القطبية الثنائية، شكلت الحروب بالإنابة او حروب التخوم (الحرب الساخنة) التحول الاهم في دائرة (الحرب الباردة) لتكون المقدمة في انتصار آخر حروب مرحلة الاحتكار في تاريخ تطور الرأسمالية وبروز العولمة المالية والاستعداد النهائي والاخير لغلق دائرة الحرب الباردة. وبهذا مع انتهاء الحرب العراقية -الايرانية واحتواء الجيوب القلقة (العراق وايران) او تخوم الحرب الباردة في العام 1988، وانسحاب الجيش السوفياتي الاربعين من ميادين قتاله في أفغانستان في العام 1989انفردت الرأسمالية المالية الاممية، متحدة كلها هذه المرة تحت ذراع القطب الواحد، كي تلاحق ارباحها الحدية بحرية مفرطة وتواصل امتصاصها الرأسمالي المالي وتراكمه على الصعيد العالمي وقيادة العالم لوحدها ،بعد انتصار الحروب النموذجية للرأسمالية الاحتكارية (الحرب الباردة) وولادة عصر الليبرالية الجديدة يوم سقط جدار برلين في أواخر عام 1989 وتفككت المنظومة الاشتراكية على انقاض آخر حروب التخوم وهي (الحرب العراقية الايرانية) لتزول ميادين الحرب الباردة كلها وتسود العولمة المالية وقواها الرأسمالية العابرة للسيادة وبقطب سياسي واحد وبسوق واحد. أنها الحرب العراقية - الإيرانية او لعبة الحرب الباردة... إنها لعبة الامم ذات المجموعة السالبة!!

نوري السعيد: قراءة جديدة

معاذ محمد رمضان

قد يتساءل القارئ الكريم الان: ماذا ستعني هذه "القراءة الجديدة"؟ هل ستطرحُ شيئاً جديداً عن هذه الشخصية التي أشبعها الباحثون دراسة وتفكيكاً! لذا سَنُبيّنُ ما يلي:

ما نقصده بـ(القراءة الجديدة) هو طرحٌ مُخالف لما يُشاع بعد سقوط نظام صدام حسين عام 2003 وما بعدها. فقد ظهر إتجاه جديد يتمثّل بالحنين الى العهد الملكي عموماً ، والى نوري السعيد خصوصاً ، بإعتباره أكبر سياسي ملكي [1] وفي هذا الإتجاه من الإخطاء والمغالطات التاريخية الشيء الكثير[2]. وعليه فلا بُدّ من تسليط الضوء على السعيد من خلال المصادر والمراجع المُعتَبَرَة، فهذا هو الطريق الإصوب.

ستكون محاور المقالة كما يلي:

1- لمحة عن ولادة السعيد ونشأته.
2- عقائده السياسية والقيم التي يؤمن بها.
3- التصفيات السعيدية؟
4- ارتباطه ببريطانيا.
5- السعيد والشيوعية.
6- السعيد وتدّخل الجيش في السياسة.
7-السعيد واستغلال النفوذ الشخصي وامتلاك العقارات.
8- حِنكة السعيد تحت الاستفهام.

1- الولادة والنشأة

أقرّ دارسٌ مُميّزٌ [3] للسعيد بقلة المعلومات المتوفرة عن طفولته وتبعثرها، فقد اختلفت المصادر في تحديد الموطن الأصلي لأسرته، ولم تتفق على تحديد نسبه. وعَلّل الباحث ذلك بأن السعيد نفسه لم يُشر في كتاباته وأحاديثه الخاصة والصحفية إلى إنتمائه القومي.

وُلِدَ السعيد ببغداد سنة 1888م وقضى طفولته في جوٍ أقرب الى الانغلاق منه إلى الإنفتاح، وهذا ما انعكس على شخصيته فيما بعد. يقول توفيق السويدي:

(نشأ نوري في بيئة إقليمية محدودة لم يستطع التخلص من مؤثراتها رغم الزمن الطويل الذي عاش فيه وهو متصل بكبار الطبقات من أجانب وشرقيين) [4].

انعكس ذلك على شخصيته، فقد عانى من الكبت في البيت والكُتّاب، فكان منكسراً خانعاً، لكنه عندما يخرج الى الشارع يكون على النقيض، إذ كان يُنَفّسُ عن كبته بمصارعة الصبيان بالأيدي والتشاجر بقوة. ولعل ذلك قد أصابه بنوع من التناقض في شخصيته، فهو حيناً منكسر وحيناً آخر وحشٌ كاسر [5].

2ـ عقائده السياسية والقيم التي يؤمن بها

كان السعيد ''ميكافيلياً نفعياً'' فالغاية عنده تُبَرّر الوسيلة ، وهذا يعني بأن طريقه سيكون طريق ''المساومة على حساب المبدأ[6]. وكان ''دكتاتورياً سلطوياً'' فلا مجال لإطلاق الحريات العامة مع السعيد [7]. وأهم شيء عنده هو ''البقاء في الحكم'' وكان لا يعرف الحقد والحسد إلا في السياسة [8]. وكل القيم عنده تكون تحت رحمة القيمة السياسية، فالقيمة الدينية في خدمة القيمة السياسية، وتتأثر قيمة الصداقة لديه بالقيمة السياسية [9]. فكان كثير السخاء لمعارضيه الأقوياء وقاسي القلب على خصومه الضعفاء [10].

3ـ التصفيات السعيدية

ارتبطت بعض الاغتيالات السياسية في العراق باسم نوري السعيد، ونحن بدورنا سنُرَكّزُ على إثنين: توفيق الخالدي والملك غازي.

كان الخالدي شخصية فَذّة وذو كفاءة نادرة ، وكان خصومه السياسيون يخشون بأسه ويوجسون خيفة من قُرب صيرورته رئيساً للوزراء حيث يقضي على طموحهم ويُبَدّد أحلامهم وقد يُمهّد لقيام حكم جمهوري في العراق[11].

تتجه أصابع الإتهام في تصفية الخالدي الى الملك فيصل الأول ونوري السعيد وجعفر العسكري. نشرت جريدة العراق في 25 شباط 1924 الخبر الآتي:

بينما كان معالي توفيق بك الخالدي وزير الداخلية السابق ذاهباً الى داره في محلة جديد حسن باشا مساء أول أمس ـ أي مساء الجمعة 22 شباط ـ إذا بيد أثيمة أطلقت عليه أربع عيارات نارية فأردته قتيلاً لساعته، وقد هرب الجاني حالاً فأسرعت الشرطة بعد الواقعة ببضع دقائق ولكن رأت أن الرجل قد قضى وهرب الجاني. وقد تبين من الكشف الطبي أن العيارات النارية هي من مسدس من نوع البرونيك، وأن الرصاصات إجتازت من ظهره الى قلبه حيث توفي حالاً[12].

بسبب غياب الدليل المادي، فقد إحتار الناس في تعليل الحادثة، فقال بعضهم: كان القتيل من أنصار الجمهورية، وكان يرى رأي عبد الرحمن النقيب في وجوب إسناد الحكم في العراق الى عراقي، فاتفق الملك فيصل مع وزيريه جعفر العسكري ونوري السعيد على وجوب التخلص من الخالدي، فأسر الوزيران الى شاكر القره غوللي، فتبعه الأخير وأرداه قتيلاً. يُعقّب عبد الرزاق الحسني:

(ويُدلل أصحاب هذا الرأي على رأيهم: أن كُلاً من العسكري، والسعيد والقره غوللي، لقي حتفه مقتولاً فكانوا مصداقاً للحديث المعروف ''بَشّر القاتل بالقتل''). ثم يذكر الحسني حادثة شخصية معه في غاية الأهمية:

(وقد جمعت المعتقلات التي أقامها الإنكليز في العراق في أعقاب الحركة التحررية التي قامت في أيار سنة 1941، أشتاتاً من الناس، وكان عبد الله سرية ممن قضى مع المؤلف نحو سنتين في ''معتقل العمارة'' وقد سمع من عبد الله بأنه هو الذي قتل الخالدي، وأن شاكر القره غوللي كان شريكه في القتل، وأنه كان عضواً في جمعية سرية هدفها الفتك بمن يشايع الإنكليز، وأن الخالدي كان أحد هؤلاء المشايعين) [13].

ويقول محمد حسين الزبيدي، بأن الملك فيصل قد قرر التخلص من الخالدي وتصفيته في أقرب فرصة قبل استفحال خطره، وقد

عهد الى نوري السعيد القيام بهذه المهمة فقام بها ونفذها ليلاً [14].

يروي سامي خوندة:

إتصل نوري السعيد بشاكر القره غوللي وعبد الله سرية وطلب منهما تنفيذ المهمة. ويُدَلّل خوندة على ذلك أن نوري السعيد قد كافأ قتلة توفيق الخالدي على عملهما، فقد وظّف القره غوللي مديراً للتصليح في معمل الجيش الذي كان يقع في وزارة الدفاع القديمة. وعندما أُحيل على التقاعد تزوج من أرملةٍ من بيت الكواز في بغداد وكانت تملك بعض الأملاك وكان لها مزرعة في بعقوبة قُتل فيها القره غوللي.

أما عبد الله سرية فقد تَمَكّن عن طريق نوري السعيد من إدخال ابن أخته الى المدرسة العسكرية وتخرج فيها. وكان دائماً يفاخر بأن خاله عبد الله سرية قاتل العملاء[15].

أما بشأن الملك غازي، فقد رحل في حادث السيارة المعروف في عام 1939، وفي ظِل غياب الدليل المادي، فما على الباحث إلاّ تفكيك هذا اللغز وتشخيص المستفيد من تصفية غازي. لقد أشارت الوثائق البريطانية الى أن البريطانيين قد فَكّروا في إزاحة غازي منذ عام 1936 [16]، وأن السعيد كان يحقد على غازي لإعتقاده بعدم كفاءته وإعلانه مراراً ضرورة تنصيب الأمير زيد أو الأمير عبد الإله مكانه. وأصبح الأمير عبد الإله واقعياً من أهم المستفيدين من مقتل غازي[17]. وبشأن الرأي العام، فقد همست الجماهير بأن الاستخبارات البريطانية ونوري السعيد قد دبّرا اغتيال الملك. وقد حاول السعيد تجنب غضب الجماهير بالوصول الى المقبرة الملكية بواسطة قارب نهري ثم رجع الى المكان بنفس الوسيلة[18].

4- ارتباط السعيد ببريطانيا

كان السعيد قلباً وقالباً مع الإنكليز، يقول ذلك بكل صلابة وصراحة[19]. وكان صاحب مدرسة سياسية آمنت بالتعاون مع الغرب، وكانت له وجهة نظر خاصة في الحكم قامت على إحترام الأمر الواقع وتقديره حق تقدير ويحيطها إطار من التفاؤل [20].

لكن الأمر المهم هنا:

هل من المناسب أن نصف السعيد بـ"العميل"؟ أي عميلاً لبريطانيا قبل أن نخوض في هذا الأمر، لا بُدّ من أن نُقَرّرَ بـ"تطرف السياسة السعيدية" هذه. فمثلاً رُستم حيدر، كان ينتمي الى مدرسة نوري السعيد السياسية، إلا أنه لم يكن متطرفاً في تأييده للبريطانيين، لذا فإنه كان يُمثّل الجناح المعتدل للمدرسة السعيدية[21].

يَتَحَفّظ الباحثون المعتبرون في ذلك، يقول عبد الرزاق النصيري:

(من الصعب جداً أن يُصَنّف نوري، على الأقل في المرحلة التي تدخل في الإطار الزمني لرسالتنا، ضمن الأعداء،أو العملاء[22].

وتقول ليلى الأمير:

(على وفق تلك القناعات، ليس من السهل القول أن نوري السعيد كان عميلاً بريطانياً أو أنه تصرّف وكأنه عميلٌ فعلاً) [23].

نشرت جريدة الفرات ـ وهي من صُحف ثورة العشرين ـ وثيقة مهمة، رسالة عاجلة من "المؤتمر العراقي" في سوريا الى رؤساء الشامية في النجف الأشرف، ولطولها سنختصرها بالآتي:

ربما يحضر إليكم من الشام الجنرال نوري السعيد ليقوم بهذه المهمة المشار إليها التي أناطتها به السلطة البريطانية، ألا وهي

توطيد أركان الإحتلال وتثبيت أقدامه في العراق بمفاوضة العراقيين ودرس أفكارهم وتسكين خواطرهم وتعليلهم بالأماني والمواعيد الكاذبة، وربما اتخذت السلطة المحتلة جميع الوسائل المادية والمعنوية التي من شأنها أن تجعل لكلامه شأناً ولشخصه قبولاً أينما حَلّ، فتُكثر من ذِكر إسمه مقروناً بالجهر والثناء عليه وعلى مبادئه وتتظاهر بإحترامه وتبجيله. لا يحتاج بعد هذا أن نُبيّن لكم واجبكم الذي تؤمنون به إزاء هذا الرجل إذا فارقنا إليكم بهذه المهمة، وخصوصاً الإجتهاد بمقاطعته والإعراض عن أقواله وتحذير الناس من الوقوع في حبائله والسهر على تتبع خطواته ومراقبة حركاته وعرقلة مساعيه. لا تُبالوا أيها الإخوان ولا تقيموا له وزناً ولو ادعى الكلام بإسم الملك حسين والملكين فيصل وعبد الله أو بإسم المؤتمر العراقي الموجود في حاضرة الشام [24].

وينقل كمال مظهر أحمد عن فاروق صالح العمر، أن الوثائق السرية البريطانية قد ذكرت بأن السعيد كان يتجسس على أعمال المؤتمر العراقي في سوريا ويُزوّد المصادر المختصة بتقارير سرية مفصلة عنها[25].

ما يهمنا الآن هو رأي كمال مظهر أحمد بهذه الوثيقة:

(وهي تُعد أول تقويم صحيح لشخصية نوري السعيد الذي أصبح رجل الميدان السياسي الرسمي للعراق على مدى أربعة عقود أعقبت "ثورة العشرين". وتزداد أهمية الوثيقة أكثر إذا تذكّرنا أن نوري السعيد كان يُعدّ يومذاك أحد الوطنيين العاملين في سبيل القضية العربية، وأنه كان واحداً من أنصار الأمير فيصل المقربين الذي لم يقف أحد بعد على دقائق صلاته السرية مع الإنكليز) [26].

ليقول مظهر أحمد في حاشية خاصة:

(إتضح ذلك كله بعد الكشف عن الوثائق السرية البريطانية، أي بعد مرور عشرات السنين على التقويم الصحيح الذي نشرته جريدة "الفرات" أيام "ثورة العشرين")[27].

وبطبيعة الحال ـ وهذا من مستلزمات البحث العلمي ـ لا بُدّ من الإشارة للوثيقة البريطانية التي أشارت صراحة لـ"عمالة" نوري السعيد.

يقول عبد الرزاق النصيري:

(تؤكّد إحدى الوثائق البريطانية الخاصة أن نوري السعيد إستُخدم على إثر ذلك عميلاً للمخابرات البريطانية، وزار الهند لهذا الغرض)[28]. ثم يُعقّب: (ورغم ذلك يجب على الباحث أن يُقيّم فحوى الوثيقة البريطانية المذكورة، ومغزاها في إطار الزمان والمكان ودون التطرف في تحميلها أكثر مما تتحمل على ما نعتقد. ويجب أن نأخذ بنظر الإعتبار أيضاً أن نوري في هذه الفترة كان هارباً من الدولة العثمانية ومحكوماً عليه بالإعدام)[29].

والإشارة هنا الى وقوع السعيد في قبضة البريطانيين في مدينة البصرة في عام 1914 ونُقل بعدها الى الهند.

ومما يجدر ذكره هنا أن أغلب "الكُتّاب السعيديين" قد كانوا على جهل بهذه الوثيقة، أو بالأحرى تجاهلوها[30].

لكن السؤال المُلِح هنا: هل عادت سياسة السعيد بالنفع على العراق؟ سياسته المبنية على "إحترام الأمر الواقع حق الإحترام"؟ تقول ليلى الأمير:

(نخلص من كل ذلك إن نوري السعيد لم يُحقق للعراق أي نتائج ملموسة من جرّاء تعامله مع الغرب وتضحيته بالإنضمام الى حلف بغداد) [31].

ويقول كاظم حبيب:
(كان ـ يقصد السعيد ـ حليفاً مخلصاً لبريطانيا يستند لا الى عمالة مباشرة لها بقدر ما كان يلتقي معها في الفكر والسياسة والمصالح، رغم أن المستفيد الأول من كل ذلك كانت بريطانيا والمتضرر الرئيسي في مثل هذا التحالف والطريقة التي كانت تتم بها هو الشعب العراقي)[32].
لكن الأهم من ذلك كُله أن نوري نفسه ـ رغم بقائه وفيّا لمبادئه أي لإرتباطه بالغرب وهذا ما دفع ليلى الأمير للإستغراب[33] قد إستاء من سياسة بريطانيا في سنواته الأخيرة، بل إنفجر بوجه السفير البريطاني وصارحه: بإستطاعتي أن أكون بطلاً قومياً يُحمَل على الأعناق [34].
لكن المشكلة السعيدية الأولى هنا، أن السعيد كان يرى ـ كما نقل عنه صديقه أسعد داغر: إذا كان نهر دجلة لا يزال يجري فما ذلك إلا بفضل الإنكليز!![35].
ثم هل من المعقول أن تبقى السياسة السعيدية مع بريطانيا بإتجاه ثابت؟ فإن كانت مُبَرّرَة في بدايات تأسيس الدولة العراقية، فلما الإصرار عليها حتى النهاية! وهذا ما دفع أحمد مختار بابان الى أن يُوَجّه نقده للسعيد: فقد يكون السعيد مُحقاً في إستناده على الإنكليز أثناء مدة الإنتداب، ولا بأس بهذه السياسة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. لكن نوري ظل متمسكاً بصداقة الإنكليز، وكانت سياسته هذه خاطئة جداً [36].

5ـ السعيد والشيوعية

للسعيد صيتٌ كبير في محاربة الشيوعية في العراق والمنطقة، وهو من قام بإعدام فهد وزميليه زكي بسيم وحسين الشبيبي في 1949 [37]. وهذا ما دفع حنّا بطاطو الى القول: (إن موت فهد أثبت كونه أقوى من حياته، إذ صارت الشيوعية محاطة الآن بهالة الإستشهاد)[38]. ونحن مع حنّا بطاطو بكل تأكيد، فأي فكرة تُحرم من ممارسة العمل العلني، ستتجه الى الخفاء، لتنمو تحت الأنقاض، ثم تكبر وتكبر لتُشكّل خطراً كبيراً على النظام الذي خنقها. وللسعيد صيتٌ سيء في هذا المجال، فكل من يخالفه سيكون إشتراكياً وشيوعياً! وهو صاحب حكومة المراسيم الإرهابية في خمسينيات القرن الماضي، وصاحب "حلف بغداد" الذي أراد منه أن يكون سدّاً منيعاً بوجه الخطر السوفيتي الموهوم[39]. ورغم إيجابيات هذا الحلف من ناحية تعزيز دفاعات العراق الداخلية والبنية التحتية للدولة، لكن كانت سلبياته كبيرة ، فقد قَسّم العالم العربي الى معسكرين وأدخل العراق بسلسلة من مشكلات السياسة الخارجية في وقت إحتاج فيه الى تركيز إهتمامه على الجبهة الداخلية، وولّد حملة مستعرة معادية للغرب في المنطقة، وهي حملة يكاد العراق يكون بغنى عنها[40].
ومن يعلم بتحالف السعيد الوثيق مع زعماء القبائل ، لن يستغرب من عدائه الشديد للشيوعيين. فقد أشاد السعيد بالنظام العشائري في مؤتمر صحفي في عام 1957، بل أنكر وجود الإقطاع وإعتبره مجرد مكيدة شيوعية[41]. بل وصل الأمر به الى محاربة أي إتجاه إصلاحي مهما كان حجمه بسيطاً يستهدف إنصاف الفلاحين وسحب البساط من تحت الملاكين الكبار. فعندما وصل محمد فاضل الجمالي لكرسي الوزارة في عام 1953، انتعشت الآمال ببدء عهد جديد، خصوصاً وأن فيصل الثاني قد تسلم مهامه

الدستورية في هذه السنة أيضاً.
قامت وزارة الجمالي مُمثلة بوزير المالية عبد الكريم الأزري، بتقديم مشاريع إصلاحية، فاقترح بعض اللوائح لإنصاف الفلاحين بقدر أو بآخر لتضع حدوداً لتحايل المتنفذين وأساليبهم الملتوية التي حرمت هؤلاء من حقوقهم وعلى نطاق واسع خصوصاً في مدينة العمارة. لم تَرَ هذه المشاريع الطموحة النور، بل اصطدمت بمعارضة نوري السعيد وكبار الملاكين، فوقفت قوى الحسم ـ البلاط الملكي والسفارة البريطانية والشيوخ في الخندق السعيدي[42].

6ـ السعيد وتدخل الجيش في السياسة

قد يبدو للوهلة الأولى أن السعيد بعيدٌ عن هذا الإتجاه، خصوصاً وأنه قد كان ضحية لهذا التدخل في عام 1958. لكن الحقيقة خلاف ذلك! يقول سليم طه التكريتي:
(كان نوري السعيد منذ أن توفي فيصل هو أول من وضع أسس تدخل الجيش في السياسة، وقد دفعه نجاح إنقلاب بكر صدقي في سنة 1936 الى ركوب مثل هذا المركب الصعب الذي ألحق بالبلاد الخراب والدمار لعدة أجيال سابقة. فقد اصطفى نوري السعيد هؤلاء العقداء الأربعة ومن والاهم من ضباط الجيش لتنفيذ مؤامراته وتطلعاته الخاصة. فلطالما فرضوه على غازي عدة مرات لكي يؤلف الوزارة)[43]. وقد أزاح ضباط الجيش وعلى رأسهم العقيد صلاح الدين الصباغ حكومة جميل المدفعي بالقوة ووضعوا نوري السعيد على رأس الوزارة في عام 1938[44].
يقول العقيد جرالد دي غوري: (وهكذا وصل نوري السعيد، الذي كان يتشكّى بمرارة من تدخّل الجيش في السياسة، الى الحكم نتيجة عمل قام به الجيش ذاته) [45]. ويقول سندرسن باشا:
(لم يكن نوري السعيد يوافق على تدخل الجيش في الأمور السياسية، ومع ذلك فقد التجأ الى هذا التدخل عشية عيد الميلاد سنة 1938 للتخلص من الوزارة المقيتة التي كان يرأسها جميل المدفعي. وقد نجح هذا الإنقلاب، فأصبح نوري السعيد رئيساً للوزارة، لكنه قد اختار في هذا سابقة خطرة، هي ذات السابقة التي استُعملت بعد عشرين سنة لقتل أفراد العائلة المالكة، وقتل نوري نفسه بصفة لا إنسانية!) [46]. بل إن مؤرخة من طراز فيبي مار قد صَرّحت: (وقد زرع نظام نوري السلطوي بين 1954 و 1958 بذور الديكتاتورية العسكرية المستقبلية)[47].

7ـالسعيد واستغلال النفوذ الشخصي وامتلاك العقارات

يوجد تصوّرٌ عام على أن نوري السعيد كان بعيداً عن إستغلال نفوذه الشخصي في الدولة ، فهو بنظر كاتب سعيدي[48]: نزيهٌ وشريف، عاش ومات وليس له من حُطام الدنيا إلا كفنه، وتاه أهله من بعده وبعد مقتل ابنه الوحيد صباح. وبنظر سعيدٍ آخر [49]: مات هو وولده ولا يملكان واحداً من ألف دينار بالمائة... ولما إضطرت زوجته الى قبول الإعانات. أما حازم جواد ـ القيادي البعثي السابق ـ فقد قال:
(كنا نقول عن نوري السعيد عميل الإستعمار لكن، لم يطعن أحد في نزاهته أو أنه قبض رشوة من هذا أو ذاك، ولا أدري إن كان الإنكليز دفعوا له أم لا، ولكنني حتى هذه أشك فيها) [50]. لكن توجد أدلة مخالفة، فقد ذكر بيتر سلغليت: (إستغل ياسين الهاشمي

ونوري السعيد اللذان كانا ضابطين في الجيش العثماني، موقعيهما لإمتلاك أراضٍ وتمرير قوانين تُشَرّعن هذه الصفقات أو تكفل لهما إعفاءات ضريبية). ويقول في موضع آخر نقلاً عن وثيقة أجنبية بأن أراضي منطقة أبو عوسج الواسعة قد أُعطيت الى أربعة سياسيين منهم نوري السعيد [51]. ومما يُقويّ ذلك أن أقران السعيد من السياسيين الكبار آنذاك قد اتُهموا بالإستيلاء على الأراضي ومنهم صهره جعفر العسكري[52]. أما حنّا بطاطو فقد أورد جدولاً مُفصّلاً للأراضي الزراعية المملوكة لرؤساء الوزارات في العهد الملكي في عام 1958، فكانت حصة السعيد فيه صفراً، لكن كانت حصة ابنه صباح 9294 دونما[53].

وقد ذكر توفيق السويدي ـ السياسي الملكي المعروف ـ أن صباح نوري كان نقمة على والده وحِملاً ثقيلاً على عائلته بتقريب الأشقياء والسفلة وحشرهم في جو والده، فأثروا غاية الثراء[54].

8ـ حنكة السعيد تحت الاستفهام

المشهور عن نوري السعيد هو أنه كان "سياسياً مُحنّكاً" ، فهو أقدر رجل دولة في الشرق الأدنى[55]. ويكاد يكون أسطورة القرن العشرين، شعلةٌ ذكاء يتمتع بصفات لا توجد في رجل آخر [56]. وهو "تاليران الشرق" برأي مؤرخ ممتاز[57].

نقول: هل من الحِنكة أن يستمر الرجل على سياسة ثابتة مع عدم مراعاة تغيّر الظروف والأحوال؟ أن يبقى متمسكاً بصداقته للإنكليز؟ يُهمل الشباب لتتلقفهم المعارضة؟ أن يصبح قليل الإختلاط بالناس خصوصاً في أيامه الأخيرة، فلا يسمح إلا لعدد قليل من الأشخاص المكروهين من أكثرية الناس الإتصال به؟[58]. هذه "الحنكة" التي جعلت وصفي طاهر "المرافق العسكري للسعيد"[59] مع قادة ثورة تموز؟ هذا مع ضرورة التأكيد على أن السعيد كان مصاباً بداء العظمة (لم يُخلَق بعد الرجل الذي سيجرؤ على إغتيالي[60]. من جانبنا فنحن نضع هذه "الحنكة" بين مزدوجين تحفظاً.

وفي نهاية المقالة لا يسعنا إلاّ ما يلي:

هل هذه الصورة عن نوري السعيد، والتي إستقيناها من مصادر متعددة كما شاهد القارىء الكريم، تستحق هذا الحنين من قِبَل البعض الآن؟! خصوصاً من الأجيال الجديدة التي لم تعاصر السعيد ولم تَطّلع على سيرته من خلال المصادر المعتبرة؟! هل من المنطق والعقل أن يختم باحث [61] كتابه عن نوري السعيد بعد أن أورد الكثير مما ذكرناه في أعلاه بما يلي: (مضى المارد العملاق الى ربّه تاركاً صيتاً يلفّه العطر والذكر الحسن)؟! نترك الحكم للقارىء الكريم.

الهوامش

(1) لو لم يرحل عبد المحسن السعدون في 1929 وياسين الهاشمي في 1937 لما تمكّن نوري السعيد برأينا من أن يحتل الصدارة.

(2) وهذا ما ناقشناه بإسهاب في كتاباتنا السابقة.

(3) عبد الرزاق أحمد النصيري، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932، مراجعة، كمال مظهر أحمد ، بغداد، اليقظة العربية، 1987، ص 17–15..

(4) المصدر نفسه، ص 19–17.

(5) محسن محمد المتولي العربي، نوري باشا السعيد من البداية إلى النهاية ، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات،

2005، ص21.
(6) المصدر نفسه، ص 31–30.
(7) المصدر نفسه، ص32.
(8) المصدر نفسه، ص35.
(9) المصدر نفسه، ص 51–50.
(10) يعرب عبد العباس الشمري، نوري السعيد، تأريخه الشامل ودوره السياسي الريادي في العراق لنصف قرن، ج1، بابل، دار أبجد للنشر والتوزيع، ص22.
(11) عبد الرزاق الحسني، تأريخ الوزارات العراقية، ج1، ط7، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام ، ص201.
(12) المصدر نفسه، ص200.
(13) المصدر نفسه، ص200 – 201.
(14) محمد حسين الزبيدي، العراقيون المنفيون الى جزيرة هنجام ، ط2 بغداد، 1989، ص292.
(15) المصدر نسه، ص292 و 295.
(16) رجاء حسين حسني الخطاب، المسؤولية التاريخية في مقتل الملك غازي، ط1 ، بغداد، مكتبة آفاق عربية، 1985، ص17.
(17) المصدر نفسه، ص49 50–. ويُصرّح أحد الباحثين بأنه لم يعثر على دليل مادي يشير الى محاولات من قِبَل عبد الإله للإطاحة بغازي ، يُنظر:
عبد الهادي الخمّاسي، الأمير عبد الإله 1939 . 1958 . دراسة تاريخية سياسية ، ط1 بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001، ص70.
(18) لطفي جعفر فرج، الملك غازي ودوره في سياسة العراق في المجالين الداخلي والخارجي 1933 . 1939 ، بغداد، مكتبة اليقظة العربية 1987، ص244 و 247.
(19) عبد المجيد حسيب القيسي، التاريخ يُكتبُ غداً، هوامش على تاريخ العراق الحديث، ط1، بغداد، دار الحكمة 1993، ص127.
(20) ليلى ياسين حسين الأمير، نوري السعيد ودوره في حلف بغداد وأثره في العلاقات العراقية العربية حتى عام 1958، بغداد، اليقظة العربية، 2002، ص286.
(21) سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1945، مراجعة، كمال مظهر أحمد، ط1 بغداد، اليقظة العربية، 1988، ص84.
(22) النصيري، ص328.
(23) الأمير، ص286.
(24) كمال مظهر أحمد: صفحات من تاريخ العراق المعاصر، دراسات تحليلية، بغداد، مكتبة البدليسي، 1987، ص76 –77.
(25) المصدر نفسه، ص76، هامش، 63.
(26) المصدر نسه، ص75 و76.
(27) المصدر نسه، ص76، هامش61.
(28) النصيري، ص42، وتاريخ الوثيقة في عام 1920.
(29) المصدر نسه، ص42 و43.
(30) منهم مثلاً، عبد المجيد القيسي في كتابه المذكور أعلاه ص103، ويعرب الشمّري في كتابه المذكور أيضاً ص27 ، أما محسن العربي فقد تجاهلها في ص25 من كتابه المذكور أيضاً، لكنه عاد وأشار إليها في ص83 ناقلاً بعدها تعليل عبد الرزاق النصيري مع عدم الإشارة إلى اسم النصيري!
(31) الأمير، ص284.
(32) كاظم حبيب، اليهود والمواطنة العراقية أو محنة يهود العراق بين الأسر الجائر والتهجير القسري الغادر، السليمانية، حمدي للطباعة والنشر، 2006، ص134.
(33) الأمير، ص284.
(34) المصدر نفسه، ص281 282–، وكذلك:
محمود الدرة، ثورة الموصل القومية 1959، فصل في تاريخ العراق المعاصر، ط1، بغداد، اليقظة العربية، 1987، ص70 – 73.
(35) أحمد، ص276.
(36) مذكرات أحمد مختار بابان آخر رئيس وزراء في العهد الملكي، إعداد وتقديم، كمال مظهر أحمد، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013، ص55.
(37) يوهان فرانزن: نجمة حمراء في سماء العراق، الشيوعية العراقية ما قبل صدام، ترجمة، سعود معن، تقديم، كاظم حبيب

، ط1 بغداد . بيروت، مكتبة النهضة العربية، 2022، ص119.
(38) حنّا بطاطو: العراق، الكتاب الثاني، الحزب الشيوعي، ترجمة عفيف الرزاز ، ط3، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 2003، ص227.
(39) الأمير، ص285.
(40) فيبي مار، تاريخ العراق المعاصر 1921 . 2003، ترجمة، مصطفى نعمان أحمد، ط1، مكتبة أوراق ومكتبة المجلة، 2020 ص127.
(41) سلام إبراهيم عطوف كبة: إبراهيم كبة غني عن التعريف، ط1 بغداد، دار الرواد المزدهرة، 2011، ص166.
(42) رحيم كاظم محمد الهاشمي، محمد فاضل الجمالي ودوره السياسي ونهجه التربوي حتى عام 1958، مراجعة، كمال مظهر أحمد، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2012، ص247 و255 – 257.
(43) ستيفن همسلي لونكرك، العراق الحديث من سنة 1900 الى 1950، ج2، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، ط1 بيروت، دار الرافدين، 2019، ص94 هامش1 «تعليق التكريتي».
(44) سيف الدين الدوري، جميل المدفعي ودوره السياسي في العراق، ط1، الشارقة| بغداد، ضفاف للطباعة والنشر، 2022، ص145 146–.
(45) العقيد جرالد دي غوري، ثلاثة ملوك في بغداد، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، ط2، الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، 2012، ص147.
(46) مذكرات سندرسن باشا طبيب العائلة الملكية في العراق 1908 . 1946، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، ط1، بغداد، مكتبة المثنى، 1980، ص210 211–.
(47) مار، ص135.
(48) الشمري، ج1، ص12.
(49) القيسي، ص134.
(50) مذكرات حازم جواد الرجل الذي قاد البعث إلى السلطة عام 1963، بدون دار نشر وتاريخ، ص180.
(51) بيتر سلغليت، بريطانيا في العراق، صناعة ملك ودولة، ترجمة عبد الإله النعيمي، ط1، بغداد، دار المدى، 2019، ص128.
(52) علاء جاسم محمد جعفر العسكري ودوره السياسي والعسكري في تاريخ العراق حتى عام 1936، ط1، بغداد، اليقظة العربية 1987، ص129 130–، الهامش ص 308.
(53) بطاطو، ص394 – 395.
(54) توفيق السويدي: مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2010، ص455.
(55) مذكرات سندرسن باشا، ص207.
(56) العربي، ص511.
(57) كمال مظهر أحمد في تعليقاته على مذكرات بابان، ص104.
(58) مذكرات بابان، ص54 55–.
(59) العربي، ص512.
(60) مجيد خدوري، العراق الجمهوري، ط1، إيران، انتشارات الشريف الرضي، 1408 هجرية، ص81.
(61) العربي، ص515.

الطائفة كجماعة مبتكرة ومتخيلة
ابتكار التقاليد وإنتاج الهويات والجماعات

د.سوران قحطان

مقدمة

منذ عشرات السنين، وهناك العديد من المساهمات الجادة لفهم "الطائفية". وصفة الجادة[1] هنا ضرورية. فمن الأهمية بمكان ان تفرز وتستبعد تلك الأيدولوجيات والأفكار التي تستند على الطائفية ذاتها في تبريرها! مهما كانت طائفيتها مخففة! فالتبرير ليس سوى مسوغ لإطالة عمر أي ظاهرة، بينما التحليل والفهم، هما شرطان ضروريان للتعامل او للتخلص منها.

لكننا في محاولتنا البسيطة هذه، التي نسعى من خلالها لإدراك شيء من كنه "الطائفية"، لن ندخل بأي شكل من اشكال النقد السجالي مع أي من المقاربات النظرية، التي حاولت فهم الطائفية. على الرغم من ان التقليد العلمي الراسخ، خصوصا في المدرسة -او المدارس- الماركسية، يجيز بل يوجب في بعض الأحيان ان يكون التأسيس النظري لأي محاولة تسعى الى تحليل وفهم ظاهرة ما، منطلقا من نقد التاريخ النظري للظاهرة. في نهاية المطاف، ان أي محاولة نظرية مهما كانت بسيطة، ليست سوى خطوة قبلية، للمضي لاحقا في التعامل النقدي مع نقيضها. ان موضوع هذه الورقة يتمثل في استعارة مفهوم "التقاليد المبتكرة" لـ (أريك هوبزباوم) في محاولة فهم الظاهرة الطائفية كظاهرة موضوعية في المنطقة[2]، ودورها في ابتداع "الطائفة" كهوية، كجماعة حديثة. هذا المفهوم الذي صاغه في الفصل الأول[3] من الكتاب الذي حرره مع تيرنس رينجر[4]، ومثل "المقدمة" النظرية للكتاب. ثم سنخلص، استنادا الى هذا المفهوم، الى تقديم تعريف عام للطائفية، باعتبارها أساسا أداة مهمة بل ورئيسية حديثة، بيد سلطة، للهيمنة وتأمين الامتثال. لقد اثار هذا المفهوم، التقاليد المبتكرة، انتباه مؤرخي القرنين الماضيين وغيرهم من المختصين والباحثين. من جهة، بسبب التضاد القائم ما بين التغيير الدائم والتجديد المستمر في العالم الحديث، وبين محاولة إقامة بعض "المرتكزات" في الحياة الاجتماعية كي تكون ثابتة وغير

متغيرة؛ والدور الذي يمكن ان تلعبه مثل هذه التقاليد وعملية ابتكارها في إقامة مثل هذه المرتكزات. ومن جهة أخرى، وهذا هو الأهم، هو كيف يمكن ان تستغل السلطة هذه الحاجة الى الثبات، في تشكيل واستخدام هذه التقاليد كأدوات لحكم المجتمعات الكبيرة والسيطرة عليها.

المحاولة أدناه ليست نظرية صرف. فالأخيرة لها مجالها الخاص. بل هي اجتهاد بسيط لدراسة إمكانية استخدام هذا المفهوم في فهم ظواهر اجتماعية تشكلت ونمت في بيئات وظروف اجتماعية وتاريخية أخرى، غير تلك التي يبدو ان المفهوم صيغ بين ثناياها. وبالتالي، لن نسعى هنا الى تحليل هذا المفهوم عند هوبزباوم، بل سنحاول قراءته، ومن ثم بحث في إمكانية تعميم تطبيقه. والإجابة عن أي تساؤل قد يستغرب إمكانية تطبيق مفهوم "التقاليد المبتكرة" في دراسة بيئات اجتماعية وتاريخية أخرى غير بلدان المركز الرأسمالي، موجودة في ذات كتاب هوبزباوم ورينجر. حيث هناك دراستين على الأقل تخص هذا الموضوع. من بينها دراسة مهمة قدمها رينجر نفسه، عن ابتكار التقاليد في افريقيا المستعمرة ودور الاستعمار في ذلك[5]. بعكس ما هو شائع، لا يرتبط منشأ مفهوم "التقاليد المبتكرة" بهوبزباوم، وان كان هو من مهد السبيل لشعبيته الحالية[6]. كما ان هذا المفهوم يبدو عبارة عن تناقض لفظي. ذلك ان التقليد يشير الى التاريخ، وليس أي تاريخ، بل التاريخ "الموقر" بطبيعته. بينما يشير الابتكار او الاختراع الى الجدة والابتداع والتصنيع[7]. لكن هذا التناقض ظاهري. وهذا ما سيلاحظه أي دارس متمعن خلال تحليله أفكار هوبزباوم.

يجب ان لا يغيب عن البال، ان هوبزباوم عندما صاغ مفهومه، ثم استخدامه سواء في تحليل الفترة بين 1870-1914[8] او غيرها، فإنه لم يخرج عن مجال اختصاصه كمؤرخ. بينما برأينا، ما يجب ان يشكل الهم الأساسي، للباحثين، ليس فقط ظهور وترسخ هذه التقاليد والممارسات فقط، كما هو الحال عند هوبزباوم، وانما فرص بقائها واستمرارها وآليات ادامتها وأيضا إمكانيات إلغائها. بمعنى ان الجانب السياسي يجب ان لا يهمل لاحقا، عند استخدام مفهوم التقاليد المبتكرة بغية فهم ظواهر مجتمعية من مثل "الطائفية".

وأخيرا، ان كل ما تقدم لا يعني ان مفهوم التقاليد المبتكرة بحد ذاته ليس بحاجة الى دراسة وتحليل. فمن ناحية، هنالك ذلك الجدال المتنوع القائم بين المؤرخين والأنثروبولوجيين حول استخدامه، سواء في إشكاليات دراسة السكان "الأصليين" او غيرها[9]. ومن ناحية أخرى، وهذا أكثر أهمية لنا كماركسيين، هناك ضرورة الى دراسته من جهة ارتباطه بالتقليد الماركسي حول البناء الفوقي والايديولوجيا، وعلاقتهما بالقاعدة. وبالآليات الاجتماعية التي يتم من خلالها اختيار وانتخاب عناصر ومفردات من البناء الفوقي السابق لتساهم في تشييد البناء الفوقي الجديد. وأيضا، لجهة علاقته بإنتاج مؤسسات الهيمنة. ان استعارة مفهوم التقاليد المبتكرة من هوبزباوم، بغية فهم ظاهرة مثل الطائفية، يستلزم أولا قراءة هذا المفهوم عنده. وهي قراءة يجب ان لا تشتمل فقط على عرض سلبي للأفكار، وإنما يجب ان تكون بالضرورة قراءة تستبطن الكشف عن بعض إمكانياته.

ابتكار التقاليد

ان مصطلح التقاليد المبتكرة يستخدم، بحسب هوبزباوم، بمعنى واسع لكنه ليس مفتقرا للدقة. فهناك العديد من التقاليد والممارسات التي تبدو قديمة، او يدعي حاملوها والقائمون عليها ذلك. لكنها في اغلب الاحيان حديثة تماما في منشأها، وربما تكون مبتكرة. والأكيد، انها ليست جميعا دائمة ومستمرة. وهي تشتمل على: تلك التقاليد تم ابتكارها فعليا، انشاؤها ومأسستها رسميا. وكذلك تلك التقاليد التي انبثقت في تاريخ محدد او خلال مدة قصيرة، مسالة بضع سنوات في بعض الأحيان، ولكن بطريقة يصعب اقتفاؤها بسهولة، مرسخة ذاتها بسرعة كبيرة [10].

وقد عرف هوبزباوم التقاليد المبتكرة [11] على انها مجموعة من الممارسات ذات طبيعة طقسية او رمزية، محكومة بصورة علنية او ضمنية بقواعد مسلم بها. تسعى الى غرس قيم ومعايير يقينية لا ريب فيها للسلوك، وذلك عن طريق التكرار. وتفترض هذه الممارسات استمرارية مع الماضي. بل هي في العادة، ومتى ما كان ذلك ممكنا، تحاول إنشاء استمرارية مع ماضي ملائم لها. وهذا الماضي، لا يحتاج في بعض الأحيان ان يكون ممتدا الى أزمنة قديمة. فبقدر ما هناك إشارة او مرجعية، فإن ما يميز التقاليد المبتكرة هو ان استمراريتها او تواصلها مع هذا الماضي تكون مختلقة إلى حد كبير.

بمعنى، ان التقاليد المبتكرة هي بصورة جوهرية عملية إضافة طابع رسمي وطقسي، بالاستناد الى الماضي. انها استجابة لمواقف جديدة تأخذ شكل إشارة الى موقف قديم -او هي تقوم بإنشاء او تأسيس ماضيها الخاص- كل ذلك عن طريق التكرار شبه الإلزامي.

وهذه العملية تحدث بصورة مستمرة، لكنها تحدث بصورة أكبر عندما تعمل التحولات السريعة على إضعاف او تدمير الأنماط الاجتماعية التي صممت تقاليد قديمة من أجلها، منتجة أنماطاً جديدة. او عندما تصبح هذه التقاليد - القديمة - او حاملوها او ناشروها غير قادرين على التكيف او المرونة بصورة كافية. وقد كانت مثل هذه التغيرات والتحولات احداثا مهمة على مدار الـ 250 سنة الأخيرة. منذ الاختراق الثوري المزدوج، ذي الصدى العالمي: الثورة الصناعية البريطانية والثورة الفرنسية[12]. ولذلك من المنطقي ان تكتظ هذه الفترة بعمليات تشكيل للتقاليد الجديدة. لكن هذا لا يعني نهائيا انه عندما تصبح جماعات او مؤسسات قديمة او بنى سلطة ونفوذ ومعها والتقاليد المرتبطة بها غير قابلة على التكيف فإنها ستصبح بسرعة غير قادرة على الحياة والاستمرارية. كما انه لا يعني ان تقاليد جديدة ستنتج ببساطة لمجرد عدم القدرة على استخدام او تكييف التقاليد القديمة.

ان أحد اهم النقاط التي أشر لها هوبزباوم، هي ان هناك انواعا من الجماعات القديمة والتقاليد والممارسات المرتبطة بها قد تكون قابلة للتكيف مع الظروف الجديدة. وبالتالي قد تكون التقاليد "الجديدة" هي نتاج للقدرة على تكييف واستعمال تلك القديمة. وهذا التكييف يحدث عن طريق استخدام طرائق او موديلات قديمة من اجل غايات جديدة وفي ظروف جديدة. فالمؤسسات ذات الأدوار والوظائف الراسخة، والصلات العميقة بالماضي، واللغة والممارسات الطقسية، مثل المؤسسات الدينية والجيوش والمحاكم، ربما تكيفت وتتكيف بهذه الطريقة. من جهة أخرى، ان هناك مؤسسات تتمتع باستمرارية اسمية

فقط، بينما هي في الحقيقة تحولت الى شيء مختلف تماما، مثل الجامعات. ان التجديد والابتكار لن يكون أقل جِدّة وحداثة لمجرد كونه قادرا على ان يلبس لبوس الماضي، او لكونه قادرا على ان يتنكر كأنتيكة[13].

أما الأكثر اثارة من قابلية التكيف، وأيضا بحسب هوبزباوم، فهو إمكانية استخدام مواد عتيقة في تشييد تقاليد مبتكرة من نوع جديد، ومن اجل غايات واغراض جديدة تماما. فهناك مستودع كبير من مثل هذه المواد مكدس من ماضي كل مجتمع، وذاكرة واسعة متراكمة، بالإضافة الى ان هناك لغة متقنة من التواصل والممارسة الرمزية متاحة دائما. وفي بعض الأحيان، يمكن تطعيم التقاليد الجديدة بسهولة على تلك القديمة. وفي أحيان أخرى، يمكن تصميمها عن طريق الاقتباس او الاستعارة من خزائن الطقوس والشعائر الرسمية، ونظم العظات والارشادات الرمزية والأخلاقية: الدين، الفولكلور.. الخ. انها ذاكرة جديدة، وربما غير اصيلة بالكامل[14]. ان المديات التي يمكن للتقاليد الجديدة، داخل حدودها، استخدام هذه المواد القديمة، او المساحات الجديدة التي تستطيع ضمنها مط مفردات اللغة الرمزية القديمة بعيدا عن حدودها الفعلية القائمة، او اللحظات التي تكون فيها مجبرة على ابتكار لغة وادوات جديدتين، جميعها مسائل متنوعة وخاضعة للظروف الملموسة.

من جهة أخرى، وهذه قضية مهمة أيضا، هناك العديد من المؤسسات السياسية، والحركات والمجموعات السياسية ومن بينها الامة، والقومية بتلاوينها المتنوعة ومعها كل رموزها وأدواتها، لم يكن لها سوابق تاريخية مماثلة. وبالتالي فحتى الاستمرارية التاريخية لها كان يجب ان تختلق. وذلك عبر تلفيق ماضٍ موغل في القدم، قابع ما وراء الاستمرارية التاريخية الفعلية؛ اما بوسائل شبيهة بالأدب القصصي الخيالي، او عبر التزييف والتزوير. فعلى سبيل المثال الرموز التي ظهرت مع الدول القومية مثل العلم الوطني، النشيد الوطني، والتجسّدات المشخصنة للامة.

بحسب هوبزباوم، يمكن للتقاليد المبتكرة ان تنقسم، وظيفيا، الى ثلاثة أنواع متداخلة. النوع الأول، هو النوع الأكثر شيوعا، وهو النوع الأكثر أهمية لنا، يمثل تلك التقاليد التي تؤكد أو تعبر برموز عن التماسك والتلاحم الاجتماعي، او عن عضوية في جماعات، سواء كانت جماعات حقيقية او مصطنعة؛ اما النوع الثاني، فهي التقاليد التي توطد او تشرعن المؤسسات، او المنزلة الاجتماعية، او علاقات السلطة؛ والنوع الثالث منها، هي تلك التقاليد التي تكون غايتها الرئيسية هي التنشئة الاجتماعية وغرس المعتقدات، ونظم القيم واعراف السلوك. ان وظائف النوعين الثاني والثالث، وكلاهما مبتكران بكل تأكيد، متضمنة او نابعة من الشعور بالتماثل مع "جماعة" ما و/او التطابق مع المؤسسات التي تمثلها او تعبر عنها او ترمز لها.

لم يعلن هوبزباوم في "المقدمة" النظرية صراحة من هي الجهات المسؤولة عن خلق وابتكار التقاليد. لكنه أشر في الفصل السابع، عندما درس إنتاجها على نطاق واسع في الـ 30 سنة التي تسبق الحرب العالمية الأولى، ان هذه العملية تمارس من قبل طرفين متداخلين، وحتى متشابكين، ولا يمكن الفصل بينهما بالمطلق. الأول الرسمي، والذي يمكن ان نطلق عليه بصورة فضفاضة "السياسي".

والذي يشمل التقاليد التي تنشأ في الدولة او بواسطة السلطة، او من قبل حركات سياسية او اجتماعية منظمة. والثاني غير الرسمي، والذي يمكن دعوته بصورة فضفاضة أيضا "الاجتماعي". غالبا بواسطة مجموعات غير منظمة رسميا، او تلك التي تكون اغراضها غير سياسية بصورة واعية او مباشرة، سواء كانت لديها وظائف سياسية ام لم تكن[15].

ان الطرف الثاني لا يعنينا كثيرا في ورقتنا هذه. ما يهمنا وهو الطرف الأهم كون ممارساته هي في الغالب قصدية وواعية، يمكن ان نقول ان التقاليد المبتكرة، من النوع الأول على وجه الخصوص، هي الآلية التي تستخدمها السلطة السياسية والاجتماعية في انتاج معنى وهوية تجمعهم بمن يحكمونهم. انها، تمثل ممارسة تستخدم كأداة في حكم المجتمعات الكبيرة. فبعد ان تتحلل اشكال الروابط الاجتماعية القديمة المختلفة، ستحتاج السلطة الى إيجاد صيغ أخرى لربط الاعداد الكبيرة من الناس، ليس بعضهم الى بعض فقط، وانما بحكامهم ايضا. فالمجموعات البشرية او البيئات او السياقات الاجتماعية، سواء كانت جديدة ام قديمة - لكنها تتحول بشكل كبير ومتسارع - تتطلب أدوات وصيغا جديدة لتوكيد او للتعبير عن الهوية والتماسك الاجتماعي. وكذلك لبناء الصلات الاجتماعية. انها تحتاج الى طرق جديدة في الحكم والهيمنة، عبر ترسيخ روابط جديدة للولاء.

ولكن، ماهي صيغ وروابط الولاء هذه؟ المطلوب توكيد تماسكها وتلاحمها، عبر ابتكار تقاليد جديدة. وما الذي يجمعها أو يفرقعها مع البنى الاجتماعية ما قبل الرأسمالية؟

الجماعات والجماعات المبتكرة

كما ذكرنا سابقا، حدثت في القرنين والنصف الماضيين، وهي مرحلة حرجة في تاريخ البشرية، تحولات كبرى. وذلك بفعل النسق الاقتصادي الاجتماعي الرأسمالي. الذي يمكن اعتبار الاختراق الثوري المزدوج نقطة الشروع فيه. ولم يكن التطور المتواصل في الإنتاج هو السمة الوحيدة التي ميزت عهد البرجوازية عن العهود السابقة. بل يضاف لها، ذلك التزعزع الدائم وعدم الاطمئنان المستمرين السائدين في مجمل العلاقات الاجتماعية. فكما ان البرجوازية لا تعيش الا إذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على قوى الإنتاج، وعلى علاقات الإنتاج، فإن أثر هذه التغيرات لن يتوقف، بل سيمتد الى مجمل منظومة العلاقات الاجتماعية. فكلما كان ثابتا يطير ويتبدد كالدخان، وكلما كان مقدسا يعامل باحتقار وازدراء[16]. فمع نشوء وترسخ أسلوب الإنتاج الرأسمالي، حدث تغيير جوهري في علاقات الإنتاج، ومن ثم في العلاقات الاجتماعية وبقية مناحي الحياة المنظمة على أساسها. حيث حطمت الرأسمالية جميع علاقات الإنتاج المستندة على التبعية المباشرة والالتزامات الشخصية، وعلى الأعراف. ومعها حُطمت مختلف ميادين الحياة، سواء تلك المُنظّمة على أساس هذه العلاقات، ام تلك التي اشتملت عليها وتأثرت بها. مقيمة محلها علاقات قائمة على اسس تعاقدية، يظهر فيها الناس كأشخاص أحرار مستقلين ومتساوين من ناحية قانونية. بمعنى، أن مرحلة التحول هذه، التي كانت فيها الفردانية الليبرالية، بتجليتها المتنوعة الاقتصادية والسياسية والفكرية، الرافعة الأيديولوجية، لم تُدمّر فقط أسس الاستغلال

الطبقي القديمة القائمة على الالتزامات الشخصية المباشرة؛ وانما قوضت معها أيضا أسس كل البنى الاجتماعية القديمة تقريبا. وما لم يتم دكه بصورة مباشرة، انحسر شيئا فشيئا تحت تأثير الرأسمالية، وما بقي منها في بعض المجتمعات اعيد تشكيله لما يتوافق مع حاجات الرأسمالية. وهذه العملية، حدثت وتحدث على مختلف مستويات المنظومة الرأسمالية، سواء في بلدان المركز ام في بلدان الأطراف. ومن بين هذه البنى، بل وربما من أهمها، الجماعات الاهلية (Gemeinschaft Community) ما قبل الرأسمالية[17]. وهنا نحتاج الى بعض السطور وشيء قليل من الاستطراد للتوضيح. لكن، دون الخوض في التفاصيل، ودون الانطلاق من وضع مخططات نظرية "شاملة"، في انطباقها على التاريخ الملموس لكل مجتمع. نستطيع القول ان غالبية الافراد في التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ما قبل رأسمالية كانت تجمعهم علاقات اجتماعية اخرى بالإضافة الى العلاقات الطبقية القديمة. حيث كانوا يرتبطون مع بعضهم البعض كأعضاء في جماعة وشائجية او أهلية من نوع ما. قائمة على القرابة و/او المكان. مثل: العشيرة، القبيلة، القرية، نقابة حرفية...الخ. إنّ جوهر الانتماء لهذه الجماعات يفرض على الافراد الاشتراك بعادات وتقاليد راسخة، وكذلك بمخيال ثقافي ونسيج أيديولوجي موحد الى حد كبير. وبسبب من طبيعة هذه البنى، فإن قليلا ما كان المنتمون إليها يرون أنفسهم كأشخاص مميزين، لديهم حياتهم الخاصة المنفصلة عنها، او اهداف بعيدة عن غاياتها. وهذه الجماعات، وان اشتملت على مختلف أنواع التراتبيات الطبيعية، لكنها تبقى اساسا جماعات تشاركية الى هذه الدرجة او تلك من ناحية التنظيم الاجتماعي، او هي تحمل في جوهرها بقايا او سمات تشاركية قديمة. بل وربما كانت، او تكون، تشاركية من ناحية الملكية أيضا. ان مدى تطابق أو تأثر الروابط الاجتماعية داخل هذه الجماعات مع العلاقات الطبقية السائدة في المجتمعات ما قبل الرأسمالية هي مسألة نظرية تقع خارج نطاق بحثنا. لكن عموما، نستطيع القول، انه بسبب طبيعة هذه الجماعات، او طبيعة قسم كبير منها، فإنه لا يمكن اختزالها في حدود العلاقات الطبقية فحسب.

ومع زوال الالتزامات القديمة، وانتهاء عملية الانتقال، ومع نجاح الرأسمالية والليبرالية، وهما النسق الاقتصادي والسياسي والايديولوجي السائد منذ القرن التاسع عشر، في إقامة أسس استغلال طبقي جديدة، فإنهما فشلتا في توفير ارتباطات اجتماعية وكذلك علاقات سلطة وولاء مأخوذة على انها امر طبيعي ومفروغ منه مثلما هو الحال في المجتمعات السابقة؛ وخلقتا ثغرات وصدوعا عميقة في المجتمع، كان من الضروري ان تردم لاحقا. وبالتالي، تسامحتا لاحقا مع أي ممارسة من الممكن ان تساهم في عملية ملء هذه الفجوات، بمقدار ما ان الكفاءة الاقتصادية والايديولوجيا للنظام لا تتأثر بذلك. بل، ان البرجوازية، كطبقة ظافرة، كان لها دور كبير، وربما الأكبر في عملية انتاج وإعادة انتاج هذه الهويات. خصوصا الشاملة منها. عبر وضع او فرض مجموعة من التقاليد المبتكرة، كما ذكرنا سابقا. وذلك لتحقيق مصالحها الطبقية والسياسية، ولتوطيد اركان سيطرتها، باعتبار هذه

الهويات آلية من آليات الهيمنة في نهاية المطاف. يمكن من خلالها احتواء الصراع الطبقي ولجم الصراع الايديولوجي. فمن جهة، ظهر ذلك الابتكار التاريخي الحديث نسبيا "الامة Nation". مع جميع الظواهر الاجتماعية الموضوعية التي ترتبط به: النزعة القومية Nationalism، والدولة -الامة/ الدولة القومية، وغيرها. فـ"الامة" وثيقة الصلة بالتقاليد المبتكرة. ووجودها كاختراع يستند الى ممارسات في الهندسة الاجتماعية غالبا ما تكون مدروسة ومتعمدة، وهي دائما ممارسات مبتكرة، حتى لو كانت الجدة التاريخية تتضمن التجديد فقط[18].

ان الامة، ظاهرة اجتماعية معاصرة، وكل الادعاءات التي تنص خلاف ذلك، ان تكون النقيض للابتداع والمعاصرة والنشوء وان تكون متجذرة في عصور قديمة نائية؛ ان تكون جماعة إنسانية (Community-Ge-meinschaft) طبيعية وبديهية، لا تحتاج الا الى توكيد ذاتها؛ ان هذه كلها هي دعاوى مضللة. فلم يكن للأمة والنزعة القومية سوابق تاريخية مماثلة[19]. وعنصر الابتكار واضح وبصورة جلية. والتاريخ المعرفي والايديولوجي الذي أصبح جزءا من ذخيرة الدولة، او الامة، والحركة السياسية هو ليس ما تم حفظه فعليا في الذاكرة الشعبية، ولكن هو ما تم تلفيقه أو اختياره ومن ثم تدوينه، وتصويره، ومأسسته،ومن ثم اشاعته وتعميمه شعبيا. والتقاليد المبتكرة تستخدم هذا الماضي الى اقصى حد ممكن، كاسمنت، وكذلك لشرعنة الأفعال التي تشد لحمة المجموعة. فحتى اللغة المعيارية التي يتم التعلم فيها في المدارس ناهيك عن التحدث بها، تكونت وتشكلت في ازمنة مختلفة، وهي في الغالب قريبة العهد. ومن جهة أخرى، ومع زوال الالتزامات القديمة، وانتهاء عملية الانتقال الى الرأسمالية، بل وربما حتى قبل ذلك، تَحوّل التضاد، الذي كان تضادا خارجيا بين معايير وقيم المنظومة الاجتماعية الحديثة التي ترتكن على الفردانية وبين القيم الجماعية والتشاركية السابقة، الى تضاد داخل المجتمعات الحديثة. تضاد بين الهوية الفردية والعزلة الذرية للأشخاص - ليس كقيمة سائدة فقط وانما بحكم الامر الواقع - وبين جماعات حديثة، متنوعة، مصطنعة، وأحيانا متخيلة، ومتعددة مستويات الشمولية. فمع اكتمال دائرة الاغتراب في المجتمعات الحديثة، تزداد الحاجة الى هويات جماعية من الممكن الانتماء لها يقينا والى الابد في عالم كل شيء آخر فيه متغير ومتحول، ولا شيء آخر فيه يقيني. هذا اليقين سيجده الفرد في هوية المجموعة. لكن انتاج الجماعات والهويات الفرعية هذا لا يعنينا هنا. في النهاية، مع كل تطور في المنظومة الرأسمالية، ومع تحول مجتمعي، ومع كل ارتجاف او زلزل بفعل أزمة أو توسع سريع، ستحدث هذه العملية، أي إنتاج او إعادة انتاج وتجديد الهويات والجماعات. واي إضعاف يحدث في العلاقات المجتمعية، سيقابله تقوض لبعض الهويات والانتماءات، والتي ستحتاج اما الى تدعيم، او لتعوض لاحقا بأخرى مجددة او جديدة.

الطائفية والطائفة

انطلاقا من مسلمة تفترض ان كلتا العمليتين (ابتداع الهويات وابتكار التقاليد) تحدثان في كل المجتمعات على المستوى العالمي، ترى ما الذي يميز البلدان والمجتمعات "غير

الحديثة" عن تلك الغربية الحديثة، من هذه الناحية؟ على الرغم من اهمية نظريات الامبريالية والتخلف والتبعية والتبادل اللامتكافئ، للتمييز بين بلدان المركز وبلدان الأطراف، فإننا من اجل تحديد الفارق الذي يعنينا هنا سننطلق من هوبزباوم ذاته.

أشار هوبزباوم الى ان التقاليد المبتكرة - ونستطيع ان نضيف كذلك الجماعات والهويات الحديثة التي تنشأ عنها- بالرغم من حجم انتاجها خلال القرنين والنصف الماضيين في المجتمعات الغربية الحديثة، لكنها لم تشغل سوى حيز صغير من الحياة الخاصة للناس - بضمنهم المجموعات الثقافية الفرعية - مقارنة بما كانت التقاليد القديمة تشغله في المجتمعات الزراعية القديمة. فأثرها اقل بكثير من الاثر الضاغط للاقتصاد، والتكنلوجيا، والدولة البيروقراطية وحتى القرار السياسي على حياتهم. فمثل هذه القوى القاهرة وغيرها لا تستند الى تقاليد ولا تطور تقاليد بالمعنى الذي نعنيه. لكن هذا التعميم لا ينطبق على الحقل الذي يمكن ان يطلق عليه "الحياة العامة للمواطنين". سواء تلك الممارسات التي ترتبط بعضوية المواطنين في الدولة او الامة، او بتلك التي ترتبط بالخدمة العامة (القوات المسلحة، القضاء.. الخ). او حتى اشكال التنشئة الاجتماعية المختلفة في المدارس وغيرها. فهنا لا دليل على ضعف الممارسات الجديدة أي "التقاليد المبتكرة". فمتى ما أصبح الفرد واعيا بالمواطنة وبعضويته القانونية بالمجتمع الجديد وارتباطه بمؤسساته، فإنه سيبقى مشدودا الى رموز وممارسات شبه طقسية، هي بمعظمها حديثة، وهي في الغالب مبتكرة: العلم، النشيد الوطني، الاحتفالات، الانتخابات...الخ. ان النجاح الابرز للتقاليد المبتكرة منذ الثورة المزدوجة هي انها استطاعت ان تملأ فجوة دائمة في هذا الحقل من المجتمع[20].

في الفقرة السابقة، حدد هوبزباوم، ضمنيا، سمة رئيسية للمجتمعات والدول الحديثة. وهي ان هناك ما يشبه الانفصال او القطيعة بين "الحياة الخاصة للناس" وبين "حياة المواطنين العامة". تسود التقاليد المبتكرة في الثانية، بينما تشغل حيزا صغيرا من الأولى. وهذه السمة او التناقض بين "الحياتين" هي، بحسب رأينا، نتاج لاكتمال تطور وتمايز المجتمع المدني ومؤسساته عن المجتمع السياسي في هذه الدول.

بينما تفتقر بلدان الأطراف "غير الحديثة"، ومنها البلدان التي من المفترض ان تُعالج القضية الطائفية فيها، لهذه السمة. حيث تكون هذه القطيعة بين شكلي الحياة هذين، ان وجدت، شكلية وخاضعة للظروف. وبالتالي، يعج كلاهما تقريبا بذات التقاليد التي تتحكم بتفاصيلهما. وذلك ناتج من ان تطور هذه البلدان والتحولات الاجتماعية فيها، من ناحية ادماجها في السوق الرأسمالية العالمية على وجه الخصوص، ومن ثم في المنظومة الرأسمالية ذاتها، ونشوء الدولة الحديثة فيها[21]، وان كان قد أدى، من جهة، الى اضمحلال او تدمير بعض البنى الاجتماعية والجماعات الاهلية القديمة، فإنه، من جهة أخرى، كيَّف وحورَّ جماعات أخرى عبر انشاء تقاليد مبتكرة جديدة. وبالتالي، فإن ذات التحولات، لم تؤد الى تطور مجتمع مدني حقيقي، يتلازم مع نشوء الدولة الحديثة. فهو كان وما يزال، يعاني ضعفا مزمنا، ليس لجهة عدم قدرته

على فك ارتباطه بالمجتمع السياسي فقط، وانما أيضا، عدم قدرته على فك ارتباطه عن اللحظة الثالثة، في الكل المجتمعي. أي عن قاعدة العلاقات الاجتماعية، سواء كانت علاقات الإنتاج والمؤسسات الاقتصادية خصوصا التقليدية منها، او علاقات القرابة والجماعات الاهلية والوشائجية، متكيفة كانت او أصيلة. ذلك ان قاعدة اقتصادية "بنية تحتية" نقية بالمعنى الحازم لمفهوم علاقات الإنتاج، كعلاقة منفصلة ومحددة للعلاقات الاجتماعية الأخرى، ومتمايزة عن البناء الفوقي، هي غير متوفرة الى حد كبير في هذه المجتمعات[22]. ان اشتباك اللحظات الثلاث ما زال السمة المميزة للبلدان "غير الحديثة".

ان التمييز اعلاه مهم جدا، ومن الضروري ان لا يغيب عن البال عندما نضع تعريفنا للطائفية استنادا الى مفهوم التقاليد المبتكرة. وعندما نقارنها بغيرها من الظواهر، كما سيأتي لاحقا.

وللتلخيص، انتهينا الى ان خلق وابتداع الهويات والجماعات الحديثة، عملية اجتماعية تاريخية معقدة. تقوم إما على أساس تكييف وتحوير مؤسسات او كيانات او ممارسات كانت قائما فعلا؛ ام قد تكون اصطناعا لها؛ وربما تكون انتاجا متخيلاً بالكامل. وسواء كانت الهوية تحويرا ام اصطناعا ام تخيلا فهي يجب ان تنهض على آليات محددة، وظيفتها بناء الجماعة. وهذه الآليات يمكن تفسيرها كممارسات وتقاليد معينة، نمطية ومتكررة باستمرار، وظيفتها غرس القيم والمعايير تشد من أواصر الانتماء الى الجماعة، حسب مفهوم هوبزباوم "التقاليد المبتكرة". وبناء على ذلك سنقدم التعريف في ادناه للطائفية. وهذا التعريف ينطبق على ظواهر ونزاعات في منطقة الشرق الأوسط. ومدى انطباقه من عدمه على مناطق أخرى، هو قضية تحتاج الى دراسة وتمحيص.

سنعرف الطائفية: انها ممارسات، او تقاليد مبتكرة، تقوم بها سلطة او حركة سياسية، من اجل ابتداع جماعة مبتكرة ومتخيلة "الطائفة"؛ وجعل الانتماء لها اوليا، انتماء يتوسط الانتماء الى الدولة الحديثة.

فالطائفية اذن، عبارة عن مجموعة من التقاليد المبتكرة، ذات طبيعة طقسية ورمزية. تعمل على غرس قيم ومعايير يقينية ولا ريب فيها، وسلوكيات، عبر التكرار. مع افتراض استمرارية مع ماض تستخدمه الى اقصى حد ممكن، كي تشرعن الأفعال التي تشد لحمة الجماعة وتدافع عنها. بينما هي أساسا تمثل استجابة لظروف وبيئات اجتماعية جديدة.

وهذه الممارسات تقسم الى قسمين. الاول، هو التقاليد المبتكرة بالمعنى الذي حدده هوبزباوم، خصوصا النوع الأول منها. وبالتالي، هي ذات وظيفة داخلية. اما القسم الثاني، فهو تلك السياسات والإجراءات، الموجهة الى الخارج، التي من المفترض بها ان تدافع عن الجماعة كوحدة قائمة. وهذا التمايز ببين القسمين هو تمايز نسبي الى حد بعيد. فالتقاليد الحديثة المبتكرة لا تعمل فقط على تعزيز وحدة الجماعة، وانما هي تعبير عن هويتها وشخصيتها وبالتالي هي موجهة للخارج أيضا، الى الآخر الضد. كما ان السياسات التي تقوم بها السلطة او أي حركة اجتماعية دفاعا عن الطائفة، وهي بذاتها تقاليد مبتكرة أيضا، هي منعكسة الى الذات لتؤدي وظائف داخلية.

وبالتالي فإن الطائفية، ولأنها ممارسات، تعد

ظاهرة موضوعية. مثلها مثل الجهة التي تتبناها. أما "الطائفة[23] فهي هوية مبتكرة وجماعة متخيلة[24]. فليس هناك وجود فعلي، مادي موضوعي لـ "الطائفة" كبنية مجتمعية، ناهيك عن ان تكون ثابتة. هي مجرد متغير غير مستقل يعد نتاجا لممارسات سياسة حالية، نتاج للطائفية. وإذا كانت هناك جماعات أهلية قديمة، ذات وجود موضوعي، تم تكييفها وتكييف تقاليدها، او ابتكرت تقاليد جديدة لها، لتتلاءم مع الظروف الجديدة، ومن اجل غايات اجتماعية جديدة، "العشيرة" على سبيل المثال[25]؛ فإن "الطائفة" بحكم طبيعتها كعلاقة افقية ظاهريا بين الاعضاء، وبحكم غاياتها وحجمها المقصود عدم تحديده، ليست مبتكرة ومجددة فقط وانما متخيلة بالكامل. وذلك لأن افرادها لن يمكنهم نهائيا ان يتعرفوا على أعضاء الطائفة الاخرين، مع ان هناك صورة للتشارك معهم تبدو للجميع انها قائمة في ذهن كل واحد منهم[26]. ان لغة الطائفة الشعائرية وطقوسها ومؤسساتها تتمتع باستمرارية شكلية فقط. فكل هذا تم تكييفه وتحويره ليتجاوب مع الظروف الجديدة. كما ان سهولة الربط مع بعض احداث الماضي، دون الحاجة الى عمليات تلفيق كثيرة، ساهمت جميعها في توفير إمكانيات كبيرة للطائفية كي تسحب مفردات اللغة الرمزية والحكواتية القديمة بعيدا تجاه مساحات تاريخية واجتماعية جديدة، مكيفة إياها، دون الحاجة في الكثير من الاحيان الى ابتكار مفردات او ممارسات جديدة. ومتى ما لم تنجح عملية التكييف لأي سبب كان، يتم ابتكار الجديد. لأن الذاكرة الجمعية في المنطقة، التي كانت وما تزال تمثل خزائن غنية لما تراكم او انتقي قصدا او عفوية عبر الزمن، تسهل كثيرا من عملية ابتكار التقاليد. وبالتالي، سيبقى التاريخ الرسمي الطائفي، والذي صيّر جزءا أساسيا من ذاكرة أعضاء "الطائفة" والحركات السياسية الطائفية، هو تلك البقاع واللقطات التاريخية التي تم انتقاؤها او تحويرها او تلفيقها في بعض الاحيان، ومن ثم كتابتها، وتصويرها، وتعميمها على المستوى الشعبي. ولفهم تعريفنا السابق للطائفية والطائفة أكثر، من المهم مقارنته مع تفسير هوبزباوم للقومية والأمة. وهو الموضوع الأبرز الذي استخدم فيه هوبزباوم مفهومه "التقاليد المبتكرة" في تفسيره[27]. كما تسبق النزعة القومية (nationalism) الأمم عند هوبزباوم؛ فإن الطائفية كممارسة تسبق الطائفة وتبتكرها أيضا. ان الطائفية مثلها مثل القومية، هي العنصر الموضوعي الاولي، بينما الامة والطائفة لا تعتبران كيانا أساسيا او ثابتا. لكن، ان جاز ان تكون الامة بالنسبة الى هوبزباوم كيانا اجتماعيا عندما ترتبط بنوع محدد من الدول الحديثة الدولة القومية/ "الدولة – الامة"، فإن الطائفة وان ارتبطت بنشوئها بالدولة الحديثة فإنها ستبقى كيان مبتكرا ومتخيلا. وكما ربط هوبزباوم بين ظهور القومية وظهور اللغات القومية المحكية والمكتوبة بالتطور التقني، خصوصا مع ظهور الطباعة، وبمحو الامية والتعليم المدرسي؛ كذلك يمكن تتبع ظهور الإرهاصات الأولى للطائفية وللغة الطائفية - ان جاز التعبير- لتتزامن مع تطور وانتشار أيضا الطباعة الحديثة. فالطباعة لم تساهم فقط في تيسير حصول "العامة" على الكتب المقدسة فقط، بل هي قامت بعملية شعبنة للكتب الدينية التقليدية التي كانت حكرا على الخاصة، وكذلك نشرت كتب دينية شعبية من

ناحية الحجم والمضمون. يضاف الى ذلك انتشار التعليم والتعليم الالزامي لاحقا، الذي سهل عملية قراءة وتداول هذه الكتابات. ولأن هذه الظواهر الاجتماعية، ترتبط بظهور الدولة الحديثة، واجهزتها ومؤسساتها المعاصرة. لذلك نستطيع الجزم ان ظهور الدولة الحديثة، كان لها دور واضح في ظهور الطائفية. اما بخصوص التطور التقني الحديث، من ناحية وسائل التواصل الجماهيري والاجتماعي المملوكة وغير المملوكة للدولة، ودورها في نشر وترسيخ الطائفية، على اهميته، فهو يقع خارج نطاق ورقتنا هذه. ان شمولية القومية -الظاهرية- في الانتماء للدولة الحديثة بلا وساطة هي من الاختلافات الجوهرية التي تفرقها عن الطائفية، التي لا تدعي نهائيا لا شمولية الانتماء ولا انعدام الوساطة. وهذا الاختلاف وغيره، من الاختلافات والخصائص لا يمكن فهمها الا على أساس التمييز الذي ذكرناه آنفا. فوظيفة التقاليد المبتكرة في البلدان "الحديثة" - الاصح بلدان المركز الرأسمالي - تقع ضمن حيز المجتمع المدني، وهي إعادة انتاج المجتمع عبر الهيمنة، عبر انتاج معنى وهوية تجمع الناس معا، وبمن يحكمونهم. وذلك من خلال تشكيل جماعات تجمع شتات مجتمع منقسم ومتصارع طبقيا وايديولوجيا، الامة، القومية، والدولة القومية. اما في البلدان "غير الحديثة"، بلدان الأطراف، فإن وظيفة التقاليد المبتكرة تبدو معاكسة. فهي تساهم في عملية إعادة انتاج التبعية والتخلف، عبر إعادة انتاج النسيج المجتمعي غير المتمايز. وذلك إما عن طريق إعادة تشكيل وتحوير جماعات "علاقات القرابة، العشائر.. الخ" او ابتداع جماعات أخرى كـ"الطائفة"، تتوسط انتماء الفرد الى الدولة. دولة هي في نهاية المطاف، دولة حديثة شكليا[28]. وبهذا المعنى، يكون الحديث ان ضعف الدولة الحديثة او مؤسساتها في بلدان الأطراف، او بعضها على اقل تقدير، كي يكون هو سبب تنامي الانتماء لهويات وبنى اجتماعية تتعزز باستمرار، هي أساسا بنى ما قبل الدولة، ليس سليما تماما، الا إذا اخذنا بعين الاعتبار الجانب الاخر أيضا.

وهو أن الممارسات المنتجة لهذه البنى والجماعات بالابتكار او التكييف -او حتى بالاصطفاء- هي أساسا ممارسات سلطة. وبالتالي، يكون الاصح ان نقول انه في بعض بلدان الأطراف تكون الدولة كـ"سلطة" هي السبب في اضعاف الدولة كـ "مؤسسات"، كدولة حديثة. بمعنى اخر، ليس ضعف الدولة هو سبب الانتماء الى طائفة او عشيرة او غيرها، بل ان إعادة انتاج هذه البنى وبيئتها من قبل الماسكين بالسلطة هي سبب ظهور هذا الشكل الخاص من الدولة لبلدان الاطراف، كدولة هجينة او ضعيفة.

وفي الختام، بما ان الكينونات الاجتماعية الكبيرة مثل: الامة والدولة القومية كما أشر الى ذلك هوبزباوم في "المقدمة"، ونستطيع ان نضيف بناء على استنتاجنا الطائفة، هي بوضوح ودون لف ودوران ليست جماعات وشائجية (Communities-Gemein-schaften) حقيقية، بالتالي فإن الحراك الاجتماعي، والصراع الطبقي والايديولوجي في المجتمع، والذي كانت محاولة احتوائه احد اهم أسباب ابتكارها، ستصعب كلها من قدرة التقاليد المبتكرة -او بعضها على اقل تقدير- على الاستمرار في أداء وظيفتها في شد لحمة وتماسك هذه الجماعات[29].

ولكن، إذا كانت معركة الانعتاق من الهيمنة، من التقاليد المبتكرة، في بلدان المركز الرأسمالي "الحديثة" ستستمر، في المدى المنظور على الأقل، بصيغة حرب المواقع؛ فإنها في بلدان الأطراف لن تكون، عاجلا ام اجلا، الا صراعا صريحا مع السلطة.

الهوامش والمصادر

(1) ان نصف هذه المساهمات بـ "الجادة" هو أكثر عمومية واقل تحديدا وملموسية من إطلاق صفة "علمية". فالكثير من المساهمات النظرية لفهم ظاهرة الطائفية على الرغم من عقلانيتها لكنها تفتقر الى المميزات الجوهرية كي تكون علمية. بل ان البعض منها سياسي بحت.

(2) المنطقة هي منطقة الشرق الأوسط: بلدان الجزيرة العربية، بلدان بلاد الشام، مصر، العراق، إيران، تركيا. لا باعتبارها جغرافية سياسية فقط وإنما أيضا، كبيئة اجتماعية وسياسية متقاربة وكمناخ ثقافي مشترك نسبيا. حتى البلدان التي لم تعانِ صراحة من مثل هذا الصراع داخليا، فإنها كانت طرفا فيه على الصعيد الخارجي. تركيا على سبيل المثال.

(3) Hobsbawm Eric & Ranger Terence (eds.), The Invention of Tradition, Cambridge Univer .sity press, 2013

(4) Eric Hobsbawm, Introduction: Inventing Traditions, The Invention of Tradition, Eric Hobs- bawm & Terence Ranger (eds.), Cambridge University press, 2013, pp, 1-14

(5) .Terence Ranger, The Invention of tradition in Colonial Africa, pp. 211-262

(6) للمزيد حول هذه المسألة:

- Byron King Plant, Secrete Powerful and the stuff of legends: Revisiting theories of Inven- .ted Traditions, The Canadian Journal of Native Studies XXVIII, (2008), pp. 175-194, 177
- Robert Tonkinson, Tradition (Entry), In The Blackwell Encyclopedia of Sociology, George .Ritzer (eds.), Blackwell Publishing Ltd, 2007, pp. 5034-5036
- Marcel Sarot, Counterfactuals and the invention of religious traditions, In J. W. van Henten, & A. W. J. Houtepen (eds.), Religious identity and the invention of tradition: Papers read at .a NOSTER Conference in Soesterberg, January 4-6, 1999, pp, 21-40

(7) Lamont Lindstrom & Geoffrey M. White, Introduction: Custom today, Anthropological Forum , vol. 6, no. 4, 1993, pp, 467-473, 469

(8) Hobsbawm, Eric, Mass-Producing Traditions: Europe, 1870-1914, The Invention of Tradition, Eric Hobsbawm & Terence Ranger (eds.), Cambridge University press, 2013, Ch .7, pp. 263-307

(9) للمزيد حول الجدال مع الانثروبولوجيين ينظر الى المواد في هامش رقم (6)

(10) ما لم ترد إشارة بعكس ذلك، فإن كل ما ورد او سيرد في المادة من أفكار هوبزباوم حول التقاليد المبتكرة مأخوذة من الفصل الأول (المقدمة: ابتكار التقاليد) في كتابه المذكور سابقا.

- Eric Hobsbawm; Introduction: Inventing Traditions; The Invention of Tradition; Eric Hobsba- .wm & Terence Ranger (eds.), Cambridge University press, 2013, pp. 1-14

(11) فرّق هوبزباوم التقاليد عن العادات التي تحكم المجتمعات التقليدية. فالأخيرة لا تستبعد التجديد والتغيير الى حد ما. فهي لا يمكن ان تكون ثابتة. لكنها تحتاج ان يكون التغيير متناغما او حتى متماثلا مع سابقة. انها تمنح التغيير مصادقة الاستمرارية الاجتماعية. كما فرق ايضا بين التقاليد وبين تلك الأعراف والممارسات ذات الطابع التقني، التي ليس لها أهمية طقسية وان اكتسبتها عرضيا، بسبب التكرار. فالأخيرة قواعد سلوك مؤسسة على أساس براغماتي. وهي تنتمي بالمصطلحات الماركسية الى القاعدة وليس الى البناء الفوقي. فهي مصممة من اجل تسهيل القيام ببعض الممارسات العملية. انها ممارسات ممكن تحديدها وتعريفها بيسر وسهولة ومن الممكن تحويرها وتعديلها بسهولة أيضا او حتى هجرها من اجل مواجهة حاجات عملية متغيرة. انظر المقدمة، ص 2 - 4.

كما ميز التقاليد الأصيلة/ القديمة عن تلك المبتكرة. فالأولى معينة وواضحة بينما الثانية غير معينة وغامضة. كما يبدو من طبيعة الاختلاف في قيم وحقوق وواجبات أعضاء المجموعة. كما ان الثانية ترتكز على شمولية غير محددة. انظر المقدمة ص، 10 - 11.

(12) للمزيد حول الثورة المزدوجة انظر:

هوبزباوم، أيرك، عصر الثورة - أوروبا (1789-1848)، ط2، ترجمة فايز الصايغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008.

(13) ان انقطاع الاستمرارية لا يمكن التغاضي عنها حتى في المواقع التقليدية الاصلية. انه واضح كما أشار هوبزباوم في "المقدمة" عند دراسة الحركات التي تصف نفسها بتعمد كـ "تقليدية 'traditionalist'" والتي تستند الى مجموعات تعد عموما مستودعات للاستمرارية التاريخية والتقاليد مثل الفلاحين بل ان ظهور هذه الحركات بالذات من اجل الدفاع عن او بعث التقاليد، يعد مؤشرا على هذا الانقطاع. ان هذه الحركات، المنتشرة بين المثقفين منذ الرومانسيين، لا تستطيع تطوير ولا حتى الحفاظ على ماض حي. انها يجب ان تستند على 'تقاليد مبتكرة'. فمن ناحية اخرى قوة التقاليد الاصيلة وقابليتها على التكيف يجب ان لا يتم الخلط بينها وبين 'التقاليد المبتكرة'. فحينما تبقى الطرق والأساليب القديمة حية، فلا حاجة الى بعث/ احياء التقاليد او الى ابتكارها. انظر المقدمة، ص 8.

(14) Edward W. Said; Invention, Memory, and Place; Critical Inquiry, vol. 26, no. 2 (Winter, 2000), pp. 175-192, 179

(15) .Hobsbawm, Eric, Mass-Producing Traditions: Europe1870-1914, p, 263

(16) ماركس وانجلز؛ البيان الشيوعي، الجزء الأول، مختارات من أربعة أجزاء، موسكو، دار التقدم، ص54.

(17) هل تعد الجماعة الأهلية الوشائجية (Gemeinschaft Community –) احدى البنى الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، او هي مفهوم كلي يشتمل او يعبر عن كل هذه البنى؟ هذه مسألة نظرية أكاديمية. للمزيد حول الجماعة ما قبل الرأسمالية انظر على سبيل المثال ما استفدنا منه من مواد:

-تونيز، فرديناند، الجماعة والمجتمع المدني، تحرير جوزيه هاريس، ترجمة نائل حريري، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسات لسياسات، 2017.

هو عمل كلاسيكي مؤسس بامتياز لقضية التناقض ما بين الجماعات القديمة والمجتمع الحديث.

-أندرسن، كيفن ب.، ماركس ومجتمعات الأطراف، ط1، ترجمة هشام روحانا، سورية، دار نينوى، 2020، الفصل الخامس، ص 225 – 284 والفصل السادس 285 – 344

-غاليسو، رينيه، مدخل: جماعة، معجم الماركسية النقدي، جيرار بن سوسان وجورج لابيكا، بيروت، دار الفارابي، 2003، ص، 537 – 543.

-غودولييه، موريس، جماعة، مجتمع، ثقافة: مفاتيح ثلاثة لفهم الهويات المتصارعة ط1، ترجمة:زهرة جابر، مراجعة: سعود المولى، مجلة عمران؛ العدد 12، المجلد الثالث، ربيع 2015.

(18) Heather Douglas, Types of Community; In H. Anheier & S. Toepler (eds.), International-Encyclopedia of Civil Society, 2010, pp. 539-544.

لم يتم تناول الامة والقومية (Nation & Nationalism) ضمن آليات التفكير الماركسية الأرثوذوكسية سواء كانت الماركسية اللينينية او غيرها، بل كما جاءت في كتاب "ابتكار التقاليد". ويمكن ايضا الاطلاع على مقاربة هوبزباوم لهذا الموضوع عبر الاطلاع عليها في كتابه:

-أريك هوبسباوم، الأمم والنزعة القومية منذ عام 1780، ط1، ترجمة عدنان حسن، مراجعة وتحرير مجيد راضي، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، 1990.

(19) أشار هوبزباوم في "المقدمة بوضوح ان كانت هناك ثمة أي استمرارية تاريخية لأمة من الأمم او دولة من الدول القومية المعاصرة، فلن يسعى أي أحد الى إنكارها. لكن حتى هذه الأمة او الدولة ستبقى تتضمن، بلا شك، عناصر ومكونات مخترعة او مبتكرة.

(20) .Eric Hobsbawm, Introduction: Inventing Traditions, pp. 11-12

(21) ان خصائص واشتراطات تكون وتطور الدول الحديثة، في بلدان الأطراف تختلف عن تلك التي توفرت عند تشكلها في بلدان المركز الرأسمالي. كما ان مضامينها الاجتماعية تختلف عبر مراحل تشكلها وتطورها. بل ان علاقة التشكل التي تربط الدولة بالمجتمع تكون في الكثير من الأحيان عكسية.

(22) حول هذه الفكرة، أي عدم وجود علاقات إنتاجية نقية يمكن الاطلاع على أفكار موريس غودلييه:

Maurice Godelier, Infrastructures Societies and History, Current Anthropology; vol.19, no.4,-.December,1978

(23) التفريق بين الطائفة (Cult) والطائفة (Sect) ضروري. ببساطة ودون الخوض في التفاصيل والمصدر، الاولى، عبارة عن مجموعة تستند على أفكار وشعائر وربما قيم وسلوكيات جديدة وغير مألوفة بل قد تختلف كليا عن تلك السائدة. وهي في الغالب تعزل نفسها عن المجتمع الأكبر. بينما الثانية، هي مجموعة جزئية من مجموع اشمل – باستخدام المفاهيم الرياضية– لها أفكارها ومعتقداتها التي تميزها. ولهذا المفهوم استعمالات دينية وعلمانية. والاخيرة التي تعنينا في ورقتنا هذه وبمعناها الديني.

(24) الوصف التالي للتخيل والجماعة المتخيلة يستند الى "بندكت اندرسن". من المفيد التذكير ان دراسة العلاقة بين انتاج التخيل في المجتمعات الحديثة وصناعة الوعي الزائف هي مسألة في غاية الأهمية. للمزيد حول الجماعة المتخيلة انظر:

-بندكت اندرسن، الجماعات المتخيلة، تأملات في أصل القومية وانتشارها، ط1، ترجمة ثائر ديب، بيروت، المركز العربي

للأبحاث ودراسة السياسات، ص، 65-63.
(25) في كثير من الأحيان وضمن شروط وظروف اجتماعية تفقد هذه الجماعات الاهلية "العشيرة وغيرها" واقعها الموضوعي، مع تكيفها الجوهري وحتى الشكلي في بعض الأحيان في بيئاتها الجديدة، لتصبح أيضا مجرد جماعة متخيلة. ويمكن ان تعود الى موضوعيتها بحسب تغير الظرف.
(26) عرض عزمي بشارة في كتابه المعنون "الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة" أطروحة حول الطائفة كجماعة متخيلة مستندا الى أطروحة (بندكت اندرسن) التي قدمها في كتابه "الجماعات المتخيلة". لكنه لم يحدد أسباب إبداع التخيل. انها احدى المقاربات النظرية المهمة للطائفية التي من الواجب تحليلها استنادا الى استخدام مفهوم التقاليد المبتكرة. للمزيد:
– عزمي بشارة، الطائفة الطائفية الطوائف المتخيلة، ط1، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.
(27) للمزيد حول أفكار هوبزباوم حول القومية انظر:
-أريك هوبسباوم، الأمم والنزعة القومية منذ عام 1780، ص 16 – 17.
(28) ربما تكون قوة هذا الفعل السياسي ورسوخها اجتماعيا في بلدان الأطراف هي سبب من أسباب فشل الفعل المقابل. وأعني هنا فشل النزعات والحركات السياسية القومية والوطنية الساعية الى بناء دولة حديثة.
(29) ضمن نظريات النظام او المنظومة الرأسمالية العالمية، الذي يشتمل باختصار على بلدان مركز وبلدان أطراف تابعة، لا يمكن فهم هذا الصراع الطبقي الأيديولوجي في بلدان الأطراف الا إذا تضمن صراحة وجهه الآخر، أي صراع التحرر من التبعية.

العلاقة بين الديمقراطية والتنمية مع التركيز على حالة البلدان النامية

د.هاشم نعمة

أكاديمي وباحث، دكتوراه في الدراسات السكانية والجغرافية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989.

ظلت العلاقة المعقدة بين الديمقراطية والتنمية مثار بحث سواء على المستوى الإكاديمي أو مستوى المنظمات الدولية المتخصصة. ويحتدم النقاش ويتعقد البحث أكثر خصوصا عند تناول هذه العلاقة في إطار البلدان النامية؛ نظرا لإن مسار بناء الديمقراطية ومقدماته وعوامله وتحولاته وفق النموذج الغربي خصوصا في أوروبا، قد بُحث لفترة طويلة ومع ذلك فهو لا يزال يُبحث، وهذا هو ديدن المعرفة. أما في البلدان النامية التي لا تزال تجربتها في التحول الديمقراطي حديثة العهد، ومن ثم فإن معطياتها التجريبية والنظرية المشتقة من هذا التحول لا تزال أيضا في طور البحث والاستنتاج ولو بمديات أقل، بل أن هناك بلدانا نامية أخرى لا تزال لم تشهد هذا التحول وتعيش في ظل نظم مستبدة، هذه البلدان هي أيضا موضع بحث في سياق هذه العلاقة بين التحول الديمقراطي والاستبداد والتنمية. تهدف هذه المقالة البحث في هذه العلاقة من خلال التعرف موجزا إلى تطور الديمقراطية، وتناول الجانب النظري ذي العلاقة، وفحص الدولة الهشة، وبعض الدروس المستخلصة، وإلقاء الضوء مع شيء من التركيز على تجربة البلدان النامية، وأخيرا التوقف عند تجربة العراق. نأمل أن تُسهم هذه المقالة في توضيح بعض جوانب هذه العلاقة الشائكة واستخلاص بعض الدروس لعلها تكون نافعة.

نبذة عن تطور الديمقراطية

تُعد اليونان القديمة (خصوصا أثينا) على نطاق واسع المكان الذي نشأت فيه الديمقراطية الغربية والفكر السياسي، وكلمة ديمقراطية تمت صياغتها من الكلمتين اليونانيتين demos تعني "الشعب" و kratia تعني "الحكم". نظريا، كان هذا يعني حكم الشعب للشعب عكس حكم الفرد (الأوتوقراطية) أو حكم الأقلية (الأوليغارشية)، أي على شكل ديمقراطية مباشرة، حيث يمكن لجميع المواطنين أن يتكلموا ويصوتوا في الجمعية العامة. عمليا، لم تشمل الديمقراطية الأثينية بالمساواة وحق الانتخاب جميع الأشخاص، لذلك سُمح للمواطنين الذكور فقط بالمشاركة المباشرة، ونخبة سياسية صغيرة، واستُثنيت غالبية عامة الناس المتكونة من النساء والرقيق والمقيمين الأجانب. في الواقع، لم تشمل الديمقراطية

اليونانية معظم العناصر الرئيسة للديمقراطية الحديثة – المساواة لجميع الأشخاص قبل القانون وحق الانتخاب. وبالتالي، مثّلت المشاركة المباشرة في الحكومة من قبل قلة خاصة فحوى الديمقراطية الأثينية [1]. وعند عرض هذه التجربة لابد من أخذ السياق التاريخي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الاعتبار ودوره في نشأة هذه التجربة وتطبيقاتها. وبعد قرون تلت، شهدت إنكلترا تحولا بطيئا من المجتمع الزراعي إلى الديمقراطية البرلمانية. وفي فرنسا، كانت هناك حاجة إلى ثورة لإزالة العقبات من أمام الديمقراطية. وفي ألمانيا، أدى نضال الاشتراكيين الألمان في البداية إلى قيام جمهورية فايمار، وهي محاولة هشة لديمقراطية برلمانية والتي ثبت عدم قدرتها على الصمود أمام الكساد الكبير والنازية. واستمر النضال من أجل قيام ديمقراطية دائمة بعد الحرب العالمية الثانية، وأدى ذلك إلى قيام نموذج ديمقراطي ناجح في ألمانيا الغربية. وفي هولندا، لم يُقر حق الاقتراع العام حتى عام 1919، وفقط في عام 1922 ثبت في الدستور حق النساء في التصويت. ويلقي بارينغتون مور الضوء على الظروف التاريخية التي حدثت فيها هذه التحولات، في أوروبا وأماكن أخرى، ويبيّن الدور الأساس الذي لعبته المجموعات الاجتماعية في العمليات السياسية هذه [2]. طبعا، كان لعصر النهضة بدءا من القرن الرابع عشر وعصر التنوير الفكري والديني في القرن الثامن عشر اللذين شهدتهما أوروبا والتحولات الاجتماعية - الاقتصادية التي تلت ذلك وتمثلت في زوال الإقطاع وصعود البرجوازية التجارية ومن ثم الصناعية دورا أساسيا في نشوء الديمقراطية الليبرالية وتطورها وتعززها. هناك العديد من الطريق لفهم الديمقراطية التي تُرتكب باسمها في كثير من الأحيان أكبر الانتهاكات. بالنسبة إلى الإغريق القدماء، تعني الديمقراطية "حكومة الشعب"، كما اشرنا. وبالنسبة إلى مونتسكيو تتضمن الديمقراطية توزيع سلطات الدولة لتأسيس توازن بين هذه السلطات. مع ذلك، بالنسبة إلى البلدان النامية، على سبيل المثال، بلدان أمريكا اللاتينية، أصبحت الديمقراطية تعني فقط حق أي شخص بالإدلاء بصوته بحرية في الانتخابات. لم يُمارس في الحقيقة هذا الحق بشكل كامل وأسوأ من ذلك، أن الناخبين في الغالب ليس لديهم خيارات حقيقية. وعندما يجري النضال من أجل الديمقراطية في سياق إقليمي من التدخل الأجنبي المستمر تقريبًا، فإن النتائج، تميل إلى التطور نحو أشكال أكثر تعقيدًا من الهيمنة [3] سواء الداخلية منها المتمثلة بالأحزاب السياسية والمجموعات الاجتماعية والاقتصادية والدينية المهيمنة أو الجهات الخارجية متمثلة بالدول الغربية خصوصا الولايات المتحدة الأمريكية التي لها تاريخ طويل في التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان وتغيير نظمها السياسية بالقوة كما حصل في دعمها الانقلاب الدموي في تشيلي عام 1973 ضد حكومة منتخبة دمقراطيا؛ لأنها تعارض توجهات الولايات المتحدة في الهيمنة، وهذا مجرد مثال.

في الجانب النظري

لاحظ عالم الاجتماع الأمريكي سيمور ليبسيت لأول مرة عام 1959 بأن الديمقراطية ترتبط بالتنمية الاقتصادية. هذه الملاحظة

ولدت كما كبيرا من البحث في موضوعات السياسة المقارنة ذات العلاقة. فقد جرى دعم هذه الفكرة والاعتراض عليها، ومراجعتها وتوسيعها، وإهمالها وإنعاشها. وعلى الرغم من إعلان الخروج بخلاصات من هذا النقاش إلا أنه لم تظهر نظرية ولا حقائق واضحة حول هذه العلاقة [4].

ظلت العلاقة بين الديمقراطية والتنمية مثارا للنقاش وسط العلماء ويبدو أن هناك وجهات نظر مختلفة بشكل أساسي بشأن تأثير هذا التفاعل. من ناحية، يناقش بعض المنظرين بأن الديمقراطية والتنمية الاقتصادية يعزز كل منهما الآخر. من ناحية ثانية، يرى آخرون بأن الديمقراطية تضر بالتنمية. وما يزال البعض يؤيد فكرة عدم وجود علاقة ملموسة بين الديمقراطية والتنمية الاقتصادية. علما أنه في العقود الثلاثة الأخيرة، حاول العديد من الباحثين تأكيد مواقفهم بشأن هذه العلاقة، لكن انتهوا إلى استنتاجات متباينة.

يجادل بعض المنظرين أن الحكومة الديمقراطية هي الأنسب لتعزيز النمو الاقتصادي المستدام. إضافة إلى ذلك، فإن العمليات الديمقراطية ووجود الحريات السياسية تولد الظروف الاجتماعية التي تكون ملائمة أكثر للتقدم الاقتصادي؛ إذ يستنتج البعض بأن هناك علاقة ثابتة وإيجابية بين التنمية الاجتماعية - الاقتصادية والديمقراطية، وهذا واضح من حالة كثير من الدول التي مرت بالتجربة الديمقراطية.

هناك مقاربة واسعة الانتشار تعتبر أن الديمقراطية هي ثمرة للتنمية الاجتماعية -الاقتصادية. ومن بحوث تجريبية لمجموعة مختلفة من البلدان خلصت إلى أن التنمية الاقتصادية تتضمن التصنيع والتحضر (ارتفاع نسبة سكان المدن) ومستويات عالية من التعليم وزيادة منتظمة في الثروة الإجمالية للمجتمع، وتكون هذه الشروط أساسية لديمقراطية مستدامة. وعلى الرغم من اتفاق هؤلاء المنظرين بأن الديمقراطية تتطلب مسبقا مستوى معينا من التنمية الاقتصادية، ولكن لا يوجد اجماع واضح حول هذا المستوى ونمط التنمية الذي يخدم هذا الهدف، مع أنه يوجد اعتقاد واسع بأن الفقر يشكل عقبة أساسية أمام التنمية الاقتصادية والديمقراطية.

إنّ نظرة عابرة للعالم ستظهر أن البلدان الفقيرة تميل لتكون ذات نظم مستبدة، بينما الدول الغنية تميل لتكون ذات نظم ديمقراطية، (توجد دول غنية لكنها ذات نظم مستبدة وهذا ينطبق على الدول ذات الاقتصاديات الريعية خصوصا) مع ملاحظة بأن الديمقراطية ترتبط بدون شك مع مستوى معين من التنمية الاقتصادية. ومع أخذ الأهمية المركزية للتنمية الاقتصادية بالاعتبار، ينبغي التمييز بين آليتين قد ولدتا هذه العلاقة وذلك بالتساؤل فيما إذا كانت البلدان الديمقراطية قد انبثقت على الأرجح من تطور اقتصادي في ظل نظام دكتاتوري أو ظهرت لأسباب أخرى غير التنمية، والملاحظ أنه تستمر الديمقراطية على الأرجح في البلدان التي كانت متطورة بالفعل [5]. ومن الضروري الأخذ في الاعتبار عند التحليل، تجربة النمو الاقتصادي للفترة السابقة من الحكم الاستبدادي عند تقييم "نقطة البداية" للديمقراطيات الجديدة مقارنة بحالات الديمقراطيات الأكثر استقرارا [6]. وكما لاحظ البولندي برزيورسكي وآخرون فانه يبدو من المعقول الافتراض أن الفقر يولد الفقر والدكتاتورية. كما أن انتشار

فكرة التنازل عن ميزة من أجل الحصول على ميزة أخرى بين الديمقراطية والتنمية الاقتصادية لا يبدو سليما. تعكس العلاقة القوية بين الديمقراطية والتنمية حقيقة أن التنمية تفضي إلى الديمقراطية. لكن يثار سؤال لماذا تقود التنمية بالضبط إلى الديمقراطية؟ هذا ما جرت مناقشته بصورة مكثفة من قبل الباحثين. بالطبع لم يكن نشوء المؤسسات الديمقراطية تلقائيا وذلك عندما يحقق بلد ما مستوى معينا من الناتج المحلي الإجمالي. ثم أن التنمية الاقتصادية تجلب تغيرات اجتماعية وسياسية وبالتالي تفضي إلى الديمقراطية إلى الحد الذي تخلق طبقة وسطى كبيرة ومتعلمة وواضحة، وأن يرافق ذلك حدوث تحول في قيم الناس ودوافعهم.

ولكن إذا كان لنظرية التحديث من أي قوة تنبؤية، فلا بد أن يكون هناك مستوى معين من الدخل يؤشر نسبيًا إلى أن البلد سيتخلص من ديكتاتوريته. ومن الصعب على المرء أن يعثر على هذا المستوى: حتى وسط البلدان التي تفي بنظرية التحديث؛ إذ يكون مدى الدخل واسعا جدا، حيث يمكن للدكتاتوريات الاستمرار. علما أنه تطورت نظم مستبدة قليلة على مدى فترة طويلة، وحتى لو تحول معظمها في النهاية نحو ديمقراطية، لكن لا يوجد مستوى معين من الدخل يمكن على ضوئه توقع متى يجب أن يحدث ذلك التحول [7]؛ إذ أن هذا التحول يرتبط بجملة من المتغيرات ذات التأثيرات المتبادلة الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية والبيئية الخارجية والتي قد تساعد هذا التحول أو تعيقه.

الدرس الأكثر أهمية الذي تعلمناه أن البلدان الثرية التي تميل أن تكون ديمقراطية ليس لأن نشأة الديمقراطية جاءت نتيجة التنمية الاقتصادية في ظل الدكتاتوريات ولكن بسبب ـ كيفما نشأت- أن الديمقراطيات من المرجح أكثر أن تبقى على قيد الحياة في المجتمعات الثرية. يمكن أن تفتح التنمية الاقتصادية إمكانيات التحول إلى الديمقراطية، عندما تكون ظروف الديمقراطية ناضجة، وأما الصراعات السياسية فتكون نتيجتها غير معروفة. لذلك من الصعب كشف أي عتبة للتنمية من شأنها أن تجعل نشوء الديمقراطية أمرا متوقعا. باختصار، يبدو أن نظرية التحديث تتوفر على القليل من القوة التفسيرية، إن وجدت مثل هذه القوة [8] أصلا. أثيرت بعض الأسئلة ذات البعد التاريخي مثل من يسبق أولا الديمقراطية أم التنمية؟ وهل أن الديمقراطية شرط مسبق للنمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي؟ وهل ستكون الديمقراطية فقط قابلة للتطبيق وتتعزز عندما يكون هناك مستوى معين من التنمية قد انجز؟ وهل يجب أن تكون المجتمعات مؤهلة للديمقراطية أو تكون كذلك من خلال تطبيق الديمقراطية؟ وهل تكون التنمية الاقتصادية مستدامة بدون التطور السياسي والعكس بالعكس؟ ن ناحية أخرى، تظهر العلاقة الطردية في الاقتصاد الريعي ما بين الاعتماد القوي للدولة في إيراداتها على النفط مثلا وضعف القاعدة الاقتصادية التي تجمع الافراد للمطالبة بحقوقهم السياسية. وبما أنهم لا يساهمون في الدخل لذا يصبحون اقتصاديا وبالتالي سياسيا رعايا يسعون وراء منافع فردية أثناء قيام الدولة بإعادة توزيع الريوع النفطية في شكل إنفاق حكومي هدفه الأساس الحفاظ على الأوضاع الراهنة وتناسب القوى السائدة وتأبيدها [9]، وهذه تُعد من العوامل

المهمة في إعاقة التحول إلى نظام ديمقراطي حقيقي كما في حالة العراق. علما أنه لا يكون النضال من أجل الديمقراطية يتعلق فقط بإقامة نظام سياسي، بل يكون الأمر الحاسم قيام ديمقراطية دائمة. لا بد من التذكير بأن وجود اقتصاد متنوع كأساس يساعد على إقامة ديمقراطية حقيقية لا يعني أن دول الإنتاج ذات الاقتصاديات غير الريعية هي دول تشهد ازدهارا ديمقراطيا، ولكنها الأقدر على التحول نحو الديمقراطية من البلدان النفطية [10] . وهذا يتفق مع ما أشرنا إليه أعلاه. في الواقع، وجد أن استمرار الديمقراطيات من السهل جدا توقعه. على الرغم من أن بعض العوامل الأخرى تلعب أدوارا، إذ أن معدل دخل الفرد هو إلى حد بعيد أفضل مؤشر على بقاء الديمقراطيات على قيد الحياة. تستمر الديمقراطيات في المجتمعات الثرية على الرغم مما يحدث لها، بينما تكون الديمقراطيات هشة في البلدان الفقيرة. ولكن لا يحكم دائما عليها بالموت. ويساعد التعليم على استمرارها بشكل مستقل عن الدخل، ويجعلها التوازن بين القوى السياسية أكثر استقرارا. وتكون المؤسسات أيضا مهمة: فتتوافر الديمقراطيات الرئاسية على احتمال أقل للاستمرار في ظل جميع الظروف التي يمكننا أن نلاحظها مقارنة بالديمقراطيات البرلمانية [11] التي هي أكثر شيوعا على ما نعتقد.

هناك سببان واضحان لقيام الديموقراطية قد يكونان مرتبطين بمستوى التطور الاقتصادي: قد يزداد احتمال قيام الديمقراطية مع تطور البلدان اقتصاديا، أو بعد قيامها لأي سبب من الأسباب، وقد تتوافر الديمقراطيات على احتمال أكثر للاستمرار في البلدان المتطورة. علما أنه يُدعى التفسير الأول "ذاتي النمو" ويُدعى الثاني "خارجي المنشأ" [12].

أخيرا، هناك عوامل أخرى تؤثر في البناء الديمقراطي منها: الارث السياسي، أي هل كان البلد مستقلا أم خضع للسيطرة الاستعمارية (في كثير من الدول كانت الديمقراطية من ارث الاستعمار لكنها لم تستمر)، والتاريخ السياسي للبلد وعدد المرات التي حكم فيها من قبل النظم المستبدة، والبنية الطبقية والدينية والمذهبية والبنية الإثنية واللغوية، والبيئة السياسية الدولية ونسبة النظم الديمقراطية في العالم خلال فترة معينة وغيرها.

الدول الهشة

عندما نعالج الدول الهشّة [13] فإنه من الخطأ الفادح تجاهل أهمية الشرعية؛ إذ إما بسبب نقص الشرعية تصبح الدولة هشة، وإما لأنه يجب بناء دولة قابلة للحياة وبالتالي شرعية في بلد ما بعد الصراع. في الوقت نفسه، علينا التأكد من أن المؤسسات تتلقى الإشارات من المجتمع وتستجيب لها على نحو كاف. لذلك من المهم ليس فقط دعم القدرات الفنية للبرلمانيين، لكن مساعدتهم أيضا لزيادة شرعيتهم كممثلين من خلال محاسبة ناخبيهم لهم على أفعالهم. من الأهمية بمكان عدم التقليل من مخاطر الاستعانة بمصادر خارجية في ما يخص مهام ومسؤوليات الحكومة الرئيسة. ومن الطبيعي أن تكون الخدمات الأساسية عاجلة، لكن ينبغي أن تؤخذ الشرعية في الاعتبار في ضمان استلامها [14] من قبل المواطنين. وهذا الحالة تنطبق على العراق، حيث أن نقص أو انعدام الخدمات الأساسية يضعف شرعية النظام السياسي. يُعد نسبيا

تقدم الديمقراطية هدفا جديدا في التعاون الإنمائي، إذا فُهم بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو يعني التطور السياسي. لكن ينبغي أن يميز بوضوح تعزيز الديمقراطية عن حقل تقوية نظام الإدارة العامة، حيث للأخيرة تاريخ طويل في التعاون الإنمائي. يظل في الواقع كثير مما يُطلق عليه حاليا بتعزيز الديمقراطية في سياق برامج الحوكمة الجيدة ذات الطبيعة التقنية: المساعدات الانتخابية ودعم الخبراء والدعم المادي للمؤسسات ذات العلاقة مثل البرلمان [15]، وهو غير كاف لتعزيز الديمقراطية في البلدان النامية. هناك من يرى أن إجراء الانتخابات خلال عمليات الإصلاح الأولية يعمل عمليا على إبطائها؛ لسبب بسيط يتمثّل في أنه في البيئات ذات الدخل والتعليم المنخفضين جدا، تميل الانتخابات إلى أن تطغى عليها الأجندات الشعبوية. وستنتصر الشعبوية تقنيا على الاستراتيجيات الأكثر تطورا في هذه البيئات [16]، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ومنها ما يجري في العراق.

بعض الدروس

في الواقع، تستمر الدكتاتوريات لسنوات في بلدان كانت ثرية، استنادا إلى معايير المقارنة ذات العلاقة. ومهما كانت العتبة التي من المفترض أن تؤدي التنمية عندها إلى حفر قبر النظام المستبد، إلا أنه من الواضح أن الديكتاتوريات لا بد أن تكون قد مرّت بهذه العتبة وهي في وضع جيد. علما أنه ازدهرت أيضا الدكتاتوريات في سنغافورة وتايوان وإسبانيا والمكسيك وبلدان أخرى لسنوات عديدة بعد أن ارتفع الدخل فيها فوق 5000 دولار، هذا الدخل الذي لم يكن لدى أستراليا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيسلندا وإيطاليا وهولندا والنرويج بحلول عام 1951. وهناك دكتاتوريات استمرت على الرغم من الاحتمال القائل أنه ينبغي ان تتحول إلى الديمقراطية، إذ جرى توقع ذلك استنادا إلى مستوى التنمية وحده [17]. وهذا يُظهر مدى تعقد العلاقة بين التحول الديمقراطي والتنمية وارتباطه بعوامل أخرى أكثر تشعبا. فُرضت الديمقراطية في بعض البلدان من قبل دول الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية. تشمل هذه البلدان ألمانيا الغربية التي بحسب التوقع كان ينبغي أن تصبح ديمقراطية بحلول عام 1952، واليابان التي أصبحت ديمقراطية عام 1965 [18]، علما أنه ذُكر هذان المثلان مرارا في خضم احتلال العراق من قبل أمريكا وبريطانيا لتبرير الاحتلال وفرض ما ادعي أنه ديمقراطية. حاليا، من الممكن أكثر مقارنة بالسابق قياس التغيرات الرئيسة والمدى الذي تقدمت فيه بلدان معينة. فقد جعل التحليل المتعدد المتغيرات من استطلاعات القيم ذلك ممكنا لفهم التأثير النسبي للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأشارت النتائج إلى خلاصة تقول بأن التنمية الاقتصادية تفضي إلى الديمقراطية بقدر ما تحدث من تغييرات هيكيلية معينة (خصوصا صعود قطاع المعرفة) وتغييرات ثقافية معينة. كما تؤثر الحروب، والاضطهاد والتغييرات المؤسساتية، وقرارات النخب وقادة معينين في ما يحدث، لكن تعد التغييرات البنيوية والثقافية عوامل رئيسة في نشوء الديمقراطية واستمرارها. وهناك من يرى أنه من أجل تعزيز الديمقراطية نحتاج أن نتعلم من أخطاء الماضي. ولا يمكن للدمقرطة أن

تتعزز بالاعتماد على النماذج الغربية فقط. إذ أن الدعم المؤثر للدمقرطة ينبغي أن يركز على المبادئ الديمقراطية العامة في سياق اجتماعي - اقتصادي، سياسي معين.

في الهند مثلا، لم تتغير بشكل جذري نسبة السكان الذين يمكن تصنيفهم كفقراء بالمقياس المطلق منذ الاستقلال. يعني هذا أن التجربة الهندية لا تؤكد توقع الأداء الجيد للنظم الديمقراطية في جميع الأحوال بشأن الرفاه الاجتماعي. إذ من ناحية بُعد النمو تبدو الصورة أكثر تعقيدا قليلا: حيث كان هناك تأكيد على التصنيع، ولكن بسبب المعدل المنخفض للنمو في القطاع الزراعي، كانت النتيجة الإجمالية نموا ضعيفا إلى حد ما.

لم تعتمد كوريا الجنوبية على الاطلاق في بداية التصنيع على الديون الخارجية أو الاستثمارات الأجنبية، وبدلا من تطبيق توصيات صندوق النقد الدولي الدوغمائية (المتزمتة)، اختارت قيادة كوريا الجنوبية تبني استراتيجية تنمية خاصة بها. وتميزت سياساتها البديلة باستبدال الواردات مترافقة مع ترويج أو تعزيز مكثف للصادرات، وكلها مدعومة بتدخل الدولة القوي كمخطط وقائد ومحفز التنمية. وفيما بعد، جرى فتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية المباشرة من أجل جذب رأس المال، وكان الهدف من ذلك هو توجيهه نحو الشركات، حيث يمكنها بلورة نقل التكنولوجيا والمساعدة على بناء قدرات تكنولوجية محلية [19]. وكانت النتيجة تحقيق تطور اقتصادي وصناعي لافت، وأصبحت الشركات الكورية تستحوذ على عدد غير قليل من المشاريع الصناعية في العديد من البلدان ومنها العراق، حيث على سبيل المثال أن الشركة الرئيسة التي عُهد إليها بإنشاء ميناء الفاو هي كورية. على الرغم من أن هذا التطور لم يكن بعيدا عن الازمات التي هي سمة النظام الرأسمالي، كما حدث في أزمة عام 1998 في منطقة شرق آسيا، حيث أن كوريا الجنوبية جزء منها.

البلدان النامية

ينبغي علينا أن ندرك أن الحد من الفقر البنيوي لا يمكن تحقيقه دون ديمقراطية حقيقية. لكن هذا لا يعني فرض الديمقراطية بالقوة، أو الترويج لإرساء الديمقراطية كحل سريع لمشاكل التنمية المعقدة. وينبغي أن يشجع التعاون الإنمائي ويدعم عمليات التغيير والتحرر السياسيين الناشئة في البلدان النامية والتي ستساهم في نهاية المطاف بوجود عالم مستدام مع فقر أقل ومزيد من المساواة. للقيام بذلك، هناك حاجة إلى التركيز على زيادة وصول الفقراء أنفسهم إلى هذه العمليات والمشاركة فيها. لقد حان الوقت لفاعلي الديمقراطية والتنمية لتوحيد جهودهم .إذ يتطلب هذا النوع من التعاون الإنمائي مؤسسات سياسية، وطموحات واقعية، واستراتيجية تتناسب مع الحقائق السياسية على الأرض. في الواقع، يتطلب الأمر، عين على الإصلاحات الديمقراطية الضرورية وعين على ميزة الديمقراطية. وفي السياق العالمي المضطرب الذي نعيش فيه خصوصا، فإن أوروبا ملزمة بأن تفعل أكثر بكثير مما فعلت حتى الآن؛ إذ أن مصداقية جهودها الإنمائية على المحك[20] في الوقت الحاضر في ما يخص دعم البلدان النامية أكثر من أي وقت مضى. لا توجد علاقة تلقائية بين الشكل الديمقراطي للنظام وإجراءات تحسين الرفاه الاجتماعي

للجماهير. تتوافر الديمقراطية على إمكانات في هذا الصدد، والتي قد تتكشف أو لا تتكشف، وهذا يعتمد على عدد من العوامل من بينها الأكثر أهمية، الموارد والقوة والوعي والتنظيم والتأثير السياسي للقوى الشعبية. وينبغي أن يُنظر إلى هذا الأمر في ما يتعلق بطابع النخب وقوتها، التي تتعاون غالبا في تحالف مهيمن. ويكون وضع النخبة الزراعية ذا أهمية خاصة، بسبب من أنها قد تمنع إجراء الإصلاح في المناطق الريفية، والذي غالبا ما يكون حيويا لتحسين الرفاهية بشكل عام[21] ويمكن مقارنة ذلك بالعقبات الإدارية والاجتماعية التي واجهت تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في العراق الذي شرع عام 1958.عندما يشرع النظام العسكري في تبني نسخة من النمو المركزي الذاتي والذي يكون موجها بشكل خاص إلى النخبة، في جانب كل من العرض (التركيز على السلع الاستهلاكية المعمرة) والطلب (التصنيع ذو رأس المال الكثيف مع تحقيق معظم الفوائد لطبقة قليلة من الموظفين والعمال المهرة وذوي الياقات البيضاء.(فإن هذا يعني أن الغالبية الفقيرة من السكان لم تكن تشارك حقا في عملية التنمية؛ إذ أن الاحتياجات الأكثر إلحاحا بالنسبة لهذه الغالبية هي الصحة الأساسية والسكن والتعليم وفرص عمل مجزية [22]. هناك مشكلة أخرى تثار بشأن برهان الاستقرار. فعلى سبيل المثال، يكون في الغالب الاستقرار في الشرق الأوسط إما ظاهريا وإما هشا في أفضل الأحوال. إن القيام بإصلاحات ديمقراطية سيمكن بلدان المنطقة من الارتباط مع عالم آخذ في العولمة. وكما في أماكن أخرى، فإن الدمقرطة تُشكل شرطا أساسيا للعدالة والازدهار في هذه المنطقة.

اليوم، وبعد الفشل في العراق، نحن نشهد إعادة التأكيد على الاستقرار كهدف رئيس. ولكن يمكن فقط أن يكون للاستقرار معنى عندما يستند إلى التنمية والسلام والأمن. لذلك ستزيد في النهاية الإصلاحات الديمقراطية الحقيقية من داخل المجتمعات الاستقرار الحقيقي [23]. وما اندلاع الانتفاضات الشعبية في عدد من البلدان العربية، بدءا من عام 2011، إلا محاولات أولية لإقامة نظم ديمقراطية في المنطقة العربية، وعلى الرغم من الفشل الذي أحاط بتحقيق أهدافها فيمكن القول أنها تمثّل بروفات أولية تنبئ بحدوث تحولات أكثر عمقا واتساعا مستقبلا.

إذا كانت مؤسسات دولية خصوصا صندوق النقد الدولي والبنك الدولي قد أدت دورا في دفع بعض النظم العربية التي لجأت إليها بهدف جدولة ديونها والحصول على قروض وتسهيلات اقتصادية، للسير في طريق التعددية السياسية والانفتاح السياسي، وذلك باعتبار أن هذه المؤسسات تشدد على مسائل مثل حقوق الإنسان وسيادة القانون والشفافية، إلا أنه في المقابل، فإن سياسات التكيف الهيكلي التي اضطرت النظم المعنية لتنفيذها بحسب وصفات الجهتين وبضغوط منهما قد كان لها تأثيراتها السلبية في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدول المعنية، حيث أدت إلى تزايد حدة مشكلة البطالة، وتفاقم التفاوت الاقتصادي والاجتماعي، وتدهور معيشة قطاعات واسعة من المواطنين وخصوصا الفقراء ومحدودي الدخل. ونظرا لذلك فقد ترتب على هذه السياسات اندلاع تظاهرات وأعمال عنف في العديد من الدول، اصطلح على تسميتها بـ "إضرابات صندوق النقد"، ما دفع النظم الحاكمة إلى اتخاذ

إجراءات غير ديمقراطية بهدف مواجهة هذه الاحتجاجات الجماعية، والاستمرار في تنفيذ السياسات المعنية [24]. وهذا ما فاقم الأوضاع أكثر وعجل باندلاع الانتفاضات العربية المشار إليها. في البلدان الأفريقية، وبسبب تقصير أداء جميع المؤسسات الرسمية بشكل نظامي في نظر التوقعات الشعبية، سوف يسد الناس الثغرات المؤسساتية بالعلاقات غير الرسمية. وكما في أماكن أخرى، تقرر فعالية الديمقراطية مقدار المساحة المتبقية للمؤسسات غير الرسمية لتقويض التنمية المستدامة والمنصفة [25]. وينطبق هذا الحال على العراق، حيث تقوض المؤسسات غير الرسمية ومنها المليشيات أي تنمية حقيقية بمعناها الشامل. طالما طُرح سؤال هل التدخل الخارجي وتعزيز الديمقراطية يتوافقان في ما بينهما على طول الخط؟ إن المساعدات الإنمائية في نموذجها التقليدي من شأنها أن تقوض الديمقراطية بدلا من تعزيزها فعليا؛ بسبب من أن مثل هذه المساعدات تقدم في الغالب في ظل شروط غير شرعية، فعلى سبيل المثال، جعل المساعدات هذه عرضة للنقاش واتخاذ القرار بشأنها في الهيئات الوطنية مثل البرلمان، كما وضح ذلك إنيك فان كيسيل في بحثه حول مستقبل الديمقراطية في إفريقيا [26] وهذا ينطبق أيضا على بلدان أخرى خارج القارة. في ضوء مشكلات التنمية المعقدة، وعدم المساواة والاستبعاد الاجتماعي والعنف والإفلات من العقاب التي ابتليت بها أمريكا اللاتينية. سيتعين على الديمقراطيات في المنطقة إيجاد الحلول لهذه المشكلات قريبا إذا هي أرادت الاستمرار. وعندما لا يستطيع عدد كبير من الشباب المشاركة في التقدم الاقتصادي، فهم ليس لديهم ثقة في المؤسسات الرسمية الحاملة للديمقراطية. وإذا ترك التهميش دون معالجة، فإنه سيقود إلى المزيد من العنف والاجرام المؤسساتي. إن منع ذلك هو أكبر تحد لبقاء الديمقراطية في أمريكا اللاتينية[27] التي شهدت نظمها السياسية تقلبات ما بين الدكتاتورية والديمقراطية بتأثير العوامل الداخلية والخارجية. هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن العامل المهم لاستقرار النظام هو أيضا توزيع الدخل بين المجموعات المختلفة. ويمكن أن يحفز التفاوت الكبير في الدخل في ظل النظم الدكتاتورية، الحركات التي تجذبها وعود المساواة في الديمقراطية. وقد تسعى المجموعات الاجتماعية المهيمنة في ظل الديمقراطية إلى اللجوء إلى الاستبداد عندما يمارس الفقراء حقوقهم السياسية- سواء في شكل حق الاقتراع أو حرية تأسيس الجمعيات- التي تنتج منها الضغوط المطالبة بالمساواة. لسوء الحظ، يكاد يكون من المستحيل اختبار هذه الفرضيات. إذ أن أفضل معطيات متوفرة بشأن توزيع الدخل العائدة إلى دينينجر وسكوير عام 1996، لا تزال بعيدة عن الاكتمال وتجمع بين الأرقام التي جرى جمعها بطرق مختلفة. وبالنسبة إلى كثير من البلدان الأخرى، فإن المعلومات إما غير متوفرة على الاطلاق، وإما متوفرة فقط لسنوات متفرقة وبشكل غير مُنظم [28]. وهذا ما يعيق التحليل المنهجي والخروج بخلاصات أكثر موثوقية. هناك حاجة لإلقاء نظرة نقدية على الحكومة وأعمال مانحيها، وعند الضرورة، اتخاذ خطوات لضمان أن التعاون من أجل التنمية لا يُضعف المؤسسات الديمقراطية الوطنية أكثر. وإذا أثر هذا الجانب في التعاون الإنمائي، فإن

المساعدة ستكون في الواقع غير مسؤولة[29]، لأنها تمثُل تدخلا في الشؤون الداخلية.

العراق

بالنسبة إلى العراق، فقد جاءت تجربته الديمقراطية المتعثرة إثر احتلال، وكان البلد قبل ذلك منهكا بسبب الحروب الداخلية والخارجية والعقوبات القاسية التي فرضتها الأمم المتحدة بعد غزو الكويت من قبل نظام صدام حسين عام 1990؛ إذ انتشر الفقر على نطاق واسع وتراجعت الخدمات الأساسية والتعليم والصحة. ونتيجة تبني نهج المحاصصة الطائفية والإثنية الحاضن للفساد المالي والإداري بعد سقوط النظام عام 2003، لذلك لم تنطلق تنمية اجتماعية - اقتصادية حقيقية ترافق التغيير السياسي وتعززه نحو بناء نظام ديمقراطي على الرغم من ارتفاع عائدات العراق من النفط، بل ظلت أغلب المصانع معطلة والزراعة تتراجع، وتعزز التفاوت الطبقي وانتعشت الفئات الطفيلية وتفتت النسيج الاجتماعي وضعفت الهوية الوطنية أمام انتعاش الهويات الفرعية، الطائفية والإثنية والقبلية والمناطقية. وكل هذه الأمور لا بد أن ترتبط بعلاقة عكسية سلبية مع تعزيز الديمقراطية وتزيد من تعثرها وتشوهها. ونحن نعرف من تجارب المجتمعات أنه كلما انتشر الفقر والعوز وضعف الأمن فإن المطالبة بالحريات والحقوق السياسية تتراجع، وتصبح الأولوية لمتطلبات الحياة الأساسية. وقد لاحظنا ذلك من شعارات انتفاضة تشرين 2019، التي ركزت في مضمونها على العدالة الاجتماعية ولم تركز على تعزيز الديمقراطية كنظام. بل هناك من يبحث عن منقذ حتى لو كان مستبدا عندما تتردى الأوضاع، وتجربة تونس شاهد على ذلك، إذ مهد ضعف التنمية الاجتماعية-الاقتصادية إلى عودة الاستبداد.

من جانب آخر، بات الريع النفطي عائدا مباشرا للدولة العراقية يمثّل المفترق الأساس في الفلسفة الاقتصادية-السياسية، وهو أما السير في طريق التنمية والتحديث والتحول من المجتمعات ما قبل الرأسمالية إلى حالة اجتماعية-اقتصادية جديدة تتمثل بآفاق دولة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ونشوء الدولة الديمقراطية الحديثة أو الغاء الهياكل المؤسسية والتمحور حول نمط انتاج يعتمد الريع النفطي أداة لمركزة السلطة الذي يزيد من استبدادها [30].

وهذا هو المتحقق في الواقع في مجرى التراجع في مجال حقوق الإنسان وحرية التعبير وقمع الحريات. وعلى الرغم من كثرة الحديث عن إعادة الإعمار في العراق، إلا أن ما تحقق حتى الآن محدود ومتواضع بكل المقاييس. ومن أسباب ذلك أن هناك مشكلات ارتبطت بعملية إعادة الإعمار ذاتها، وخصوصا في ما يتعلق بخطط إعادة الإعمار، وعمليات تمويلها وإدارتها، ناهيك عن حجم الفساد المرتبط بهذه العملية. وهذه الأوضاع خلقت مشكلات وتحديات تُعقد بكل تأكيد عملية بناء مؤسسات ديمقراطية[31].

وقد ثبت أن نهج المحاصصة الطائفية الاثنية هو الحاضنة الأهم لتوليد الفساد الإداري والمالي وانتشاره في مفاصل الدولة والمجتمع، وأن مكافحته سوف لن يكتب لها النجاح - بل الحديث عنها مجرد للاستهلاك في ظل هذا النهج وباستخدام أدواته نفسها.

الهوامش

(1) European Parliamentarians with Africa, Democracy: Cornerstone for Development, Amsterdam: 2012, p. 15.

(2) Bert Koenders, Democracy Meets Development in Democracy and Development, Amsterdam: KIT Publishers, 2008, p. 104.

(3) Victor Manuel Figueroa Sepulveda (ed.), Development and Democracy: Relations in Conflict, Leiden/ Boston: Brill, 2017, p. 112.

(4) Adam Przeworski et all., Democracy and Development, Cambridge University Press, 2000, pp.78-79.

(5) Ibid., p. 78.

(6) Georg Sorensen, Democracy, Dictatorship and Development: Economic Development in Selected Regimes of the Third Word (Hampshire/ London: Macmillan, 1990), p. 177.

(7) Przeworski et all., p. 97.

(8) Ibid., p. 137.

(9) صالح ياسر حسن، الريوع النفطية وبناء الديمقراطية الثنائية المستحيلة في اقتصاد ريعي، بغداد، مركز المعلومة للبحث والتطوير، 2013، ص 173.

(10) المرجع نفسه، ص 174.

(11) Przeworski et all., p. 137.

(12) Ibid., p. 88.

(13) لمقارنة مفهوم الدولة الفاشلة ومقررات فشلها، راجع: هاشم نعمة فياض، دراسات في الدين والدولة، بغداد، المركز العراقي للدراسات والبحوث المتخصصة، 2018، ص 106-101.

(14) Koenders, p. 117.

(15) Bert Koenders & Cor Beuningen, "Democracy, Nation Building and Development", in Democracy and Development, Amsterdam: KIT Publishers, 2008, p. 82.

(16) Paul Collier, "Fragile States", in Democracy and Development, Amsterdam: KIT Publishers, 2008, p. 93.

(17) Przeworski et all., p. 94.

(18) Ibid., p. 87.

(19) Cristina Recendez Guerrero, Economic Growth, Democracy and the Construction of Citizenship in South Korea, in Development and Democracy: Relations in Conflict, Leiden/ Boston: Brill, 2017, pp. 109-110.

(20) Koenders, p. 103.

(21) Sorensen, p. 166.

(22) Ibid., p. 181.

(23) Koenders, pp. 109-110.

(24) حسين توفيق إبراهيم، العوامل الخارجية وتأثيراتها في التطور الديمقراطي في الوطن العربي، في الدولة الوطنية المعاصرة: أزمة الاندماج والتفكيك، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2008، ص147 - 148.

(25) Koenders, p. 112.

(26) Koenders & Beuningen, p. 73.

(27) Koenders, p. 113.

(28) Przeworski et all, p. 117.

(29) Koenders, p. 115.

(30) حسن، ص 182.

(31) إبراهيم، ص 155.

مدرسة فرانكفورت النقدية: مرحلة التأسيس والبدايات (1924 - 1932)

د.ماجد الياسري

تمثل دراسة التيارات الفكرية اليسارية الأوربية ما بعد ماركس مهمة ضرورية للشيوعيين وقوى اليسار كون الفضاء الذي تتحرك به النخب السياسية و الثقافية اليسارية وفي جميع بلدان العالم و منها الشرق الأوسط والعراق، مشبعا بها، وقد يؤدي إذا لم يتم فهمه واستيعابه والتعامل معه بالارتباط مع المهمات الوطنية والطبقية، الى مواقف واستنتاجات تترك اثارها في إشاعة الإحباط واللاجدوى من النضال العملي باتجاه التغيير والذي على نقيض مهمات النضال على الجبهة الفكرية والترابط الديالكتيكي بين النظرية المتجددة والممارسة الثورية.

في هذا السياق تأتي أهمية البحث التاريخي في "المدرسة النقدية" التي كان لها تأثير على تشكل الاتجاهات الفكرية اليسارية المتعددة في أوروبا خاصة في مرحلة الستينات، وبين أوساط الطلبة و الشباب وصولا الى تحديد موضوعي لمساهماتها الفكرية وبمنظور تقييمي نقدي و التي كانت لدى البعض ممن كتبوا عنها أشبه بمغامرة فلسفية و نظرية لاحتلالها موقعين متميزين الأول في فترة التأسيس عندما كان هاجس رموزها العمل على تنقية المنظومة الفكرية الماركسية مما أطلق عليه شوائب و ترسبات الدوغماتية والأرثوذكسية واغناؤها بعلوم ومعارف اجتماعية وإنسانية جديدة لم تكن موجودة في حياة ماركس، والثاني انتقالها في مرحلة لاحقة الى فضاء فكري اخر مختلف كليا عن المنهج الماركسي تسوده مفاهيم مستقاة من مدارس معرفية كانت جزءا من المعسكر الفلسفي المثالي و تبني مفاهيم سادت ما بعد الخمسينات في القرن الماضي هي اقرب الى اطروحات ما بعد الحداثة و شاعت في كتابات رموز المدرسة النقدية على شكل مصطلحات غامضة ومعقدة وصعبة الفهم وتضفي هالة زائفة من العمق و التي وصفها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (1926 1984) بـ"غموض الإرهابي".

ومن الجدير بالإشارة ان العمل الفكري ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي شهد حراكا غير مسبوق من الشك والنقد في كل مفردة وموضوعة ذات صلة بالماركسية نظرية كانت أم ممارسة، مقابل ذلك كان هناك نشاط ملحوظ من أجل تجديد الفكر الماركسي ولكن تعددت الآراء و الاتجاهات حول ما يعني ذلك وكيف يمكن أن يكون مواكبا لمرحلة ما بعد نهاية القرن العشرين و التحولات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و العلمية و خاصة الثورة الرقمية التي بدأت ملامحها تتضح بشكل دراماتيكي .

بين مدرسة فرنكفورت والحركة النقدية

من النادر جدا ان تسمى مدرسة فكرية باسم مدينة فعلى سبيل المثال كان اغلب مفكري ''البنيوية'' من فرنسا ولكن لم تسمِ بمدرسة باريس ولكن اختلف الامر معَ مدرسة فرانكفورت والتي احد مسمياتها أيضا ''المدرسة النقدية'' وهنا من الضروري عدم الخلط مع المدارس النظرية النقدية الأدبية.

وقد تناول ألن هاو في كتابه عن النظرية النقدية الصادر عام 2003 بعدم تحبيذ استخدام تسمية المعهد باسم المدينة، لأنها لم تأت من داخله وشخص الجانب التأملي في منهج المعهد البعيد عن العقائدية الجامدة.

بينما يشير الباحث الألماني رولف ويكرزهاوس في كتابه عن مدرسة فرانكفورت الذي نشر عام (1995) الى ان اول استخدام توصيف ''المدرسة'' كان من خارج المعهد في عام 1960 مع صعود الانتفاضة الطلابية في أوروبا التي حظي بها هربرت ماركوزة (1898 - 1979) بشهرة واسعة كأحد منظري اليسار الجديد في نقده المجتمع الصناعي ''الرأسمالي والسوفيتي''.

واصبح تعبير المدرسة اشبه بالعلامة الفارقة للمعهد والتي استخدمها ادورنو (1870-1964) باعتزاز لاحقا الا انها في الواقع ندرت الإشارة اليها من قبل كتاب المعهد بينما شاعت بين من كتبوا عنه من خارجه ولكن بقي يحمل دلالة تاريخية.

ولخص ويكرزهاوس الأسباب التي دعت الى إطلاق لقب ''المدرسة'' عليها منها وجود إطار أكاديمي مؤسساتي ارتبط بجامعة غوته العريقة في فرانكفورت دخلته رموز ونخب كان لها حضور في الفضاء الثقافي الألماني والأوروبي. كما كانت هناك رؤية للمعهد ودوره الثقافي المستقبلي قدمها ماكس هوكهايمر عام 1931 في محاضرته حول واقع الفلسفات الاجتماعية ودور المعهد في تقييمها ودراستها وطرح فيها مقاربة ''النظرية النقدية''، والتي قصد بها تكامل منهجي ومدروس بين المادية التاريخية مع علوم الاجتماع والتحليل النفسي والمدارس الفلسفية الألمانية الناقدة للاتجاهات اللاعقلانية المستقاة من هيجل (1770 - 1831) وكانت (1724 - 1804) وشوبنهاور(1766- 1838) و نتيشه (1844- 1900).

ويرى معظم من كتبوا عن المعهد ان الطريقة الأفضل هي في تقسيم مراحل تطور المدرسة النقدية الى مرحلة التأسيس التي انتهت مع تولي ماكس هوكهايمر (1895-1973) إدارة المعهد التي دشنت بداية مرحلة الجيل الأول وأعقبها الجيلان الثاني والثالث، بينما يرى ويكرزهاوس بان مرحلة ما بعد 1970 تختلف جوهريا ونوعيا عمّا سبقها.

وأكدت المقاربة النقدية على المنهج العلمي ورفض الالتزام بضوابط مفروضة من قبل

تنظيم سياسي او أيديولوجي عبر طريق البحث التأملي بما هو خلف المنظومات الفكرية مثلا في الماركسية نمط الإنتاج او التمرحل او الحتمية التاريخية.

وقد علق الناقد والكاتب الماركسي المجري المعروف جورج لوكاتش (1885 - 1971) من ان ''النظرية النقدية'' قد استقرت في هاوية الفندق الكبير عاكسا الآراء التي سادت في بعض أوساط اليسار حول المدرسة النقدية وانها تحولت في سنواتها الأخيرة الى مجرد سفسطة تتسم بالتشاؤم لنخب من الطبقة الوسطى وهم يجلسون في مقعد وثير بعيدا عن المخاطر الحقيقية التي تواجه الانخراط في النضال الثوري ولا علاقة لها بالماركسية بل هي مجرد تبرير للاعتكاف عن الممارسة .

واعتبر اندرو بنداكس المدرسة النقدية نموذجا لانهيار ''البراكسيس'' في النصف الثاني من القرن العشرين بين النخب الفكرية اليسارية التي انتشرت في الجامعات الغربية في أوروبا والولايات المتحدة عبر فصل النشاط الفكري النظري عما أطلق عليه ماركس القوى المادية من عقل وطاقة ونشاط المضطهدين في النظام الرأسمالي وبين المشاركة في النضال الثوري من أجل الاشتراكية.

بينما يرى اخرون ان المدرسة النقدية قد تركت بصماتها بعمق لأنها فتحت آفاقا رحبة للنشاط والتدقيق الفكري ومراجعة مسلمات أيديولوجية سادت في أوساط اليسار، ومارست تأثيرها لعقود من السنين خاصة في بداياتها كمركز لدراسة النظرية والمنهج الماركسي بعيدا عن التأثر بالاتجاهات الرئيسية في الماركسية الغربية التي انتشرت في أوروبا في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وأن ما ميزها عن غيرها من الاتجاهات الفكرية هو كونها مثيرة للجدل واتسامها بالغموض منذ الكتابات الأولى لماكس هوكهايمر ويوجين هيبرماس (ولد في عام 1929).

ومن الضروري التوضيح هنا ان المدرسة النقدية لم تطرح منظومة فكرية او أيديولوجية متفق عليها بين منتسبي المعهد، بل كان هناك طيف واسع من الآراء والتصورات حول ما تعني الماركسية أو تجديدها ورفض تقديسها واتباع المعالجات النقدية للوصول الى فهم أفضل وأعمق لها مما كان سائدا في زمن ماركس. ولهذا فهمت النظرية ''النقدية'' بأشكال مختلفة مع شبه اتفاق بان مقاربتها تبتعد عن التطبيق الجامد لمفاهيم ارتبطت بشغف ماركس بتحليل بنية النظام الرأسمالي كالقاعدة التحتية والبناء الفوقي أو النمطية والتمرحل التاريخي مع التركيز على كتابات نتاجات ماركس الشاب.

وقد اعتمد عدد من كتاب المعهد على العلوم النفسية أيضا واستخدمت مفاهيم مثل اليات التحليل النفسي وتوصيفات نفسية مثل القلق والعصاب والإحباط في دراسة القيم الاجتماعية او التركيب الطبقي المجتمعي.

مرحلة النشوء والتكون

شكلت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي سادت في المانيا بعد الحرب العالمية الأولى المشهد والسياق التاريخي لنشوء المعهد. فقد سقطت الملايين من الضحايا البشرية رافقها انتشار الأوبئة وتفاقم الجوع والفقر والبؤس والتشرد ومظاهر التدهور الاقتصادي والاجتماعي نتيجة تحطم

البنى التحتية للطاقة والصناعة وتراجع مكانة أوروبا الاقتصادية والسياسية.

وبعد خسارة ألمانيا الحرب العالمية الأولى تشكلت جمهورية فايمار التي قادها الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (انشق عنه الحزب الشيوعي الألماني الذي كان مناهضا للحرب ومن ابرز قياداته روزا لوكسمبورغ (1871 - 1919) و كارل ليبكنخت (1871 - 1919). وقد عصفت رياح التغيير في أوروبا مع انتصار الثورة الروسية عام 1917 كأول ثورة اشتراكية ظافرة، ولكن في بلد تميز بضعف التطور الرأسمالي بسبب غلبة علاقات القنانة والإقطاع في روسيا القيصرية. فمثلا شهدت أوروبا انتفاضات عمالية واحتجاجات شعبية وظهور بلدان جديدة بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية والروسية. أما في المانيا فقد قمعت الانتفاضة التي قادها الحزب الشيوعي الألماني (1919) بعنف وقسوة بالغة والذي كان يقف في نشاطه الدعائي والتحريضي مع البلاشفة مقابل موقف الاشتراكيين الديمقراطيين المعادي لها، حفاظا على مواقعهم ومكاسبهم في قمة السلطة.

ومع حالة الاستقطاب التي سادت في أوساط اليسار الألماني مع او ضد ثورة أكتوبر، برز اتجاه ثالث بين النخب الثقافية الناشطة في المنتديات الاجتماعية الفكرية اليسارية المتعددة آنذاك، يدعو الى مراجعة أسس الماركسية، بهدف تصحيح مساراتها من اخطاء الماضي ومن ضمنها العلاقة بين النظرية والممارسة والعمل من أجل تنظيم فعاليات فكرية تهدف الى مراجعة للتراث الماركسي بشكل مستقل، بعيدا عن الضغوط السياسية.

ويعود الفضل في انشاء المدرسة الى الشاب اليساري فيلكس فييل (1898-1975) المنحدر من عائلة ثرية الذي كان طامحا لإنشاء مؤسسة أكاديمية تهتم بالدراسات الفكرية الماركسية والكشف عن العقبات التي تواجه الحركات اليسارية والعمالية. وكانت نيته في البداية إقامة المعهد ومن ثم تسليمه الى الحكومة السوفيتية التي يتم تشكيلها بعد انتصار الثورة في المانيا.

وقد ولد فيلكس في بونيس ايريس وعاش فيها حتى عمر التاسعة عندما أرسله والده الى مدينة فرانكفورت في المانيا لمواصلة الدراسة فيها كأحد تلامذة الاشتراكي الألماني روبرت وليبرانت (1875- 1954) الذي شغل مقعدا في جامعة توبرنجن. وكتب فيلكس آنداك مقالة حول جوهر وآليات الانتقال الى الاشتراكية نشرت في مجلة برلين للمجاس العمالية والتي طورها لاحقا بتشجيع من استاذه وليبرانت كأساس لأطروحة الدكتوراه والتي منحتها له جامعة فرانكفورت بعد طرده من توبرنجن، متهما بنشاطات تحريضية ضد أستاذ في الجامعة عرف بعنصريته. وكان عنوان اطروحته "محاولة لتوضيح ونقد الأسس المفاهيمية للانتقال الى الاشتراكية"، ونشرت كأحد فصول المجلد السابع والأخير المعنون "في التطبيق الاشتراكي"، الذي يشرف عليه كارل كورش (1886- 1961) وهو ماركسي الماني كان شديد النقد لأطروحات كاوتسكي (1854-1938) و لينين (1870-1924) و كان يعمل مساعد وليبرانت عند رئاسته هيئة التحول الاشتراكي التي تشكلت أثناء انتفاضة 1919.

لقد كان فيلكس شابا دفعته مآسي الحرب

العالمية الأولى وتصاعد معاداة السامية و انتفاضة نوفمبر 1919 العمالية في المانيا الى حلبة النشاط السياسي بقوة مؤمنا بالاشتراكية كمشروع انساني يمتاز برقي في تنظيم قدرات الانسان المادية و الروحية، وفي نفس الوقت كرس نشاطاته الأكاديمية لدراسة النظريات الاشتراكية ومنها الماركسية، وهدفه ان يلعب دورا في دعم النظام الاشتراكي القادم الذي سيتحقق في حالة انتصار الثورة العمالية في المانيا. ولكن كانت مشاركته الفعلية في النضالات المباشرة ومعارك الشوارع محدودة حيث أطلق على نفسه لقب "بلشفي الصالونات" في عام 1973 في محاضرة قدمها بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس المعهد.

ولم يكن فيلكس عضوا في الحزب الشيوعي الألماني بل صديقا مقربا من القائدة الشيوعية الألمانية كلارا زتكين، وتزوج بنت احد صديقاتها وأيضا كان صديقا لبول فروليغ (1884-1953) الذي كان رئيس تحرير جريدة الحزب الشيوعي الالماني، وانشق عنه لاحقا. كما مول فيلكس أيضا دار نشر مالك فيرلاك الألمانية التي اهتمت بنشر الادبيات الشيوعية والاعمال الريادية في الفن و الادب، فمثلا قامت بنشر الطبعة الأولى لكتاب جورج لوكاتش "التاريخ والوعي الطبقي". وكان اول لقاء جمع فيلكس مع ماكس هوكهايمر و فردريك بولوك (1894-1970) في كانون اول 1919، وغالبا ما أستشارهما حول طموحه بإقامة المعهد وكيف يتم ضمان استقلاليته وطبيعة علاقته مع الجامعة بما يضمن أجواء اكاديمية رحبة لدراسة و اجراء البحوث عن الماركسية والحركات العمالية، بلا قيود سياسية ولا ضوابط جامعية او من ضغوط معاداة السامية. وكان الهدف هو بلورة علاقة مناسبة مع جامعة رصينة مثل جامعة فرانكفورت التي تم افتتاحها عام 1914، والعمل من اجل ان يصبح رئيس المعهد بدرجة أستاذ فيها، ولكن يبقى المعهد مستقلا إداريا وماليا واكاديميا. وقد ضمت مدينة فرانكفورت آنذاك أكبر جالية يهودية في المانيا بعد برلين، تواجد عدد كبير من المتعاطفين مع الفكر الاشتراكي والشيوعي الذين يلتقون في صالونات ومنتديات منتشرة آنذاك في المدينة.

أسبوع الدراسات الماركسي

وبسبب طبيعة وتركيبة اليسار الألماني المعقدة آنذاك لم تلتحق التنظيمات اليسارية والعمالية في المانيا بالأممية الثالثة (1919-1943) لدراسة الثورة الروسية خاصة بين مجموعة من النخب الثقافية وتقييم الجوانب النظرية والتطبيقية في الماركسية. وأحد هذه المبادرات هو تنظيم "أسبوع الدراسات الماركسية". وشارك في هذا الأسبوع 12 من المهتمين بالفكر الماركسي مع زوجاتهم. وكان اغلبهم بعمر الثلاثين عاما ومن حملة شهادة الدكتوراه ماعدا لوكاتش (1885-1971) وكورش اللذين كانا أكبر عمرا. و حضر الأسبوع أيضا ريتشارد سورج (1895 - 1944) الذي كان صحفيا وعضوا في الحزب الشيوعي الألماني (أعدمته السلطات اليابانية بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي) وكان مساعدا للبروفسور كورت البرت كيرلاغ (1886-1922) .

وقد عقد هذا الأسبوع خلال صيف 1922 خارج مظلة الحزب الشيوعي الألماني وكانت مؤشرا لتوتر العلاقة بين المثقفين

الاشتراكيين والشيوعيين المنخرطين في التنظيم الحزبي مع أن كورش كان عضوا في الحزب الشيوعي الألماني بينما كان لوكاتش عضوا في الحزب الشيوعي المجري. وبرز فيلكس في الأسبوع كراع وممول لنشاطات اليسار في المانيا وأعلن عن طموحه بخلق معهد للماركسية يخرج النقاش من أوساط انتلجنيسيا الطبقة الوسطي المتناثرين في المراكز الاكاديمية الى معهد أكاديمي رصين ومستقل . وقدم كورش الذي كان مهتما بالفكر الديمقراطي الراديكالي الاشتراكي ولوكاتش الذي كان مهتما بموضوع الثقافة وتمثلها مجتمعيا مادة النقاش الأساسية في الأسبوع وعلى شكل ورشات عمل.

معهد الدراسات الاجتماعية

من العوامل التي سهلت إقامة المعهد هو تعاطف وزارة الثقافة التي يهيمن عليها الاشتراكيون الديمقراطيون مع النشاطات الثقافية اليسارية و الاجتماعية وتجاوبها إيجابيا مع مقترحات فيلكس عندما فتح في 1920 نقاشا مع وزارة العلوم والتعليم والفن في برلين للموافقة على إقامة معهد لدراسة الاشتراكية العلمية وحظيت بدعم خاص من وزير الثقافة كونراد هينيش (1876-1925) الذي كان من يسار الحزب الاشتراكي الديمقراطي . وكان الخيار الأول لاسم المعهد هو معهد الدراسات الماركسية الا انه استبعد باعتباره مباشرا ومثيرا للانتباه كما رفض فيلكس مقترح وزارة التربية الألمانية التي اقترحت ان يكون باسم ”معهد فيليكس فييل للدراسات الاجتماعية“ والذي رفضه فيلكس ورسا الحوار بأن يطلق عليه اسم معهد الدراسات الاجتماعية (والذي اسمه مماثل لمعهد كان آنذاك في اليابان).

وكان اول مرشح لإدارته كورت ألبرت كيرلاغ الذي كان من يسار التيار الاشتراكي الديمقراطي وأستاذ العلوم الاقتصادية في جامعة أخين. وفي 1922 عرض عليه منصب مدير المعهد. وكان المقرر تدشين ادارته بتقديم سلسلة من المحاضرات حول تاريخ الفوضوية والاشتراكية والماركسية، ولكن المدير توفي بشكل مفاجئ بسبب مضاعفات مرض السكري وعمره 36 سنة.

وقبل مرضه فتح كورت وبالتنسيق مع فيلكس حوارا مع جامعة فرانكفورت حول صيغة العلاقة مع المعهد على ضوء مذكرة كتبها في 1922 حدد فيها رؤيته للمعهد و الأهداف المتوخاة من نشاطاته والذي يكون دوره بالأساس بحثيا مع تخصيص كرسي في علوم الاجتماع لمدير المعهد، والذي واجه معارضة من بعض الأكاديميين في الجامعة الذين اعتبروه نافذة لتسلل البلاشفة الحمر الى الصرح الاكاديمي الذي يجب ان يحافظ على حيادتيه. وقد قدّم فيلكس استعداده لتغطية نفقات المعهد من بناء ومرتبات للعاملين فيه وبضمنها راتب مدير المعهد (وفعلا تم وضع الدعم المالي في حساب خاص في جامعة فرانكفورت وتكون تحت تصرف مدير المعهد و برقابة من الجامعة) ولكن بشرط ان يكون له رأي في اختيار مدير المعهد.

وبعد وفاة كورت كيرلاغ تحول الاهتمام نحو غوستاف ماير (1871-1948) الذي كان صحفيا ومهتما بتاريخ الحركات العمالية وأيضا كتب عن حياة فردريك انجلز نشرها عام 1919 واصبح في 1920 أستاذ التاريخ في احد جامعات برلين، ولكن رفضه فيلكس الذي وصفه ”شيوعي بثياب أرستقراطية“.

واتجه بعدها البحث عن مدير للمعهد صوب فيينا حيث يوجد الاكاديمي كارل كرونبرغ (1861-1940) الذي كان من عائلة يهودية نمساوية وقام بدراسة القانون في جامعة فيينا وفي 1894 اعتنق المسيحية الرومانية الكاثوليكية، ودخل السلك الاكاديمي فشغل موقع أستاذ القانون والعلوم السياسية في جامعة فيينا منذ عام 1912 وكان أيضا رئيس تحرير مجلة الأرشيف الاشتراكي والحركات العمالية التي قام بتأسيسها عام 1910. ويعتبره البعض أحد مؤسسي التيار الماركسي النمساوي، ولكن نظر اليه اخرون انه كان مجرد ناشط طلابي ذي نزعات ماركسية. وكانت له علاقات وثيقة مع رموز الاتجاه النمساوي الماركسي مثل ماكس ادلر (1873-1937) وأوتو باور (1881 - 1938) على سبيل المثال. ومن وجهة نظر فيلكس كان كرونبرغ ماركسيا أكاديميا فأعطى اسمه الى وزارة الثقافة والجامعة التي وافقت عليه كمدير المعهد. وقد كانت هناك معارضة لتسمية كورش او لوكاتش كمدراء للمعهد بسبب التزامهم ونشاطهم الشيوعي كما لم يعرض على الأكاديمي الاشتراكي ويالبراندت بسبب ميولة السياسية اليسارية. وقد بدا كرونبرغ إدارته للمعهد في ظرف شهد جزرا في النشاطات الثورية المباشرة بعد حظر الحزب الشيوعي الألماني عقب فشل الانتفاضة الشعبية التي قادها. واستمرت إدارته للمعهد حتى استقالته نتيجة إصابته بجلطة دماغية عام 1929 وتسلم بولوك الإدارة مؤقتا لحين تعيين ماكس هوكهايمر والذي دشن بداية مرحلة جديدة من تاريخ المعهد. وفي 1924 فتح معهد الدراسات الاجتماعية أبوابه للطلبة للتسجيل وهدفه المعلن هو نقل الماركسية من النشاط الثوري السياسي إلى الفضاء الأكاديمي مع التركيز على علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسي باعتبارها نظرية علمية وابعادها عن التأثيرات الثورية المتشددة لأنها تهدد جوهرها المعرفي ومصداقيتها وقيمتها الحقيقية. وفي يوم الاحد 22 حزيران 1924 افتتح المعهد رسميا وكانت المادة الرئيسية هي الكلمة التي قدمها كرونبرغ التي تضمنت برنامجه الاكاديمي اللاحق، أكد فيها على دور المعهد في دعم البحث العلمي وليس تخريج بيروقراطيين والانطلاق من المفاهيم الماركسية غير الدوغماتيه مع رسم عام لنشاطات المعهد المستقبلية وعكس فيها التزامه بالفهم المادي للتاريخ تشوبها بعض الأفكار من الداروينية الاجتماعية وعكست أيضا المفارقة بين نجاح ثورة أكتوبر في روسيا والفشل الدراماتيكي للثورة في المانيا والبلدان الأوروبية الأخرى والذي وضع امام المثقفين الالمان خيارات صعبة مثل دعم التيار المعتدل الذي يمثله الاشتراكيون الداعمون لحكومة وايمار او القبول بقيادة البلاشفة في موسكو والانضمام الى الحزب الشيوعي الألماني الذي يعمل لإسقاط حكومة فايمار. أما الخيار الثالث الذي تبناه المعهد وعكسه خطاب الافتتاح فهو العمل على مراجعة المفاهيم الماركسية بحيادية تامة لمعرفة الأسباب الحقيقية وراء فشل تجربة اليسار الألماني ومن موقع الاستقلالية عبر تشجيع البحوث والدراسات الاجتماعية. وتضمنت كلمته اقتباسا من "البيان الشيوعي" حول التفسير المادي للتاريخ وان فهمه للماركسية هو علمي وليس سياسيا او حزبيا. وقد فتح المعهد ستة اقسام

منها الفلسفة المادية والاقتصاد السياسي ودور البروليتاريا والعلوم الاجتماعية. وقد بدء الشروع ببناء مقر المعهد في عام 1923 وصممها المعماري فرانز روكل على شكل مكعب من خمسة طوابق مستلهما التصميمات الحديثة وضمت غرفة للقراءة من 36 مقعدا و16 غرفة صغيرة للدراسة: أربع غرف للسيمنارات تسع مئة طالب. وقد وفر المعهد إمكانات بحثية جيدة تمثلت بمكتبة فيها غرفة خاصة للمطالعة حوت 75 ألف كتاب و340 مجلة أكاديمية و37 صحيفة بلغات متعددة. كما كان هناك أرشيف مميز ضم الألف من الوثائق والنشريات الصادرة عن الحركات والأحزاب العمالية والشيوعية في المانيا وثمانية عشر غرفة لطلبة الدكتوراه. وقد كان لمدير المعهد مساعدان هما فردريك بولوك الذي شغل موقع مدير مؤقت حتى التحاق كرونبرغ بمنصبه الإداري وقد ألف الكتاب الثاني للمعهد وهو "تجارب التخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي: 1917 - 1927" وهنريك كروسمان (1881 - 1950) الذي كان ماركسيا بولنديا أستاذ العلوم الاقتصادية في وارشو والذي كان كتابه "حول قانون التراكم والانهيار الرأسمالي"، المطبوع الأول للمعهد. والتحق أيضا كارل ويتفوجيل (1896 - 1988) وهو مؤرخ وكاتب مسرحي الماني - امريكي وعضو في الحزب الشيوعي الألماني، ومن ثم اصبح معاديا للفكر الشيوعي، وألّف كتاب "الاقتصاد والمجتمع في الصين" وكان احد منشورات المعهد. وقد التحق بالمعهد عدد من طلبة للدكتوراه، وبعضم قد منح زمالة دراسية. ومن أوائل خريجي المعهد والذين استمروا بالعمل فيه كورت مندلبوم (1904 - 1995) وهو اقتصادي واطروحته كانت "مناقشة لمشكلة الامبريالية في التيار الاشتراكي الديمقراطي الألماني"، وأيضا هيلدا ويس (1900-1981) المتخصصة بالعلوم الاجتماعية وناشطة نقابية والتي كانت اطروحتها حول "اليوتوبيا الرأسمالية"، وكانا من أوائل خريجي المعهد. والتحق بعدها جوليان غومبيز (1898-1972) وكان امريكي من أصول المانية وناشط شيوعي ومهتم بعلم الاجتماع وكانت أطروحة الدكتوراه بعنوان "نظرية الازمة الزراعية الرأسمالية"، ناقشت المشاكل البنيوية في النظام الزراعي الأمريكي واستمر بعدها في المعهد كمساعد حتى ترك اهتماماته اليسارية واصبح تاجرا للاسهم والسندات المالية. ومن الذين انضموا للمعهد ليو لونثال (1900 1993-) وهو عالم اجتماع وفيلسوف الماني حصل على زمالة من المعهد في 1926 وكان مهتما بسوسيولوجيا القصة الألمانية القصيرة، واعتبر كتابه من اولى الدراسات في اختصاص سوسيولوجيا الادب. وشارك في تقديم المحاضرات وتنظيم السيمنارات في المعهد كورش و الماركسي النمساوي ماكس ادلر (1873-1937) و السياسي النمساوي فرتز ادلر (1879-1960) واحد مؤسسي اليسار النمساوي اوتو باور (-1881 1938). وبذل المعهد جهدا لنشر الأعمال الكاملة لماركس وانجلز التي كانت معظمها على شكل مخطوطات في عهدة ادورد برنشتاين (1850-1923) و أيضا اوغست بيبل (1840-1913) من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، ولم ينشر منها سوى طبعة غير مكتملة لمراسلات ماركس وانجلز حتى بادر ديفيد ريازونوف

(1870-1938) وكان اشتراكيا ديمقراطيا روسيا ومؤسس "معهد ماركس وانجلز" في موسكو في 1919، الهادف الى دراسة تطور الفكر الماركسي والاشكال المتنوعة لوحدة النظرية والممارسة وتطبيق الاشتراكية العلمية، وبالتعاون مع بيبل بإصدار اول طبعة من الاعمال المختارة لماركس وانجلز والتي كانت بمساعدة إدارة المعهد التي لعبت دور الوسيط و المساعدة و العمل على استنساخ الوثائق و المخطوطات وتسهيل نشرها. وتم أيضا إنشاء دار نشر خيرية يديرها فيليكس فيل و فردريك بولوك مهمتها نشر الطبعة الألمانية من الاعمال الكاملة، والتي اعتبرتها الشرطة الألمانية السرية غير شرعية لا تنسجم مع صلاحيات المعهد و تدل على دعمه للحزب الشيوعي الألماني المحظور وفتحت تحقيقا مع مدير المعهد كرونبرغ. واتخذ لاحقا قرارا بفصل دار النشر عن المعهد كأحد إجراءات لتجنب المشاكل القانونية مع تبني تحقيق المخطوطات ونشرها باعتبارها شكلا من النشاط الاكاديمي المشروع والذي انصرف اليه عددا من طلاب الدكتوراه والباحثين في تجميع وتدقيق وتحرير المخطوطات واعدادها للنشر. وفي كانون الأول 1928 توقف كرونبرغ عن نشاطه في المعهد بسبب اصابته بالجلطة الدماغية التي اثرت على قدراته العقلية والجسدية حتى وفاته في 1940. وقد استمرت إشكالية البحث عن مدير جديد للمعهد لمدة سنة (1929-1930) كان خلالها بولوك مديرا مؤقتا. وبعد حوارات ساخنة مع وزير الثقافة وإدارة الجامعة تم إقرار تعيين ماكس هوركهايمر كمدير للمعهد وأستاذ الفلسفة الاجتماعية الذي قدم في 24 كانون الاول1931 خطاب تدشين تعيينه كمدير جديد والتي اعتبرت نهاية مرحلة التأسيس وبداية مرحلة "الجيل الأول" من تاريخ معهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت.

المصادر

(1) ثريا بن مسمية، مدرسة فرانكفورت: دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2020.

(2) Stephen Eric Bronner, Critical Theory (a very short introduction) , Oxford University Press, 2011.

(3) Andrew Pendakis in "A Companion to Critical and Cultural Theory", Edited by Imre Szeman, Sarah Blacker and Justin Sully, John Wiley & Sons Ltd, 2017.

(4) Alan How, Critical Theory, Palgrave Macmillan 2003.

(5) Rolf Wiggershaus, The Frankfurt School: Its History, Theories, and Political Significance, Studies in Contemporary German Social Thought, MIT Press,1995.

6. Tom Bottomore, The Frankfurt School and its Critics, Routledge, 2002.

(7) Martin Jay, the dialectical Imagination, a history of the Frankfurt School and the Institute of social research 1923-1950, the University of California Press, 1996.

(8) John Abromeit, Max Horkheimer and the Foundations of the Frankfurt School, Cambridge University Press, 2011.

(9) بول – لوران أسون، مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعاد حرب، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 2005.

(10) Phil Slater, Origin, and significance of the Frankfurt School: A Marxist perspective, Routledge and Kegan Paul, 1977.

تكيف القطاع الصناعي في روسيا الاتحادية مع العقوبات الغربية

د.سناء عبد القادر مصطفى
الأكاديمية العربية في الدنمارك

توطئة

في 4 آذار/مارس 2023 ، شارك الدكتور أليكسي فيديف، رئيس مختبر البحوث المالية في معهد غيدار للسياسات الاقتصادية في موسكو ، في اجتماع للمجلس الاستشاري العلمي لقسم العلوم الاجتماعية بالأكاديمية الروسية للعلوم حول المشاكل القانونية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، المكرس لتوقعات تطور الاقتصاد الروسي في العام 2023. حدد في تقريره "توقعات التنمية الاجتماعية والاقتصادية لروسيا في -2023 2025" ، العوامل الرئيسة التي سيعتمد عليها وضع الاقتصاد الكلي في البلاد ، بما في ذلك العقوبات والطلب على موارد الطاقة الروسية وتطوير القطاع B2B [1] ، وكذلك تحفيز السياسات الحكومية. وفقا لأليكسي فيديف، في العام 2023 ، يمكننا أن نتوقع ركود الطلب باعتباره العامل الرئيسي لخفض التضخم مع انخفاض الدخل المتاح للسكان، وسيكون النجاح في استبدال الواردات متواضعا للغاية، لكن الانخفاض في الاقتصاد سيكون صغيرا نسبيا [2].

الأعمال الروسية تركز على "البقاء"

تتفاقم مشاكل مناخ الأعمال في روسيا بسبب سعر صرف الروبل والواردات الرخيصة كما تعكسه بيانات المسح من معهد غيدار ومعهد Stolypin ستوليبين ، فقد توصل الخبراء إلى إجماع على أن هذه التدابير الإدارية تركز على البقاء. وفقا لـ 43٪ من المستجيبين، كان للوضع الاقتصادي تأثير سلبي بشكل عام على الأعمال. وفقا لـ 48٪ من المستجيبين ، فإنهم يهدفون في العام أو العامين المقبلين إلى الحفاظ على مؤشرات الإنتاج الحالية أو ببساطة الحفاظ على الأنشطة على هذا النحو. المتفائلون الذين يخططون لزيادة الإنتاج بأكثر من 30 ٪ يشكلون حوالي 12 ٪. كما أن ارتفاع التكاليف، ونقص أو عدم استقرار الطلب في السوق يمنع تطوير وإطلاق منتجات جديدة في السوق [3]. وفقا لمعهد غيدار، الذي قام بإجراء مسوحات شهرية لسوق الصناعيين الروس، في الفترة من أيلول/ سبتمبر إلى كانون الأول/ ديسمبر 2022، أظهر الإنتاج ديناميكيات قريبة من الصفر، ما أعطى أسبابا للمسؤولين

والمحللين للحديث عن استقرار الصناعة الروسية. وتشير الدراسة إلى أن خطط الإنتاج بعد الفشل في آذار/ مارس 2022 "تخلصت لاحقا من التشاؤم" وحتى نهاية العام كانت متفائلة للغاية ، لكنها لم تستطع إظهار النمو إلى مستويات ما قبل الأزمة [5].

تشير غالبية رواد الأعمال الذين شملهم الاستطلاع الى وجود قيود خطيرة على الأعمال التجارية وإلى عدم كفاية حماية حقوق رواد الأعمال وهيمنة الدولة على الاقتصاد. وكذلك يتفق كبار المديرين والمالكين على صعوبة الوصول إلى الأموال المقترضة للأعمال. بالإضافة إلى ذلك ، اشتكى رواد الأعمال من عدم كفاية مستوى تطوير البنية التحتية ، ومشاكل الخدمات اللوجستية ، والعبء المالي المرتفع وضعف حماية حقوقهم - على وجه الخصوص .وفقا لمعهد غيدار، في كانون الأول/ديسمبر 2022، توقف متوسط الحد الأدنى لسعر الفائدة على القروض المقدمة للمؤسسات الصناعية عن الانخفاض وارتفع إلى ٪11.2 سنويا بعد أن كان ٪10.9 في تشرين الثاني/نوفمبر من نفس العام ، إذ بلغت حصة الشركات التي أعلنت عن التوفر الطبيعي للقروض بنسبة ٪51 [5].

ونتيجة لذلك تفاقم الوضع بسبب قيمة الروبل المبالغ فيها والعبء المالي المرتفع، مما وضع الشركات الروسية في وضع غير مؤات مقارنة بموردي الواردات الرخيصة، والتي نتيجة لذلك يمكن أن تحول المستهلكين الروس إلى واردات رخيصة من الصين وغيرها من الدول الصديقة المحايدة.

تكيف الاقتصاد الوطني الروسي مع العقوبات

وفي معرض أجابة فيديف ، رئيس مختبر البحوث المالية في معهد غيدار، في برنامج "اليوم" على قناة RBC (Russ.Bussi-ness Consult) على أسئلة حول كيفية تأثير العقوبات المفروضة على الاقتصاد وعلى حياة الروس والبلد ككل ، فقد تم تخصيص موضوع البرنامج لذكرى فرض العقوبات بعد أن اعترفت روسيا باستقلال جمهورية دونيتسك وجمهورية لوغانسك. أجاب أليكسي فيديف إلى : " أن السلطات تستعد لخسائر اقتصادية أكثر خطورة ، لكن التدابير المتخذة في الوقت المناسب والاستراتيجية المختارة بشكل صحيح ساعدت الاقتصاد على إعادة البناء بسرعة. وفقا لتصريح فيديف من المتوقع أن يتراوح الانخفاض المتوقع في الناتج المحلي الإجمالي للعام 2023 من ٪2 إلى ٪10. كان معدل الانخفاض في العام 2022 بمقدار ٪2.1، ولكن مع الأخذ في الاعتبار مؤشر الاستهلاك للسكان - ٪5، يمكن تصحيح الانخفاض في الناتج المحلي الإجمالي إلى ٪4. وللمرة الأولى، اختارت الحكومة التكتيكات الصحيحة لسياسة محفزة تهدف إلى تثبيت استقرار العمليات الاقتصادية. ولا يرى الخبير تهديدا تضخميا إذا ظل سعر صرف الروبل مستقرا، فبحلول منتصف العام 2023 سيكون معدل التضخم ٪3 - ٪5. أن توقعات تخفيض قيمة العملة مهمة، ووفقا للخبير، فإن الاستهداف الحديث هو أفضل آلية للحفاظ على استقرار الاقتصاد الكلي [6]. تشير نتائج دراسة أجراها رئيس مختبر أبحاث السوق في معهد غيدار سيرجي تسوخلو إلى أن القناة الأكثر شعبية لاستبدال المعدات الغربية من الشركات المصنعة الروسية كانت قناة الموردين الصينيين.

في كانون الثاني/يناير 2023 ، أجرى خبراء

معهد غيدار دراسة استقصائية بين رؤساء المؤسسات الصناعية الروسية واكتشفوا كيف حلوا محل الواردات الخاضعة للعقوبات. تم إجراء مسح للمشاركين في 3 فئات من السلع - المعدات وقطع الغيار والتجهيزات المكملة. شارك حوالي 1000 شركة صناعية في مسح المختبر. أظهر الاستطلاع أن أكثر من نصف الشركات الروسية في العام 2022 اشترت معدات وقطع غيار بديلة من الصين. لكن المصنعين الروس تمكنوا من تجاوز الصينيين في مبيعات التجهيزات المكملة، حيث أن استبدال الواردات المحلية أكثر كفاءة. بالإضافة إلى المشتريات من الشركات المصنعة الصينية والمحلية (هاتان القناتان الرئيسيتان لاستبدال الواردات)، دعت الشركات طرقا أخرى لاستبدال البضائع الساقطة. تمكن شخص ما من تأمين الإمدادات من الدول الصديقة الأخرى - من تركيا إلى كوريا الشمالية ، رفض شخص ما تماما استخدام البضائع المختفية في إنتاجها ، واعترف شخص ما بأنه استمر في تلقي الواردات الخاضعة للعقوبات. أعلنت ٪67 من الشركات الانتقال إلى المعدات الصينية، في حين احتل المنتجون المحليون المرتبة 2 بين قنوات استبدال الواردات، ولكن بهامش كبير: على وجه الخصوص ، وجد ٪21 من المستجيبين نظائر منتجاتهم من شركاء في الاتحاد الاقتصادي الآسيوي EAEU (أرمينيا وبيلاروسيا وكازاخستان وقيرغيزستان) ، و ٪17 من تركيا. وأفادت ٪15 من الشركات الروسية أنها لا تزال تتلقى الآلات والآلات الخاضعة للعقوبات. ومن بين سلاسل التوريد أيضا خيار الشراء من الهند وإيران وفيتنام ومصر وكوريا الشمالية (٪12) [7]. كما يحتل المصنعون الصينيون في سوق قطع الغيار، أيضا مكانة رائدة (٪63 من الشركات الروسية تحولت إليهم) - قرر ٪46 من المستجيبين استخدام المنتجات الروسية. بالإضافة إلى ذلك، تحولت ٪24 من الشركات الروسية إلى "نظائرها من دول أخرى" ، وقالت ٪22 إنها استمرت في تلقي الواردات الخاضعة للعقوبات.

إن استبدال الواردات بمعنى استبدال نظائرها المستوردة بأخرى محلية في فئة المكونات (المواد الخام والمواد المكملة والمنتجات شبه المصنعة). وفي الحقيقة أن الشركات الروسية لا تزال تتلقى معدات ومكونات "خاضعة للعقوبات" وهذا لا يعني التحايل على أنظمة العقوبات في الغرب.

وبالتالي، تنص عقوبات الاتحاد الأوروبي على فترات انتقالية يمكن خلالها التسليم بموجب العقود الحالية. وبالإضافة إلى ذلك، أدخل الاتحاد الأوروبي إعفاءات للإمدادات المستمرة، على سبيل المثال للأغراض الطبية أو الإنسانية.

أيضا، إذ يجوز لأي دولة في الاتحاد الأوروبي ، كاستثناء ، إصدار تصريح لتوريد السلع الخاضعة للعقوبات إلى روسيا.

قد تستمر الشركات التابعة الروسية للشركات الأجنبية في تلقي هذه السلع. وتسمى هذه الحالة بآلية "الاستيراد الموازي". كما يلاحظ رئيس مختبر استطلاعات السوق سيرجي تسوخلو ، فإن الشركات الروسية تظهر أعلى استقلالية عن المنتجات "الخاضعة للعقوبات". إذ لم يتم استخدام المكونات الأجنبية من قبل 20 ٪ من الشركات الروسية من قبل، وفي حالة المعدات وقطع الغيار، قامت 11 ٪ من الشركات باستيراد تلك المكونات [8].

الصناعة بدأت بالنمو الإيجابي

سجلت مسوحات حالة الأسوق لمعهد غيدار، التي أجريت في كانون الثاني/يناير 2023، زيادة في الطلب الفعلي في القطاع الصناعي وانخفاضا طفيفا في نقص الموظفين المؤهلين، والذي زاد بسبب التعبئة العسكرية. إذ كشفت نتائج الأداء الفعلي في الصناعة (اعتبارا من 19 يناير) والتوقعات (اعتبارا من 26 يناير)، وفقا لمعطيات معهد غيدار ، عن بداية إيجابية نسبيا لهذا العام في هذا القطاع. فقد وصل مؤشر التفاؤل الصناعي بحلول يناير 2023 إلى مستوى أقل من نقطة واحدة فقط إلى أفضل قيمة (أيلول/سبتمبر) في العام السابق 2022. والسبب الرئيسي لذلك هو الديناميات الإيجابية للطلب. حيث ارتفع رصيد المبيعات الفعلية بعد الانخفاض في تشرين الأول/ أكتوبر بمقدار 15 نقطة وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 2022 – كانون الثاني/يناير 2023 بمقدار 20 نقطة وتبين أنه أفضل قيمة في الأشهر ال 11 الماضية.

ويشير الانخفاض في حصة التقديرات "العادية" لأحجام الطلب في يناير إلى 56٪ والزيادة في حصة التقديرات "الأقل من المعتاد" إلى 36٪ إلى أن الشركات كانت تأمل في مبيعات أفضل في بداية العام. في الوقت نفسه، لم تتغير توقعات الطلب فعليا منذ سبتمبر، حيث كانت عند مستوى "غير كاف للدخول في مسار النمو الصناعي المميز إحصائيا" ، كما يلاحظ خبراء معهد غيدار (IEP) (9).

ساعد النمو في الطلب على المنتجات الصناعية، والذي يرتبط في المقام الأول بزيادة الطلبات العسكرية الشركات على زيادة خطط الإنتاج والانتقال من سياسة تقليل مخزونات المنتجات النهائية إلى تكوين فائض فيها. وانطلاقا من ما سبق، أظهرت توقعات التضخم في الصناعة في كانون الثاني/يناير ، وفقا لمعهد غيدار،

أكبر زيادة منذ آذار/مارس 2022 - بمقدار 13 نقطة. ولذلك من غير المرجح أن يتم تفسير هذه الزيادة بالتحسن المتوقع في المبيعات وتعكس الانخفاض الحالي في قيمة الروبل،

والذي بدأ في أواخر العام 2022. أظهر تقييم الشركات لتزويدها بموظفين مؤهلين في يناير انخفاضا في توتر الوضع.

وفي الوقت نفسه، لا تزال حصة 28 % من الشركات التي تعاني من نقص في الموظفين (في ذروتها في تشرين الأول/أكتوبر 2022، أعلى من مستوى كانون الأول/يناير 2022. كما أن الانخفاض الطفيف في يناير في التفاؤل بخطط التوظيف لم يغير بشكل جذري صورة مشاكل الموظفين في القطاع: نقص العمال المهرة، الذي وصل إلى أعلى مستوى تاريخي في تشرين الأول/ أكتوبر، يجبر الشركات على الحفاظ على ارتفاع الطلب على العمالة، الرصيد الحالي لهذه الخطط أعلى بكثير من قيم الفترة 2010 - 2019. ومن بين الصناعات التحويلية، تجلى النمو في الإنتاج من خلال إنتاج المركبات الأخرى (27.4٪)، والمواد الغذائية (4.4٪)، والمشروبات (7.1٪)، والملابس (5.5٪)، وأجهزة الكمبيوتر والأجهزة الطرفية (الأطراف الصناعية)، والمنتجات البصرية والإلكترونية (5.5٪) والمعدات الكهربائية (0.7٪). وسجل أكبر انخفاض في إنتاج السيارات (54.6٪) والآلات والمعدات (22٪) والخشب (22.1٪).

الصناعة لم تنفصل عن الاستيرادات الخاضعة للعقوبات

أظهر مسح أجراه معهد غيدار لممثلي المؤسسات الصناعية حول كيفية استبدالهم للاستيراد الخاضع للعقوبات للمعدات وقطع الغيار والمكونات في العام 2022 أن المصنعين الصينيين أصبحوا "بدائل استيراد" غير مشروطة. ٪67 من المستجيبين تحولوا إلى منتجاتهم، كما كتبت صحيفة كوميرسانت. ومع ذلك، في وقت سابق ، في العام 2022 ، ادعى الصناعيون أن الانتقال إلى هذه الإمدادات من الصين كان قسريا وأن الشركات تفضل نظائرها الأوروبية. حتى ولوكان عالي الثمن. تشير الدراسة إلى أن ٪15 من المستجيبين أفادوا بأنهم يستمرون بطريقة ما في تلقي الآلات والمعدات "الخاضعة للعقوبات". أصبح المصنعون الروس الذين واجهوا في العام 2022 نقصا في كل من المكونات والموظفين، موردين لـ ٪39 ، وشركات من الاتحاد الأسيوي الاقتصادي EAEU - بنسبة ٪21 ومن تركيا - ٪17. أصبحت الصين أيضا رائدة في استبدال قطع الغيار التي وقعت تحت العقوبات - 63 ٪ من الشركات الصناعية تحولت إلى منتجاتها. تم استلام نظائرها الروسية من قبل 46 ٪ من الشركات، وأفاد 22 ٪ أنه تم الحفاظ على توريد قطع الغيار "الخاضعة للعقوبات". تمكن الموردون من دول الاتحاد الاسيوي الاقتصادي EAEU وتركيا من تلبية الطلب على قطع الغيار بنفس الحصص تقريبا كما في حالة المعدات. ومع ذلك، تمكن المصنعون الروس من استعادة المكانة الرائدة في إنتاج المكونات من المنافسين الصينيين بنسبة تصل إلى 2 نقطة مئوية، كما قال ٪54 من المستجيبين. ولا يتم استخدام المواد الخام والمواد "الخاضعة للعقوبات" من قبل 20 ٪ من الشركات والآلات والمعدات إلا ب 11 ٪ فقط. و يستمر ٪23 في الحصول على المكونات المستوردة "المحظورة" [10].

دخول الصناعة الروسية دورة نمو جديدة

تشير بيانات المراقبة التشغيلية للصناعة الروسية إلى تحسن في المؤشرات الرئيسة واستعادة تفاؤل الشركات. ويأتي الانتعاش من بعد إعلان أيلول /سبتمبر 2022 عن "التعبئة الجزئية"، عندما خسر تفاؤل المستجيبين لاستطلاعات السوق في معهد غيدار أربع نقاط. وبحلول 16 فبراير 2023 ، ارتفع المؤشر بمقدار سبع نقاط ووصل إلى أعلى مستوى له في 12 شهرا. وعلى النحو التالي من الدراسة ، فإن نمو تفاؤل الصناعة هو نتيجة لزيادة الطلب ، والتي ، وفقا للمؤسسات الصناعية ، وصلت في الفترة من يناير إلى فبراير 2023 إلى أفضل القيم لهذا العام وحتى تجاوزت مستويات 2019-2018. ومع ذلك ، تم تسجيل نفس المستوى من الرضا عن الطلب بالفعل في سبتمبر 2022 . وعلى الأرجح ، ترتبط القفزة في الطلب بنمو الانتاج للمعدات العسكرية من قبل الدولة [11]. على الرغم من انتعاش الطلب ، انخفضت خطط الإنتاج ، وفقا لـغيدار، بمقدار 4 نقاط في فبراير بعد قفزة قياسية في يناير "على ما يبدو ، قررت الصناعة تعديل خططها قليلا ، دون الانحناء ، إلى التشاؤم من الأزمة. قال مؤلف الدراسة سيرجي تسوخلو إن التوازن الإيجابي للمؤشر ، الذي تم تسجيله بشكل مطرد من خلال الدراسات الاستقصائية منذ أغسطس 2022 ، يشير إلى أن الشركات لا تزال مستعدة

للانتقال من "نمو" قريب من الصفر إلى زيادة واضحة في الإنتاج. وفي الواقع ، لم تتمكن الصناعة بعد من تحقيق التفاؤل العالي لخطط الإنتاج. تعمل بيانات فبراير مرة أخرى على إصلاح ميزان التغييرات الفعلية في الإنتاج داخل الصفر ، حيث كان منذ سبتمبر 2022. نما مستوى التفاؤل في الصناعة الروسية إلى الحد الأقصى خلال 12 شهرا ، كما قال سيرجي تسوخلو ، رئيس مختبر استطلاعات السوق في معهد غيدار ، في دراسة أخرى للقطاع الصناعي. وفي 2 مارس 2023، قدم سيرجي تسوخلو في ندوة في كلية موسكو للاقتصاد بجامعة موسكو الحكومية تقريرا عن نتائج مرور سنة على "حرب العقوبات" للصناعة ، والتي استعرضتها قناة RBC التلفزيونية . كما هو موضح في استطلاعات المديرين ، بعد مرور سنة على بدء الحرب الروسية-الأوكرانية والعقوبات الغربية الصارمة ، فإن الصناعة الروسية إيجابية بشكل عام: مؤشر التفاؤل الصناعي وتوقعات الطلب عند الحد الأقصى خلال 12 شهرا. وقال سيرغي تسوخلو إن نتائج 12 شهرا من "حرب العقوبات" لا تبدو مأساوية على الإطلاق كما توقع جميع المشاركين فيها في البداية. كما هو موضح في الدراسات الاستقصائية للمؤسسات ، أنهت الصناعة الروسية العام التالي لبدء العقوبات بأفضل ديناميكيات الطلب لهذه الفترة ، واستقرار توقعاتها ، وتظهر أيضا مستوى جيدا من رضا المبيعات. ومن خلال ديناميكيات الطلب يوجد توازن في التغيرات الفعلية في الطلب ، مع إزالة الموسمية ، والتي يتم حسابها على أنها الفرق بين حصة الشركات التي أشارت إلى زيادة في الطلب والحصة التي أشارت إلى انخفاضها. ان مستوى هذا المؤشر في الوقت الحاضر عند الصفر تقريبا (كان في المستوى الإيجابي في العام 2021 وحتى فبراير 2022 ، خلال فترة الانتعاش الاقتصادي بعد جائحة كوفيد19-). وقال تسوخلو إنه في فبراير 2023 ، أصبح المؤشر هو الأعلى منذ بداية العملية الخاصة ، بل تجاوزت قيمته مستوى عدم وجود الأزمة في السنوات 2019-2018. يتم الاحتفاظ بهذا المؤشر ، الذي يعكس مستوى الرضا عن المبيعات المحققة ، عند مستوى عال إلى حد ما. ففي فبراير 2023، كانت حصة التقديرات العادية (أي المرضية) لأحجام الطلب الحالية تساوي ٪61 ، وهو ما يتوافق مع أو حتى يتجاوز مستوى السنوات "الهادئة". مجموعة أخرى من المؤشرات التي تميز الإنتاج تعكس أيضا المزاج المتفائل للصناعيين. أظهر مؤشر التغييرات الفعلية أنه في فبراير 2023 تم إنتاج المنتجات أقل بقليل مما كانت عليه في يناير نفس السنة، لكن هذا المؤشر كان مستقرا منذ سبتمبر 2023، فهو لا ينخفض كثيرا ، ولكنه أيضا لا ينمو بشكل ملحوظ. ، وفقا لمراجعة أجراها معهد غيدار بموسكو. كما أوضح سيرجي تسوخلو في عرض التقرير ، الضعف اللاحق للروبل (في فبراير فقد حوالي 6 ٪ أمام الدولار لهذا الشهر ، أو حوالي 4.5 روبل). ووفقا له ، يمكن أن تظهر هذه العوامل في استطلاعات الربيع.

لا تزال الشركات تفشل في توفير نمو إنتاج ملحوظ إحصائيا حتى مع التفاؤل الكبير بخططها ، كما اعترف تسوخلو. لكن تنفيذ الخطط يعوقه "عدم اليقين في الوضع الحالي وآفاقه" - على مدى الأربعة الأشهر الماضية ، وصفت معظم الشركات هذا الخطر. وخلص الخبير سيرجي تسوخلو إلى أن «العواقب

الأكثر ضخامة للعقوبات على الصناعة الروسية كانت نمو التكاليف، واكتشاف عدم وجود موردين ومصنعين بديلين في روسيا وتغيير كبير في السلاسل التكنولوجية بسبب استحالة استبدال المكونات المستوردة» [12]. في 2 فبراير 2023، تحدث سيرغي تسوخلو ، رئيس مختبر أبحاث السوق في معهد غيدار ، على الهواء مباشرة في برنامج ''الأخبار الرئيسية'' على قناة RBC التلفزيونية ، بأن المصنعين الصينيين حلوا محل المصنعين الغربيين الذين غادروا السوق الروسية. وكيف يؤثر تغيير موردي المعدات الصناعية على جودة الإنتاج وما إذا كانت هناك فرصة للمصنعين المحليين لاتخاذ مكانة رائدة في هذا القطاع.

آثار رحيل الشركات الغربية من روسيا الاتحادية: ارتفاع في تكاليف الانتاج

كان الأكثر ضخامة هو ارتفاع تكاليف الانتاج في ظروف التضخم العالمي. وكان هذا متوقعا فيما أكدته ٪64 من الشركات ، حيث أفاد المستجيبون أنه في فبراير (لأول مرة منذ مايو 2022) تم رفع أسعار بيع المنتجات ، وتغير ميزان توقعات تغيرات الأسعار لصالح نموها في سبتمبر 2022 ، وفي الفترة من يناير إلى فبراير 2023 استقر عند مستوى زائد 20 نقطة. بقي غياب الموردين والمصنعين البديلين في الاتحاد الروسي في المرتبة الثانية في قائمة المشاكل ، لكن حجمه بين الدراسات الاستقصائية انخفض بنسبة 9 نقاط مئوية إلى ٪53. في المرتبة الثالثة في قائمة عواقب مشاكل الواردات ، أعطت الصناعة ''تغييرا قويا في السلاسل التكنولوجية بسبب نقص المكونات الغربية''. ولم يتم استبدال جميع الإمدادات الغربية دون الالمام بنظائرها الروسية أو الصينية'' ، كما أكد ذلك معهد غيدار بموسكو. وانخفض ذكر مشكلة ''إيقاف أو استبدال المعدات المستوردة بسبب عدم القدرة على الصيانة'' للسنة 2022.

الهوامش

(1) الأعمال التجارية (B2B) ، وتسمى أيضا B–to–B ، هي شكل من أشكال المعاملات بين الشركات ، مثل تلك التي تنطوي على الشركة المصنعة وتاجر الجملة ، أو تاجر الجملة وتاجر التجزئة.

(2) أليكسي فيديف في اجتماع المجلس الاستشاري العلمي للأمم المتحدة ، 04.03.2023

(3) بيانات المسح من معهد غيدار ومعهد 8/1/2023 ، Stolypin .

(4) معهد غيدار، مسوحات شهرية لسوق الصناعيين الروس، في الفترة من أيلول/سبتمبر إلى كانون الأول/ديسمبر 2022. 8/1/2023.

(5) نفس المصدر، 8/1/2023.

(6) أليكسي فيديف، حول كيفية تكيف الاقتصاد الروسي مع العقوبات وما ينتظرها، معهد غايدار للسياسات الاقتصادية، 18/1/2023.

(7) سيرجي تسوخلو، «استبدلت الشركات الروسية قطع الغيار والمعدات المستوردة من الدول غير الصديقة بأخرى صينية»، معهد غيدار للسياسات الاقتصادية ، موسكو، روسيا الاتحادية ، 3/2/2023.

(8) المصدر نفسه.

(9) مسوحات حالة الأسوق لمعهد غيدار ، موسكو، 28/1/2023.

(10) صحيفة كوميرسانت باللغة الروسية ، ممسح أجراه معهد غيدار (IEP) لممثلي المؤسسات الصناعية، /2/2023.

(11) سيرغي تسوخلو ، نتائج حالة مناخ الأعمال في الصناعة في شباط /فبراير 2023، صحيفة كوميرسانت، 20/2/2023.

(12) سيرجي تسوخلو: «نما التفاؤل في الصناعة الروسية إلى الحد الأقصى خلال 12 شهرا» . رئيس مختبر استطلاعات السوق في معهد جيدار ، في دراسة أخرى للقطاع الصناعي. 6/3/2023 .

نصوص قديمة

الذكرى المئوية لعيد الأول من أيّار في بوتقة المعارك الطبقية *

غاس هول
السكرتير العام للحزب الشيوعي في الولايات المتحدة

في الاول من أيار (مايو) يرفل مئات الملايين من العمال في إشراقة المنجزات والانتصارات والدور التاريخي للطبقة العاملة. إنه اليوم الذي يتجلى فيه وعيها الطبقي. وتمتد جذور عيد الأول من أيار (مايو) في وعي العمال الطبقي – في التاريخ والخبرات والذكريات المتناقلة عبر الأجيال، في التقاليد العريقة والاعتزاز بدورهم التاريخي. ان جذور هذا العرض للتضامن البروليتاري عزيزة على قلوب كل العمال. إنها جزء من ماضي الطبقة العاملة وحاضرها ومستقبلها الى الأبد.

وإذ انبثق عيد الأول من أيار (مايو) قبل مئة عام في غمرة النضال من اجل يوم عمل من ثماني ساعات في الولايات المتحدة فقد تطور الى يوم فريد للأعمال والتظاهرات الجماهيرية لشغيلة معمورتنا.

ولهذه الذكرى المئوية لعيد الأول من أيار (مايو) ثمة أيضا أعمال وتظاهرات جماهيرية تؤكد مطالب الشغيلة حول طائفة من القضايا. وهي قضايا متعددة ومتنوعة تعدد البلدان وتنوعها. وفيما يلي بعض القضايا المطروحة في الولايات المتحدة على سبيل المثال.

في مقدمة ما يعبّر عن مطالب الجماهير العريضة في الولايات المتحدة وفي البلدان كافة المطالبة بعزل ولجم القوى السياسية التي تهدد كوكبنا والإنسانية جمعاء، بخطر الفناء النووي. وينبغي أن لا يغيب عن ادراك احد أو تختلط عليه هوية هذه القوى. فبعد رفض واشنطن للمقترحات السوفيتية باتخاذ اجراءات عملية من اجل تنفيذ المبادئ التي اتفق عليها الجانبان في القمة الامريكية – السوفيتية في جنيف في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي يستطيع الشغيلة أن يشخصوا منابع خيبتهم.

وحين خرقت السفن الامريكية في مياه بحر البلطيق والبحر الاسود وحين قامت ادارة ريغان بإجراء المزيد من التجارب النووية في نيفادا متجاهلة تجميد الاتحاد السوفيتي لتجارب الاسلحة النووية لم يعد ثمة مجال للشك أو البلبلة. فقد بات من الواضح أن مصدر الاستفزازات وتصاعد خطر المجابهة النووية كان من صنع اشد قطاعات إدارة ريغان العدوانية سعاراً وأتباعها في بلدان حلف شمال الاطلسي. وتردد هذه الذكرى المئوية لعيد الاول من أيار (مايو) مطلب الشغيلة بلجم هذه الاوساط وإزالة الخطر النووي.

يضاف الى ذلك ان أعمال ريغان اضافت العديد من القضايا الاخرى التي ألقتها على عاتق الطبقة العاملة الامريكية وسائر الشغيلة.

فالعمال يعرفون ريغان وبطانته بوصفهم مسؤولين معادين للنقابات والحركة العمالية

بضراوة، وعازمين على تقديم الدعم التام لهجمة الاحتكارات على ظروف عمل الشغيلة وأجورهم ومستوى معيشتهم. وهم يتذكرون انقضاض ريغان على نقابة مراقبي حركة الطائرات، الذي قدم مثالا لأشد الاحتكارات عداءً للنقابات، ويتذمرون من تخريبه لتنفيذ قانون العمل الوطني وخلقه العراقيل أمام عقود العمل الجماعية.

وتعرف الاقليات من الامريكان السود والهنود الحمر، سكان البلاد الاصليين والآسيويين والمنحدرين من جزر المحيط الهادي والبلدان الامريكية اللاتينية، تعرف ريغان عنصرياً منافقاً يعمل كل ما في وسعه لتقويض الدفاع القانوني الذي تحتمي به هذه الاقليات ضد المعاملة التمييزية.

وتعرف النساء العاملات الامريكيات ريغان عدواً لحقوق المرأة وبخاصة حقها في الاجر المتساوي لقاء العمل المتساوي وحقها في تقرير وظائف امومتها.

إن ريغان يختطف اللقمة من أفواه الاطفال الجياع والمعوزين والفقراء بتخفيض "كوبونات" الغذاء وغيرها من برامج الاعانات الاجتماعية. وهو يشرّد الفقراء من المأوى بإلغاء برامج الاسكان.

ويحفز ريغان لتقويض ما تبقى من المزارع العائلية بممارسة حق النقض ضد اصدار تشريع طوارئ لإغاثة هذه المزارع، ويطرد الطلبة ويحرم الشباب من التعليم بتخفيض المنح الطلابية والاعتمادات المخصصة للتعليم ويغلق ردهات مستشفيات الطوارئ بوجه المرضى والمحتضرين بتخفيض اعتمادات العناية والاسعافات الطبية ويسرق المسنين بتخفيض معاشاتهم الاجتماعية.

ويعمد عسكريو ادارة ريغان وصناع استفزازاتها الخارجية الى تدبير اعتداءات جديدة على غرار حرب فيتنام باعتداءاتهم على نيكاراغوا وكوبا والسلفادور ولبنان وليبيا.

وما هذا إلا غيض من فيض القضايا التي تواجه شغيلة بلدنا.

وفي هذه الذكرى المئوية تواجه الطبقة العاملة الامريكية تحديات جديدة. انها تواجه الهجمة العنصرية التي يشنها ريغان والاحتكارات ضد العمال وعليها ان تجد السبل للانتقال من النضالات الدفاعية وتقديم التنازلات، الى النضالات الهجومية. انها تواجه المعضلة الناجمة عن اندماج مجموعات ضخمة من الاحتكارات. فهذه وحوش يعادل حجم رأسمالها تريليون دولار.

والطبقة العاملة تقف بمواجهتها وبخاصة في مواجهة احتكارات صنع الاسلحة التي باتت بوصفها النواة الرجعية الجشعة للمجمع العسكري – الصناعي. وهي احتكارات تحقق القسم الاعظم من ارباحها من الانتاج العسكري.

ويخلق ظهور تكنولوجيا جديدة معضلات جديدة تماما أمام الطبقة العاملة فهو يفضي الى بطالة طويلة الامد ويغير نوع العمل الذي يؤديه العمال لكنه لا يلغي أو يغير من جوهر الصراع الطبقي.

كل هذا وغيره يلقي بظلاله على الصراع الطبقي.

لقد ناضلت الطبقة العاملة في السنوات الخمس والستين الاول من قرننا الحالي (المقصود هنا القرن العشرين لأن المقال كتب في 1986 – المحرر) من اجل حق التنظيم النقابي القانوني، وتسعى هجمة ريغان والاحتكارات الآن الى ارجاع عقارب الساعة الى الوراء

بالغاء الاساس القانوني للنقابات وتقويض ما حققته الطبقة العاملة من خلال سنوات طويلة من النضال، فإن مستوى المعيشة والأجور الحقيقية تنخفض منذ عشر سنوات. (....)

ومن التحديات الجديدة التي تؤثر في الصراع الطبقي واقع ان 30 مليون امريكي يعيشون دون مستوى الفقر، وان 20 مليون انسان عاطلون عن العمل في ذروة الانتعاش الاقتصادي، وان خمسة ملايين عائلة ذات اطفال مشردة وجائعة، وان آلاف المزارع العائلية تصفى كل عام. يضاف الى ذلك تأثر حياة الشغيلة ونضالاتهم باشتداد العنصرية وتفاقمها.

وفي مدن عديدة يتجمد الناس بردا ويتضورون جوعا ويموتون بسبب الاهمال وانعدام العناية الطبية. وأصبح هذا الوضع حالة طوارئ وطنية. وما من ولاية بمنأى عن ذلك فقد زحفت الآفة حتى بلغت الضواحي والمناطق النائية. ففي مدينة نيويورك وحدها، حيث اصبحت الازمة حالة طوارئ حقيقية، ثمة 300 ألف عاطل عن العمل، 60 ألف مشرد، 144 ألف إنسان يتقاسمون السكن مع سواهم وما يربو على 25 في المئة يعيشون حالة من الفقر بحيث لا يحق لهم الحصول على "كوبونات" الغذاء. وتفيد الارقام الرسمية ان صفوف "العمال الفقراء" ازدادت على الصعيد الوطني 40 في المئة في سنوات ريغان الخمس الاخيرة.

ان المشردين والجياع والعاطلين معضلة دائمة وليس معضلة دورية. ففي خلال الانتعاش الاقتصادي تباطأ معدل الزيادة الى حد ما، لكن اجمالي عدد المشردين والجياع يزداد كل عام. وهذه المعضلة ليست إلا الطرف الظاهر من جبل الجليد وليست إلا جزءا من صورة التدهور الاقتصادي – الاجتماعي. اننا نواجه أزمة خاصة ليست لها نهاية منظورة.

وتعمل هذه الاوضاع على تغيير اتجاهات تفكير الطبقة العاملة ومضمون الصراع الطبقي واشكاله. وكانت اتجاهات التفكير الجديد هذه قد انعكست كلها في المؤتمر الاخير لاتحاد العمل الامريكي – مؤتمر المنظمات الصناعية. إذ كانت للمؤتمر لهجة جديدة وكانت هناك روح نضالية جديدة. وكان محور المؤتمر معادياً لرأس المال الاحتكاري والشركات فوق القومية وكان انصار التعاون الطبقي في موقف دفاعي. وكان الوعي الطبقي بمستوى جديد، أعلى. وكانت المشاعر المعادية لريغان وبخاصة حول سياسته الداخلية مشاعر قوية ونضالية. وكانت مشاعر العداء للامبريالية بمستوى جديد وبخاصة فيما يتعلق بأمريكا الوسطى وجنوب افريقيا.

ونمت صياغة مطالب معادية للعنصرية انطلاقا من اسس جديدة. فقد عالج المؤتمر مسألة تغيير قواعد القدم [1] وتحقيق برنامج الاعمال الايجابية [2]. وعبّر عن بلوغ مستوى أرقى من الاستقلالية السياسية والتحرك السياسي الموجه بصفة خاصة نحو انتخابات الكونغرس في عام 1986.

إن عوامل كثيرة في تاريخ الولايات المتحدة أبطأت نضج الوعي الطبقي. وان عوامل كثيرة ساوت الذرى الحادة بالوديان المنبسطة. فقد تمتعت الرأسمالية بأفضل العوامل لممارسة نشاطاتها: وفرة في الموارد الطبيعية، ودفق واسع من الايدي العاملة والمهارات الاجنبية، وفي السنوات الاخيرة الارباح المحققة من الاستغلال الامبريالي في

الخارج. وكان من المصادر الخاصة للربح وتراكم رأس المال العنصرية التي تمسك بها الرأسماليون منذ عهد العبودية.
لكن هذه السمات الفريدة للرأسمالية الأمريكية أخذت تتدهور تدريجيا ومع تدهورها اشتدت حدّة الصراع الطبقي. وجرّ احتدام الصراع الطبقي في أعقابه تنامي الوعي الطبقي موفرا المادة الجديدة لتطور هذا الوعي.
ويطرأ تغيير على أشكال الصراع الطبقي لكنه سيبقى قائما، يؤثر في الأحداث وفي مجرة التاريخ ما دامت هناك طبقات من المستغِلين (بالكسر) والمستغَلين (بالفتح) وما دام هناك نظامان اقتصاديان – اجتماعيان عالميان.
إنّ فهم الصراع الطبقي فهما أعمق بوصفه النجم الهادي، ضروري لفهم دور العامل وموقعه في التاريخ فهما أعمق.
ذلك هو الدرس الأساسي لمئة عام من عيد الأول من أيار (مايو) ومن المعارك الطبقية التي خاضتها البروليتاريا.

صفحات من تاريخ الأول من أيار

كيف كانت البداية

كان الاول من أيار (مايو) [3] يوما رائعا في شيكاغو. فالريح العاصفة من بحيرة ميشيغان والتي غالبا ما تكون قارصة في الربيع هدأت على حين غرة وأشرقت الشمس الساطعة.
لقد كان يوما هادئا في أكثر من ناحية: المعامل صامتة ومقفرة، المستودعات مغلقة، السائقون في عطالة، الشوارع مهجورة، البناء متوقف، ليس ثمة أعمدة دخان متصاعدة من مداخل المعامل والمسالخ صامتة.
كان يوم سبت، يوم عمل في الأحوال العادية، لكن حشدا من العمال يتضاحكون ويتبادلون الأحاديث والنكات ويرتدون أحسن ملابسهم، تصحبهم زوجاتهم وأولادهم، كانوا يتجمعون للخروج في مسيرة تخترق شارع ميشيغان افينيو، كان الشارع بهيجا بروح العطلة – رجال ضخام، حمر الرقاب، يضيقون بعض الشيء ببدلات الأعياد التي اشتروها من دكاكين للألبسة الجاهزة، يكررون بارتياح: "الجميع خارجون عندنا، حتى القطط". لكن الجو كان قاتما في الشوارع الفرعية وعلى السطوح القريبة.
وفي متفرعات الطريق الرئيسي للمسيرة والشوارع المحاذية له كانت فرق من رجال الشرطة المسلحين وعملاء من القوات الخاصة يتجمعون وهم على استعداد لاستخدام القوة من اجل فرض "القانون والنظام". وعلى السطوح الاستراتيجية توزع رجال البوليس ومرتزقة البنكرتون وجنود الميليشيا مسلحين بالبنادق وغيرها من ادوات الحرب.
وفي ترسانات الولاية استنفر 1350 رجلاً من افراد "الحرس القومي" تحت السلاح، يرتدون البزات العسكرية ومسلحين ببنادق على أهبة الاستعداد للانقضاض. وتجمع في بناية ادارية مركزية الاعضاء القياديون للجنة مواطني شيكاغو الذين ظلوا في اجتماع مستمر طوال اليوم. وكانت ترد الى هنا الاخبار عن النزاع الوشيك من جميع نقاط المدينة. لقد كانت هذه اللجنة بمثابة هيئة الأركان العامة التي توجه المعركة لإنقاذ شيكاغو من اليوم الشيوعي، يوم عمل من ثماني ساعات.
شرعت المظاهرة في الانطلاق، الألوف تتحرك وكل عضو تتملكه مشاعر جياشة بالتضامن المتصاعد، الرائع وهو يغذ السير. كان الاطفال يبتعدون أحيانا عن آبائهم

ويندفعون الى المقدمة. كان الناس يضحكون بانتشاء غريب متطلعين باستمرار الى الوراء، نحو التيار الهادر الذي كان رمزا مرئيا لقوة العمال اذا ما توحدوا. وكان في عداد هذا الجمع الذي بدأ بلا نهاية "فرسان العمل" وأعضاء اتحاد العمل الامريكي، تشيكيون وألمان وروس وايرلنديون وإيطاليون وسود ورعاة بقر سابقون يعملون الآن في المسالخ. وكان هناك كاثوليك وبروتستانت يهود وفوضويون وجمهوريون وشيوعيون وديمقراطيون واشتراكيون وأنصار "النظام الضريبي الواحد"... جميعهم موحدون لا يثنيهم شيء عن انتزاع يوم العمل من ثماني ساعات... انعطفت المظاهرة الى شاطئ بحيرة ميشيغان حيث اجتمع حشد من الناس للاستماع الى كلمات تلقى باللغات الإنكليزية والتشيكية والألمانية والبولندية. لم تسفك دماء، ولم تتكرر كومونة باريس. فقد تلاشى صخب الصياح وانفضت قوات المليشيا وبدأ افرادها ممتعضين قليلا وهم يتوجهون الى منازلهم فيما ظهرت بزاتهم متميزة بشكل بغيض بين جموع المدنيين الذين شارك الكثير منهم في المظاهرة. وعمدت الصحافة الى التقليل من تنبؤاتها العديدة بوقوع أعمال عنف متذرعة بشتى التبريرات.

وكان البوليس المحبط من جراء عدم تمخض الأول من أيار (مايو) عن شيء بعد كل هذه التوقعات، قد شعر بقدر من الارتياح عندما انهال بالهراوات على عمال مؤسسات شركة مكورميك الذين فصلوا عن العمل بسبب قيامهم بالإضراب وهو يدفع بثلاثمئة عامل متواطئ إلى داخل المعمل. وفي وقت الإغلاق كان حشد كبير من المستخدمين والعمال المسرّحين ينتظر خروج العمال المتواطئين حين انقض عليهم رجال الشرطة فجأة شاهرين المسدسات، فتراجعوا حين أقدم رجال الشرطة، حسبما ذكر احد الشهود، الى "فتح النار على ظهورهم. وكان الفتيان والرجال يقتلون راكضين".

- مقتطفات من القصة الوثائقية للمؤرخين الأمريكيين ريشارد بوير، وهربرت موريس "حكاية العمال التي لم يقصها أحد"، موسكو، 1957.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 173/ 174، أيار/ حزيران 1986، ص 20 – 27.

الهوامش

(1) تمنح "قواعد التقدم" امتيازات للعمال ذوي الخدمة الطويلة دون انقطاعات في صناعة واحدة. ويتمتع بها أساسا العمال البيض فقط بسبب التمييز ضد عمال الأقليات القومية "الملونة" والنساء.

(2) يهدف "برنامج الأعمال الإيجابية" الى تأمين المساواة الحقيقية للأقليات القومية "الملونة" والنساء.

(3) يجري الحديث عن الأول من أيار (مايو) عام 1886.

نصوص مترجمة

اكتشفوا الاشتراكية مجددا*

بقلم: ميشائيل بري
ترجمة: رشيد غويلب

البروفيسور ميشائيل بري، المولود عام 1954، درس الفلسفة وعمل في مؤسسات علمية مختلفة. أحد مفكري حزب اليسار الإلماني، ورئيس المجلس الاستشاري العلمي للمؤسسة، في مؤسسة روزا لوكسمبورغ. له العديد من الكتب والبحوث والمقالات الفكرية، ومشارك نشط في المؤتمرات والسمنارات الفكرية في المانيا والعالم. وفي السنوات الإخيرة أصدر سلسلة من الكتيبات بعنوان: اكتشفوا لينين مجددا، اكتشفوا روزا لوكسمبورغ مجددا، واكتشفوا الاشتراكية مجددا. وسيصدر له اكتشفوا اشتراكية الصين مجددا.

بالقدر الذي أصبحت فيه حدود الرأسمالية واضحة للغاية، تحولت مرة أخرى، إلى رأسمالية حرب وكارثة، وتبخرت الثمالة بعد الانتصار المفترض على الاشتراكية في نهاية الحرب الباردة، وازدهر النقاش حول الاشتراكية مجددا. ان الاستقطاب الاجتماعي الصارخ والكارثة البيئية وعواقب الأزمات الاقتصادية الجديدة وكذلك الحروب الجديدة وعسكرة السياسة الدولية هي علامات على الجدار. يشترك العديد من اليساريين في الرأي: في ان ”الإجابة النهائية على السؤال“ لماذا الاشتراكية ”بسيطة: لانها ستكون أفضل ضمانة للسلام“ (سنكارا- 204 / 2019). تُفهم الاشتراكية على أنها رسالة سلام، سلام للناس، سلام للدول مع بعضها البعض، وسلام أيضاً مع الطبيعة. مفردة أخرى لهذا السلام هي التضامن، لأن التنافس الرأسمالي والحرب يبدو أنهما يشكلان كلا واحدا جديدا.

لقد انتهى زمن الصمت بعد ”الموت الغريب للاشتراكية“ (دارندورف 1990). ولم تستطع الليبرالية الجديدة ملء الفراغ الذي خلفته الماركسية- اللينينية منذ عقود. وظهرت مؤخرًا كتب ومقالات أساسية جديدة تركز على الاشتراكية. وهناك سلسلة كاملة من الاصدارات حول الاشتراكية، ليس عالميا فقط، بل في المنطقة الناطقة باللغة الألمانية التي يمكن حصرها. (قارن دلهايم هيت الـ 2012، بيش 2012، كلاين 2013، هونث 2015، فنكر 2015، دوره/ شيكرت 2019، تسلك 2020، تسولر 2020، دوره 2021، كلاين 2022) لكن لماذا نسأل ما هي الاشتراكية؟ لماذا نحتاج إلى مصطلح بينما ”الأمر“ يبدو واضحًا لكثير من اليساريين؟ ألا يكفي أن ندرك أن المجتمعات التي يسيطر عليها تدوير رأس المال تجعل

الحياة الكريمة مستحيلة للجميع. أليس من الواضح أن إطلاق العنان للرأسمالية، والانتقال من صدمة إلى صدمة، يؤدي إلى كارثة؟ (راجع كلاين 2009) ولماذا لا يمكن للمرء أن يقتصر على مجرد وصف الاشتراكية كمجتمع اجتماعي وبيئي ونسوي ومناهض للعنصرية وديمقراطي وسلمي؟ ويمكن ان تستمر التوصيفات الترويجية. ان التمثلات المذكورة أعلاه تأخذ سلسلة كاملة من المشاريع الأولية (مداخل) (حول هذا المفهوم انظر برانش 2009). لقد قدمت حركة المناخ الشابة والمعاصرة الكثير (راجع "مجلس الشباب" الصادر عن مؤسسة الأجيال 20199 / نوير باور/ ريبنغ، براند 2020، غوبل 2020، فوب 2021). وقُدمت كذلك مساهمات في المناقشة يمكن الإشارة لها (انظر آدمشاك 2017، بيرغمان 2019، فنكر 2021). وهذه بعض المؤشرات فقط. لماذا لا يكفي التركيز بدقة على مثل هذه المداخل؟ (راجع معهد التحليل الاجتماعي 2011؛ معهد التحليل الاجتماعي والأصدقاء 2020). إنّ الأدبيات حول المشاريع الأولية المحتملة في ثورة جذرية قائمة على التضامن وذات توجه اشتراكي لا لبس فيه، هذا في جمهورية المانيا الاتحادية بمفردها. يبدو ان الفرصة غير متوفرة، "كايروس الشهير" (التمثال الشهير للإله اليوناني كايروس ليسيبوس يرمز الى لحظة القرارات الملائمة - المترجم) (قارن نيوبيرت – دوبلر 2019) وقوة تقود العالم الى طريق آخر (قارن هارفي 2009). ما كان لهذا الكتيب ان ينجز، لو لم أكن مقتنعا، بأن المفقود شيء آخر. بعد سنوات الثورة المضادة الرمادية التي أعقبت قمع الثورة الأوروبية الكبرى في 1848-1849، كتب فردیناند لاسال في كتابه "برنامج العمال" لعام 1862: "حركة ثورية حقًا، حركة قائمة على مبدأ فكري جديد حقًا، [...] لم تهزم أبدًا، على الأقل ليس بشكل دائم." (لاسال 202: 1967). إنني مقتنع بأن الحركات الاشتراكية للموجات الاشتراكية السابقة في القرنين التاسع عشر والعشرين قد انهارت لأنها تحديدا كانت تستند إلى فهم تاريخي محدود للغاية للاشتراكية استنفدت قوتها. إذا كان هذا الافتراض صحيحًا، فلن يكون تجديد الاشتراكية ممكنًا بدون تجديد المبدأ الاشتراكي أو مفهوم الاشتراكية. هذه هي الطريقة الوحيدة، في رأيي، التي يمكن بواسطتها تلبية مطالب نانسي فريزر "أن الاشتراكية" بعيدة كل البعد عن كونها مجرد شعار أو من بقايا التاريخ، ولكن يجب أن تصبح اسماً لبديل حقيقي للنظام الذي يدمر حالياً الكوكب وفرصنا في حياة حرة وديمقراطية جيدة. "(فريزر 157: 2022). هذا الكتيب باللون الأزرق الفاتح يعاني من ضعف كبير: إنه مجرد وتخطيطي. مجرد لأنه لا يحاول تضمين الوفرة الهائلة من التجريبية التي تظهر فوراً في كل نقطة على حدة. لقد اشرت بقدر استطاعتي الى المزيد من الادبيات. وتخطيطي لاني مهتم بمنح مفهوم الاشتراكية صورته "تخطيط لهذا المفهوم" بلغة كانت (كانت 135: 1968). يسمى اليوم مثل هذا الاجراء تأطيراً. من الطبيعي طرح السؤال، لماذا ينبغي على المرء بذل جهد، لتحديد طبيعة البديل الاشتراكي مفاهيميا؟ ألا يمكن ببساطة صياغة سلسلة من مقترحات التحول الجذرية، بدرجة او أخرى، التي تتعامل مع المشكلة الحقيقية، دون ان نضع صوب اعيننا مجتمعاً مختلفاً، مجتمعا غير رأسمالي بالكامل، وتحديد مفهومه؟ وإذا كان الأمر يتعلق بالكل، ألا يكفي

تحديد العناصر المنفردة لمثل هذا الكل؟ وابعد من ذلك يطرح السؤال الاتي: لماذا ينبغي ان يكون مهما لي كفرد، امتلاك فهمي الخاص للاشتراكية؟ وقبل كل شيء: لماذا ينبغي على الحركات المجتمعية تطوير مثل هذا الفهم للاشتراكية؟ اثناء تأليف هذا الكتاب الصغير، طرحت هذه الأسئلة على نفسي عدة مرات. لهذا استغرقت وقتاً طويلا، للوصول الى هذه النتيجة. واثناء العمل، أصبحت أكثر وعيا، بأهمية وجوب ان تكون هذه النتيجة مؤقتة، وان تبقى مؤقتة. إن المحاولة المعروضة هنا للإجابة عن ماهية الاشتراكية سبقتها محاولات عديدة تعود إلى الثمانينيات (انظر بري 1985، 1991، بري وآخرون 1997، كلاين 2003، بري 2018 أ). مرة أخرى، ان اجاباتي المؤقتة اليوم، على الأسئلة المذكورة اعلاه، هي بأهمية الدقة في تحديد مفهوم البديل الاشتراكي، كما هو مهم تحديد مفهوم الرأسمالية، وعدم حصرها في تجميع كل ما هو غير اجتماعي، او مدمر للبيئة، امبريالي او مستبد. بدون مفهوم الاشتراكية، سيكون اليسار، في رأيي غير قادر على مواجهة التناقضات الحقيقية للمجتمعات الرأسمالية القائمة والتناقضات التي تدفع للتغلب عليها. ان الخبرة التاريخية تؤكد ذلك. في قناعتي، لم يكن المفهوم الأحادي الجانب للاشتراكية هو الذي أدى إلى العديد من طرق التاريخ المسدودة وخلف وراءه كومة أنقاض، والتي يمكننا بصعوبة من بينها تحديد البدايات العظيمة التي لا يزال بإمكان الاشتراكية اليوم البناء عليها ايضا. تحديدا، لأن الاشتراكية كانت تُفهم دائمًا على أنها مجتمع خالٍ من التناقضات، أصبحت الحركة الاشتراكية والشيوعية محاصرة من تلك التناقضات بالضبط، التي يجب أن تملكها الحركة الاشتراكية ووقعت ضحية لها. كتب فالتر بنيامين، الذي واجه كوارث الفاشية الصاعدة وفشل الاشتراكية قبل الحرب العالمية الثانية: "المهم بالنسبة للديالكتيكي ان تكون رياح تاريخ العالم في اشرعته. والتفكير بالنسبة له يعني: وضع الاشرعة كما يجب ان تكون، وهذا مهم. الكلمات اشرعته. الكيفية التي يتم فيها تركيبها تحولها الى مفهوم" (بنيامين 591: 1982) "السياسة الواقعية الثورية" (لوكسمبورغ 373: 1979) التي تعالج تناقضات المجتمع الحقيقي يمكنها أن تبحر في مواجهة عاصفة التاريخ وتؤدي إلى حركة ذات توجه اشتراكي فقط، تمثل شكل التعبير عن هذه التناقضات ومعالجتها. من لا يريد ان يترك نفسه للريح ببساطة، عليه ان يفهم كيفية توظيف هذه التناقضات. وبالتحديد لهذا الغرض نحتاج مفهوما للاشتراكية. الرأسمالية ليست رأسمالية، إذا لم تحتو على تناقضات، تفرق التابعين وتوحد الحاكمين. لكن الانقسام ليس مطلوبا لأي حركة. واليسار جزء من تناقضات الرأسمالية. طالما لا يفهون هذه التناقضات، ولا يحددونها بدقة ولا يطورون مفهوما للاشتراكية، يساهم في حل هذه التناقضات تضامنيا، سيظلون محشورين في اضداد خاطئة، ويدمرون أنفسهم. ويعمل المرء على جعل هذا أو ذاك النهج المشروع مطلقا، ويضعه بشكل قسري في تضاد مع مناهج أخرى. وكل جزء من اليسار سيرى الجزء الآخر على أنه العدو الرئيسي في معسكره، بدلاً من العمل على حل التناقضات الحتمية بالتضامن. بعبارة أخرى: عندما يتعلق الأمر بالاشتراكية، فإن العمل المفاهيمي هو شرط الممارسة الناجحة. لقد سعيت لتوفير وسائل التفكير التي يمكن أن تساعد في مناقشة

الاشتراكية كشكل حيوي ومتناقض لصيرورة بديل للرأسمالية، وللتركيز على تناقضات هذه الصيرورة، أفترض أن هذه التناقضات هي جزء من طبيعة اليسار الاشتراكي. وإنها تشكل تلك السياقات المتناقضة التي يمكن أن تنمو منها قوة الحركات الاشتراكية. الشرط المسبق لذلك هو التعامل مع هذه التناقضات بطريقة ديالكتيكية. لقد تم تطوير العديد من الأدوات التي أشير إليها على مدى 200 عام من تاريخ الاشتراكية. غالباً ما كانت أحادية الجانب وموجهة ضد المناهج الاشتراكية الأخرى (انظر الملخص التاريخي الكبير لفرانك ديب في عام 2021). على عكس ديب، سأشير في ما يلي بشكل أساسي إلى تناقضات اليسار، التي تكمن في رؤيتهم للهدف، ارتباطا بمفهوم الاشتراكية ذاته. إن "الافتراضات النظرية" التي تمت صياغتها بهذه الطريقة لا تكون منطقية إلا إذا أثبتت في النهاية أنها "تعبيرات عامة عن الظروف الفعلية لصراع طبقي قائم (ومجموع النضالات الاجتماعية – الكاتب) لحركة تاريخية تحدث أمام أعيننا". (ماركس/ إنجلس 475: 1848) لكن هذا لا يمكن إثباته إلا من خلال الممارسة الاجتماعية. كما جاء في "حوار اللاجئين" لبيرتولت بريشت، صديق فالتر بنيامين: "المفاهيم التي نضعها لشيء ما مهمة للغاية. إنها المقابض التي يمكن من خلالها تحريك الأشياء" (بريشت 453 / 1973). حدد إرنست بلوخ أهمية المصطلحات لممارسة تحولات تحررية بشكل أكثر جوهرية: أكد أهمية المفاهيم الواضحة لتعامل محدد الأهداف: "وبالتالي، فإن التفكير القاطع الدقيق له الكلمة الأولى، ولفترة طويلة، الكلمة الواضحة دائماً في الوقت المناسب، ولكن ليس الكلمة الأخيرة، وفقًا للمهمة المطلوبة، اذ أن التعامل يعني التغيير. لكن لا يحدث تغيير بدون مفهوم، باعتباره هيئة الأركان العامة للتحول وبالتالي الوصول الممكن، بحيث لا تصل إلى مكان آخر غير المقصود حقا". (بلوخ 1975: 239) يستند هذا الكتاب على افتراض أن تناقضات الاشتراكية كحركة تاريخية حقيقية لها جذورها في نضال الليبرالية والشيوعية. هذه المعركة مستعرة منذ 400 عام. ومن ناحية أخرى، هناك نضال الليبرالية من أجل الاستقلال الذاتي الشخصي والتغلب على الاعتماد على أشكال الحكم القائمة. يتعلق الأمر بالحريات الفردية وخيارات التعامل، وبفرصة تشجع الأفراد على الاقدام على شيء جديد، حتى في مواجهة مقاومات شرسة. ينصب التركيز على تشكيل الاقتصاد والسياسة على أساس المبادرة الحرة للأفراد وجمعياتهم الذاتية. كان هذا ولا يزال في نفس الوقت نضالا ضد شيوعية المشاعات وتوزيعها حسب الحاجة. هذه المشاعات وقواعد التنظيم الجماعي، كان يُنظر إليهما على أنهما عوائق أمام قيام مجتمع حر. ومن ناحية أخرى، هناك نضال الشيوعية ضد الهياكل الاستغلالية المرتبطة بالملكية الرأسمالية الخاصة وللحفاظ على المشاعات - الطبيعية وكذلك الاجتماعية والثقافية، نضال من أجل أشكال المجتمع القادرة على إرساء الحرية والمساواة بشكل كبير. كان هذا ولا يزال أيضًا نضالا ضد هيمنة الحقوق والملكية الخاصة، ومن اجل السيطرة الجماعية على وسائل الإنتاج وإعادة الإنتاج. لقد ذهب كلاهما دائماً إلى الاشتراكية - التأكيد على حقوق الحرية للأفراد والنضال من أجل الحياة التضامنية. يهتم هذا العمل بإعادة اكتشاف ما تم نسيانه في صراع الأيديولوجيات: الاشتراكية لها جذران -

الليبرالية والشيوعية. الاشتراكية ليست الليبرالية المستنيرة والمحتواة اجتماعيا، ولا هي الشكل الضعيف أو غير الناضج أو الإصلاحي للشيوعية. الاشتراكية هي الحركة التاريخية التي تأخذ زخم التحرر الفردي والتحرر الجماعي وتجمع بينهما في تضامن. خطوة خطوة، سنحاول فهم الاشتراكية على أنها توجه وحركة وسياق اجتماعي شامل يسعى إلى العمل من خلال تناقضات المجتمعات المعقدة بروح من التضامن والتحرر، مع الاعتماد على التراث الليبرالي والشيوعي. أدت هيمنة التيار الليبرالي إلى الرأسمالية. وأدت هيمنة الاتجاه الشيوعي إلى اشتراكية الدولة من النوع السوفيتي أو تجارب شيوعية أخرى. الشياطين تكمن في الجانبين، لتولي زمام الأمور، إذا كانت التناقضات لا يمكن السيطرة عليها حضاريا (قارن بومان 2000). أرى الاشتراكية كوسيلة للتوسط بين الليبرالية والشيوعية على أساس مؤسسي جديد وعلاقات ملكية وسلطة جديدة، في شكل سياسي جديد، على أساس جديد من القيم. الاشتراكية، إذا أثبتت نفسها على هذا النحو، تقود الاشتراكية إلى ما وراء الليبرالية والشيوعية. في الوقت نفسه، يشمل ذلك إعادة إنتاج التناقض بين الليبرالي والشيوعي في شكل اشتراكي. المجتمعات المعقدة لا تتخلص من هذا التناقض إلا بثمن السقوط في البربرية. هذه البربرية بالتحديد هي التي تنتشر الآن.

إن إعادة تأسيس الاشتراكية يتمتع براهنية، لأنه، في رأيي، لا يمكن أن تكون الحركات الناجحة خارج الرأسمالية ممكنة إلا إذا قبلنا التناقض بين الليبرالي والشيوعي. إذا دافعنا عن حرية الأفراد وتطورهم الشخصي، فنحن بحاجة إلى النضال من أجل المجتمع. وإذا ناضلنا من أجل المجتمع، يجب أن ندافع عن حرية الفرد. ان الهروب من التناقضات الواردة فيه هو الهروب من أي حركة حقيقية تتغلب على الرأسمالية. إن الرغبة في الحرية وحقوق الفرد والواجب تجاه المجتمعات مرتبطة ببعضها بشكل لا ينفصم. والربط بينهما صعب، وغالباً ما يكون مؤلماً، ويتطلب تنازلات. لكنه ينمو من الأضداد، إذا تم التعامل معها بشكل تحرري ومتضامن، فإن تلك الحركة الاشتراكية تنمو وقادرة على إلغاء الواقع الرأسمالي الحالي. وفي رأيي، ليس لليسار مستقبل إلا إذا أدرك هذين المصدرين للاشتراكية واستمد منهما، في تناقضهما، القوة ليقود بثقة النضالات ضد الحروب، والتدمير البيئي والانقسامات الاجتماعية. وفي الوقت نفسه، يجب أن نضيف هنا، ان على اليسار أيضاً تأكيد إرث الرومانسية الثورية المناهضة للرأسمالية. (راجع لوفي 1989، لوفي / ساير 2001) لقد تمت التضحية بهذا الجانب من جوانب الاشتراكية بشكل متكرر من أجل التفكير التقدمي الخطي و"الضرورات الموضوعية". ومع ذلك، بدون الإحتفاظ بهذا الإرث الرومانسي والحفاظ عليه وتكامله، لن يكون هناك تغيير حضاري جذري. لقد حان الوقت لإعادة اكتشاف الرومانسية وأهميتها للاشتراكية. هذا الكتاب لا يستطيع فعل ذلك.

كانت الليبرالية الجديدة أساسا، محاولة لصد المقاربات والعناصر الشيوعية والاجتماعية والتوجه نحو مصالح الأجراء والمحرومين اجتماعيا، والتي تم تطويرها في العديد من المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية. لقد أُعلن الانتصار على الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة انتصاراً على المبدأ الشيوعي. بدلاً من الرد بموجة جديدة من الاندماج الشيوعي في المجتمعات الغربية الليبرالية، بدأ

الطرد الحاد للشيوعي بعلزبول (أحد أسماء الشيطان في اللاهوت المسيحي – المترجم). لا ينبغي لشبح الشيوعية ان يصبح مصدر تهديد مرة أخرى. يمكن لإلقاء نظرة على "فينومينولوجيا الروح" لهيغل (كتاب ظاهريات الروح) أن تُعلم الليبراليين الجدد بشكل أفضل. يقول هيغل في إشارة إلى عصر التنوير المنتصر: " تثبت الفرقة أنها منتصرة فقط، عندما تنقسم إلى فرقتين؛ وبهذا تبين امتلاك المبدأ الذي كافحته، وبالتالي تتخلى عن النزعة أحادية الجانب التي ظهر فيها من قبل". (هيغل 1986: 425)لان هزائم اليسار منذ السبعينيات وخضوعهم لليبرالية الجديدة والرأسمالية المالية (قارن بولتناسكي/ تشيبالو 2003، فريزر 0213)، مرتبطة أيضاً بحقيقة أنهم (اليسار) في محاولتهم لتحقيق اختراقات تحررية جديدة، لم يكونوا قادرين، في الوقت نفسه، على تجديد الإرث الشيوعي. وقع هذا الإرث وما يرتبط به من مقاربات حزب شيوعي، الملكية المشتركة، الإرادة المشتركة، والمجتمع ضحية الحكم الشمولي والسلطوية. وارى أن التجربة التاريخية تشير الى ان الحركات اليسارية التي تنبذ الشيوعية لم تعد يسارية وتصبح مجموعة ثانوية من اللعب الليبرالية (انظر ل وسوردو2010، ماغري 2015). أتوجه الى المهتمين عميقي التفكير، الذين لا يخجلون من البحث عن ربط الاضداد الذكي (آزلر 1975: 188). لا أريد أن أعطي إجابات سريعة وجاهزة، بل افتح مساحات يمكن فيها طرح أسئلة ذات مغزى، والتفكير في المشكلات، في الوقت نفسه، يمكن تطوير استراتيجيات جذرية وواقعية. لهذا لم أحاول ملء هذه الغرف بالكثير من أثاث «الحلول». لقد سعيت إلى تأليف الكتاب بروح "العارف بجهل المعرفة"، لكي اكتب ما هو غير معروف، كما طالب نيكولاس الكوزاني (فيلسوف ولاهوتي ورياضي ألماني – المترجم) في نهاية العصور الأوبية الوسطى، لبدء حقبة جديدة (الك وزاني 2002 :3) إذا كان هناك "درس" من التاريخ، فهو عدم وجود شيء أخطر من وهم القدرة على الهروب من تناقضات الحركات التحررية. هذه يوتوبيا خاطئة أساسا، ومثيرة للغضب، تجعلك كسولًا وعدوانياً تجاه المعترض. إنه أفيون اليسار. إن رفض تناقضات التحرر في الطريق إلى مجتمع ما بعد الرأسمالية ليس تعبيرا عن الجذرية. تشير تناقضات الحركات الاشتراكية اليوم إلى التناقضات في المستقبل، وعلى العكس من ذلك، فإنها تتوقعها. الذي يرفض التعامل مع تعقيد هذه التناقضات يرفض السياسة الواقعية الثورية حقًا، بالمعنى الذي تؤكده روزا لوكسمبورغ (راجع لوكسمبورغ 1979: 373؛ انظر مقالات بري في 2009 أ). وكما كتب ارنست بلوخ: "يجب أن تكون الآفاق ووهجها المحفز مرئياً في جميع الأهداف القريبة، وأن تكون مخترقة ومشرقة، ويجب أن يكون للهدف النهائي الجذاب تأثير على الممارسة النظرية لجميع الأهداف قصيرة المدى، كمُلهم لجميع الحركات الثورية الواعدة. لذلك فإن النظرية الثورية هي واحدة فقط، عندما تكون موجهة لربط الأهداف قصيرة المدى والهدف النهائي". (بلوخ 1975: 122، انظر أيضا كلاين 2018) يمكن أن تتغير، طبيعة التناقضات في الحركات الاشتراكية، التي توصل أهدافًا قريبة وبعيدة، في كل مرحلة نشأت فيها. ويجب أن تتغير الطريقة التي يتعامل بها اليسار مع تناقضات الاشتراكية، لأن اليسار في أزمة. وأي محاولة للهروب من

التناقضات محكوم عليها بالفشل لأن مصدر كل حياة يكمن في التناقضات. إن الفرضية التي يستند عليها هذا العمل بسيطة للغاية: تُفهم الاشتراكية على أنها مجتمع، أولاً، يدرك أسسه الشيوعية ويحافظ عليها ويقويها بمسؤولية، وثانيا، ينسجم مع قيم الحرية، المساواة والتضامن، وثالثا تمكن الناس من عيش حياة مرضية. كل هذا ممكن فقط إذا كان لمثل هذا المجتمع جهات فاعلة ومؤسسات فعالة تؤدي هذه المهمة الثلاثية. الاشتراكية هي شكل من أشكال حركة تناقضات المجتمع الحديث والمعقد، القادر على ترك استغلال وقمع وحرمان الناس، من قبل الانسان، من حقوقهم واستغلال الطبيعة. على هذا النحو، فإن الاشتراكية هي بالفعل طريق البقاء الذي يتجاوز الليبرالية والشيوعية. تشكل الأسس الشيوعية "الأرض" المشتركة لهذا المجتمع. الحرية والمساواة والتضامن النجوم الثابتة في "السماء". والجهات الفاعلة والمؤسسات الاشتراكية تتوسط بين هذه السماء والأرض. يحصل الجميع على فرصة ليعيشوا حياة غنية ومرضية. يمكن للاشتراكية فقط أن تخلق هذه الإمكانيات لذلك، وعلى الناس أن يستردوا هذه الإمكانيات بأنفسهم. للتعبير عن مفهوم الاشتراكية في جملة واحدة: الاشتراكية هي شكل من أشكال التضامن بين مطالب حرية الأفراد والأسس الشيوعية في المجتمعات المعقدة الحديثة، لغرض تمكين الناس من عيش حياة مُرضية في عالم غني بالفرص، بمسؤولية تجاه بعضهم البعض. وينصب التركيز على أولئك المحرومين بشكل خاص. ان تحسين حياتهم هو مقياس السياسة الاشتراكية. والهدف من ذلك هو التخلي عن كراهيات الرأسمالية التي لا يحدث فيها تطور البعض إلا على حساب البعض الآخر. لا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن "كل شيء، بما أنه معاد للفرد، ومناهض لليبرالية، يسمى اشتراكية" (يلوخ 2007: 214) لكن الاشتراكية ليست كل ما يشير إلى الملكية المشتركة والمصلحة المشتركة للمجتمع. وليست الشيوعية هي الحل الوسط، كما كان يأمل بريخت (راجع بريشت 1969: 103)، لكنها تلك الاشتراكية التي توصل الحرية والمساواة والحرية والمجتمع على أساس تضامني. هذه ليست "مصالحة" بين الليبرالية والشيوعية من خلال إلغاء تضادهما، ولكنها تسوية شاقة وقاسية في كثير من الأحيان لهذه الأضداد على وجه التحديد بهدف اشتراكي. يجب الحفاظ على الاهتمامات المشروعة لهذين التيارين الكبيرين في العصر الحديث. وهذا يتطلب إيجاد وتنفيذ تلك الأشكال الاجتماعية التي يمكن العمل عليها بتضامن. في الوقت نفسه، يجب استيعاب الزخم والمساعي التي تم تطويرها في الحركات الرومانسية على مدار الـ 250 عاما الماضية، لأنهم كانوا يبحثون عن حياة مكتملة للناس في علاقاتهم المباشرة مع بعضهم البعض، في المجتمعات والطبيعة، في ما يتعلق بالتاريخ والمستقبل يمكن أن يعني ذلك. تبحث الليبرالية عن إجابات حول إمكانية أن تصبح الحرية الفردية أساسًا لمجتمع معقد. وتسعى الشيوعية جاهدة لأشكال تنظيم هذا التعقيد بروح من التضامن ومواءمته مع التنمية المشتركة. تطرح الرومانسية مسألة حياة مشتركة ذات معنى في طبيعة وثقافة غنيتين. بناءً على ما سبق، يمكن تعريف الاشتراكية في هذ الكتاب على النحو الآتي: الاشتراكية ليست المحاولة التي تكرر فشلها، لترك المجتمعات الحديثة خلفها، بل طريقة للتعبير عنها بطريقة مختلفة

جذريا. مصادرها الثلاثة هي الليبرالية والشيوعية والرومانسية. مكوناتها المثالية الثلاث، هي التحليل الاجتماعي النقدي ونقد السلطة، واليوتوبيا الحقيقية لطريقة اشتراكية في التنمية وبحوث التحول. مرجعياتها الحقيقية الثلاث هي حركات التضامن التحررية، والقوى السياسية اليسارية، وثقافة التضامن النقدية، والفن والعلم. وتتوافق موجاتها الثلاثة مع الأنواع الثلاثة للرأسمالية على مدى المائتي عام الماضية، رأسمالية مانشستر، والرأسمالية المنظمة، ورأسمالية السوق المالية الليبرالية الجديدة. (قارن بري 2016 أ) ماتت الاشتراكية! تحيا الاشتراكية! بهاتين الجملتين، يمكن صياغة مفارقة يجب أن تميز أي نقاش حول الاشتراكية في الوقت الحاضر. لقد ظهرت الاشتراكية كحركة تاريخية حقيقية لمجموعات اجتماعية كبيرة في إنكلترا وفرنسا منذ أكثر من 200 عام. عندما ينظر الاشتراكيون إلى الماضي، فإنهم يرون بدايات جديدة مشعة في الأوقات المظلمة حقًا، والتي تسلط الضوء حتى اليوم على استكشاف إمكانيات جديدة في الحياة، وعلاقات اجتماعية وعلاقات جديدة بين الناس، وعلاقة جديدة مع الطبيعة. ويرون في الضوء الأسود الرمادي، اليأس والدمار والمخيمات والجدران. لا يمكن، من هذا، بناء دوامة تصاعدية بأمل أن يحمل حجم الهزيمة وعداً أكبر بالنصر. في الوقت نفسه، من الواضح أنه لا يمكن اعلان موت الاشتراكية. حتى أسوأ الانهيارات الذاتية لا تمنع إعادة الاشتراكية إلى جدول الأعمال من قبل هذه القوة الاجتماعية أو تلك. ويمكنك، مع آن بيتيفور، تلخيص الأمر بهذا الشكل ايضا: يمكننا ان نختار البقاء كهدف. لكن كي نبقى على قيد الحياة، يجب أن يتغير كل شيء. كل شيء حقا". (بيتيفور 2020: 20) كلمة الاشتراكية، تلخص جودة نظام التغيير من كل الجوانب بدقة. من الضروري فقط إعادة تعريف هذا المصطلح. يلخص محررو المجلة الصينية "كالجر ريفيو" اهتمامهم بتجديد خطاب الاشتراكية بالشكل الاتي: الهدف هو "التقاط ممارسة الاشتراكية في عهد ماو تسي تونغ باعتبارها الاشتراكية الصينية 1.0 واقتصاد السوق الاشتراكي منذ الإصلاح والانفتاح على أنها اشتراكية 2.0. فيما يتعلق بتحليل التحولات السياسية والاقتصادية الحالية، نريد أن نشير إلى أنه يجب تطوير الاشتراكية 3.0 في الصين المستقبلية، والتي تقوم على عمليات استمرار وإلغاء الاشتراكية 1.0 والاشتراكية 2.0". (هيئة تحرير بكين كالجر ريفيو 2021: 39) يجب أن يؤخذ كلاهما على محمل الجد، العودة المستمرة للاشتراكية بأشكالها المختلفة وكذلك هزائمها. وكلاهما يحتاج إلى تفسير البدايات الجديدة وكذلك الفشل تمامًا. كما يجب التساؤل عما إذا كان هذا الفشل حتميًا. هناك رؤيتان محتملتان: قد يتضح أن الاشتراكية ليست بدقة، سوى ظل النظام الاجتماعي ذاته الذي تريد مقاومته وتريد استبداله، أي الرأسمالية. إذا فهم على هذا النحو، فهو ظاهرة مرافقة للرأسمالية، وغير قادر على العيش المستمر معتمدا على قواه الذاتية. تستمد هكذا اشتراكية قابليتها للحياة من كونها تصحيحاً للرأسمالية، وتبيان لحدودها، وتضغط عليها للقيام بإصلاحات، لن تكون قادرة على القيام بها بدون مثل هذا الظل. وهذا يعني أن الرأسمالية التي أطلق عنانها، كالتي سادت في فترة ما بعد التسعينيات، أي راسمالية فقدت خصمها وسعت إلى القضاء على بقاياه، قد تحتاج حتى إلى ظهور ظلها الاشتراكي من

أجل تمكينها من البقاء. الاحتمال الآخر هو أن الرأسمالية نفسها تعيد باستمرار خلق الظروف الموضوعية والذاتية لنفيها الاشتراكي. عندها يجب ان يكون باديا، انه وفق رؤية الاشتراكية كنظام اجتماعي، ممكن ان يتجاوز الرأسمالية. ولتحقيق ذلك يجب تجديد الشروط التي يجب توفرها. ينبغي لهذا الكتيب المساهمة في الوصول الى اجابات، وفي هذا كله، أدرك تحذير بيرتولت برشت: "طوبى للشك". (بريشت 1978 :123) يبدأ الكتاب بإلقاء نظرة على تجارب القرن العشرين، في مواقف توماس مان وألبرت أينشتاين وإرنست بلوخ بالإضافة إلى رؤى الذين قضوا طفولتهم وشبابهم في ألمانيا الديمقراطية وحياتهم البالغة في جمهورية المانيا الاتحادية. يتعلق الأمر برؤيتهم لـ "مجتمع جيد". يتناول الفصل الثاني المواقف غير القادرة على الجمع بين نقد الرأسمالية والاعتراف بنقاط القوة في هذا النظام الاجتماعي. في الفصل الثالث، يتم بايجاز عرض آراء كارل ماركس وأوتو نيورات (فيلسوف وعالم اجتماع واقتصاد نمساوي – المترجم) ولودفيج فون ميزس (اقتصادي وفيلسوف ومفكر نمساوي – المترجم) حول إمكانية أو استحالة قيام نظام اقتصادي اشتراكي. الفصل الرابع يتحول إلى كارل بولاني. لقد كان هو الذي أخذ تحدي ميزس على محمل الجد وطور نهجاً جديداً للديمقراطية الاقتصادية الاشتراكية، لا يزال مؤثرا حتى اليوم. في الفصل الخامس، يتم تطوير ملامح فهم للاشتراكية،

باعتبارها تسوية تضامنية وتحررية لتناقضات المجتمع المعقد. ينصب التركيز فيه على التناقض بين التطور للفرد الحر والتنمية الحرة للجميع. الاشتراكية ليست بأي حال من الأحوال الشيء البسيط الذي يصعب بناؤه، ولكنها على العكس من ذلك شكل معقد ومتناقض من التنمية الاجتماعية، والتي توجد لها مقاربات في الرأسمالية. هذا هو الشرط الأساسي لتحول اجتماعي - إيكولوجي جذري وإنشاء نظام عالمي للسلام والتنمية التضامنية. الصين هي الفيل الموجود في ميدان كل سؤال تقريباً في الوقت الحاضر، بما في ذلك السؤال عن الاشتراكية. لهذا السبب لا يمكن تجنب "السؤال الصيني". ولهذا كان من الضروري تقريبًا أن يتطور الفصل المخطط بشأن الصين في النهاية إلى كتاب صغير خاص بها، من المقرر نشره في ربيع عام 2023 تحت عنوان "إعادة اكتشاف اشتراكية الصين". لأنني عندما حاولت إعادة اكتشاف الاشتراكية، قمت أيضاً بإعادة اكتشاف شيء ما بنفسي عن الصين - البلد الذي كنت مرتبطًا به منذ عام 1958، عندما هبطت، في سن الرابعة، لأول مرة بالطائرة في شمال شرق بكين. لولا التحدي الذي تمثله الاشتراكية الصينية وتطورها منذ عام 1978، لما كتب هذا الكتاب، وكان سيبدو بالتأكيد مختلفًا تمامًا.

وهذا سبب في أن كلا الكتابين، هذا الكتاب، والكتاب عن الاشتراكية الصينية، ينتميان، في النهاية، لبعضهما البعض. يمكن للمرء أن يقول أيضاً، إن الإطار المنهجي الذي تم تطويره، يجب أن يثبت صحته، عند تناول الرؤية الصينية.

أي ينعكس كل منهما في الآخر، كما هو الحال مع العام والخاص.

---

* مقدمة كتاب بنفس العنوان صدر للكاتب حديثا، ونشر في موقع مؤسسة روزا لوكسمبورغ.

حوارات

المعماري معاذ الآلوسي*
هوية المكان وتجربة زها حديد ومدن الملح

أدار الحوار زهير الجزائري

الثقافة الجديدة: نعرف عنك أنّك من المعماريين الذين يهتمون بهوية المدينة. ماهي هذه الهوية المعمارية وما علاقتها بهوية ناسها وإرثهم الثقافي والاجتماعي؟

معاذ: اهتمامي بهوية المكان أسميه (جنّي المكان)، وهو اصطلاح يعود للاتينية(genius loci) ومعناه بالعربية روح المكان الخفيفة، وأحيانا روحه الثقيلة. هي ما سميتها في واحدة من محاضراتي السرة الروحية-الاجتماعية التي يتجمع حولها دفء الشمس وضوء القمر في بيئة حارّة ومغبرّة. وهي أيضاً رد الإنسان على تحديات هذه البيئة ومحاولات التناغم معها بطريقة فطرية وعبقرية. (جني المكان) هو عصب هوية العمارة في مكان محدد ويرتبط بهوية الناس وثقافتهم. وفي مفهومي وعملي اعتبر المكان وهويته بالتحديد، شريكا أصيلا في أي منهج لتطويره. لذلك اعتبر الدراسة والمعايشة الخطوة الاساسية والأولى، لكي ادخل الى عالم المعرفة. عليّ أن أعرف، من أنا؟ خلف لأي سلف؟ من أين وصلني هذا المرشِح "الفلتر " الذهني. كيف تفهم الغير وكيف تتخذ موقفاً؟ إذا لم تعرف التركة التي انت مؤتمن عليها، كيف لك ان تفهم الغير، وكيف تتخذ موقعاً او موقفاً؟ في نفس الوقت لا اريد ان أكون على الهامش، متخلف عن الركب الانساني. بالتأكيد لا زلت أبحث عن موقعها في النسق الإنساني. الزمن يسير وعليَ ان أكون مواكباً، لكي أُسعَد وأسعِد. ألا يحق لي ان أفتخر وأتصرف كابن هذه الأرض، وخلف لأبوة عمرها آلاف السنين. كنت في الابتدائية في مدينة الحلة، في الصف الاول الابتدائي، حيث تعلمت الحرف والرقم. في دارنا بلاطة "فرشيه"، بلغة أسطوات بغداد، منقوشة مسمارياً وفي الزمن ذاته. كيف لا أتأثر في موقفي وما تمليها هذه التركة عليَّ من مواقف.. من هنا تصاغ هويتي..

(الهوية والمعاصرة)

الثقافة الجديدة: في الوقت الذي نتحدث عن الهوية هناك تحديات المعاصرة التي تزحف على المدن القديمة وتعيد تشكيل هذه الهوية، بل وأحيانا تلغي الهوية القديمة. هل تعتبر

هذا التغيير قدراً لا بد من قبوله، أم هناك إمكانيات للتوفيق؟ هل من أمثلة في الجانبين؟

معاذ: الهوية عاكسة لكل مقومات الذات، أي هي ولادة بيئة متكاملة. ارث وتركة عمرانية وتاريخ ومناخ وتسلسل معرفي لا اكتساب من دون المواكبة مع الإرث الإنساني. انا لا اريد هوية متخلفة تعتمد على تقاليد بالية عفنة لا تتواءم مع الزمن. أبداً، وإلا تكون هوية متخلفة تغمط حق الانسان في العيش الكريم. ما كل هوية مرغوبة، هناك الباطل من المدن، والمدن المالحة'' حسب تسمية عبد الرحمن منيف . ''مالي وهوية سياحية مثل هوية لاس فيغاس، او سان ستي في جنوب افريقيا. مدن فاقدة للتاريخ والتراكم. هويتي نتاج بيئة متكاملة تعكس تصرف مجموعة في ارض معينة ولا تكون نسخة جامدة من ارث بالي ومتخلف. كل المدن المتقدمة اليوم لها هوية معاصرة، باريس روما وسان بيتسبرغ وموسكو ومدن المانيا واليابان، لها هويتها المعاصرة والمتقدمة.

الثقافة الجديدة: أنت الآن تتحدث عن مدينة مثل بغداد لها سمك تاريخي وهوية معمارية متوارثة.

هل الهوية لازمة أيضًا لمدن حديثة توفر لسكانها سكنا حديثا ومريحا وبيئة عمل معقولة. ما ضرورة الهوية القديمة هنا؟

معاذ: نعود الى الجنّي، وهاجس الفريق العامل، في محاولة وضع مناهج لتطوير أرض الأجداد بغداد. ولبغداد وفرة من (الجان) توازي عدد محلاتها فهناك جنّي الكرخ وجنّي الرصافة، بالمناسبة، الفيلسوف الفرنسي باشلار سماه (روح المكان). ومن خلال دراسة الكرخ، كان من أولوياتي وأولوياتهم، معرفة هذا ''الجني'' فيها. العنوان العمران. ولكن الفضيلة تتحول إلى رذيلة حين نحسب إعادة البناء اعتماداً على جدواه الاقتصادية فقط ونفكر بالمردود دون الأصل. بغداد تستحق إعماراً لذاتها؟ الإعمار ليس (ألق بغداد) ولا السياحة ولا الاستثمار. العمران هو العيش الكريم كحق مكتسب للإنسان. حين يكون إعمار نجف '' توسعة تجارية'' وتأهيل البصرة وقتياً لخليج 25 فهذا إعمار تمليه حاجات آنية. كيف تعمر مدينة في بلد وخط الفقر فيه يقارب 40٪ والأمية سائدة، ويسود فيه وعي مزور. هناك الكثير مأواهم زرايب في مقياس البشر، كثافة سكانية لا توفر الحشمة في نمط العيش والترعرع، هناك أطفال يقتاتون من المزابل. وما زال هناك من يفتخر بالتزامه بتقاليد متخلفة وبالية تعيق العمران والتمدن. المدينة التي ننشدها مدينة سعادة وراحة وانتاج. لا باطل فيها. في كتاب المعرفة ''الجنيد'' عبد الاله بن عرفة يذكر ألق بغداد، في صناعتها وتجارتها وكتبها وتراجمها لكتب الاغريق التي جلبها وفد بغدادي من بيزنطة. نعم، نعمّر عندما يكون عندنا تعليم وعندنا خدمات وحق الانسان في العيش الكريم، وهناك من يشعر بقيم انسانية غير متخلفة. نعم، نريدها مدينة قبل ان تكون حاضرة، توفر الحق الادنى. مقابل ذلك نجد مستثمرين جدد يصبون نحو الربحية والتسابق نحو المكسب الشخصي الاستثماري وكأن بغداد لا تستحق الرعاية. لو احصينا مفردة الاستثمار سنجد سماسرة عقار لا يعرفون ولا يهتمون بالنسق العمراني للمدينة أبداً. نعم يعرفون نسقا جديدا من أبراج تناطح السحاب، تنافس في المولات وابراج المصارف. الرعاية لا تقتصر على تحضير الرسوم والدراسات و المسوحات

إن وجدت، وإنما على الإرادة والمشاركة والادامة. المساهمة في البناء والصيانة، وعندما أقول عمران لا أقصد الترقيع كهدف رئيس. شارع الرشيد مثلاً ليس كل بغداد. هناك دراسة وافية لمنطقة الكرخ. مقترح تخطيط مفصل، بـ 25 مشروع تعمير وحفاظ على صوب من المركز. وموجود في امانة العاصمة ونسخ منه في جامعات بغداد. مثال لم يذكره احد، مع العلم هناك تخطيط مفصل لمنطقة الشيخ معروف، يكمل مشاريع التنفيذ. سيدة في امانة العاصمة خبرتني ان الوثائق موجودة، لكنها في سلة المهملات. انا ارفض ان تفقد مدننا ألقها وتتشبه بمدن صدفة ولدت ناضجة متصنعة كونها مدن ملح، فاقدة الحشمة والألق. خوازيق تلغي احتضان دجلة الفذ المعطاء.

(شارع حيفا)

الثقافة الجديدة: أنت كنت أحد المعنيين بشارع حيفا في بغداد. هل تعتبره مثالاً ايجابياً لهذا التوفيق؟ ماذا عن المحلات القديمة التي أزاحها هذا المشروع؟

معاذ: شارع حيفا تجربة ينبغي أن لا تكرر. السبب أنه تحصيل حاصل. دوري في انشاء شارع حيفا اقتصر على الترقيع، أي انقاذ الكرخ من التشويه. التخطيط الأساسي لمدينة بغداد المعمول به في حينه، كان ينص على كثافة سكانية بالهكتار عالية جدا. وما شيد قبل استدعائي، كان بدون تنسيق. ومن غير نسق حضري متكامل شيدت تسعة أبراج بارتفاع خمسة عشر طابقاً. عند استلامنا المشروع كان العمل مباشرا فيه ومُحال على مقاولين. ما قمنا به بداية جديدة، هو إيجاد معايير معمارية توحد الأبنية في نسق معماري ذي مقياس اقل عدائية وبمواد غير عكرة. والهم هو تقليل تشويه المنطقة. تشييد شارع حيفا قرار اتخذ في منتصف الخمسينات من قبل مجلس الاعمار. بدأ الهدم من منطقة (الست نفيسة) و(خضر الياس) عام 1955. من خلال المشروع فقدنا نسيجا فريدا غير موثق لمساجد وحمامات. بعد جهد تمكنّا من إيقاف التهديم وإنقاذ المدينة من كارثة تخطيطية. لذلك انيط بنا اجراء دراسة كاملة لمنطقة الكرخ. والكرخ هي منطقتي وأعرفها جيدا. قدمنا دراسة أحد اهدافها امتصاص الشرخ الحادث من جراء تشييد الشارع. نعم صُنف المشروع كشرخ في النسيج العمراني. لذا بعد الدراسة التفصيلية صدر مقترح التصميم الحضري المعد لأمانة العاصمة والموافق عليه بقانون ينص على الحفاظ على نسق معظم مناطق الكرخ واحيائها وتطويرها واقتراح مشاريع واستعمالات لتلافي تكرار ما حدث في انشاء حيفا، لكن القانون لم يطبق.

(مثال الخليج)

الثقافة الجديدة: هناك من يعتبر (الثورة (العمرانية في بلدان الخليج مثالا ووعدا بالتقدم. كيف تقيّم تجربة دبي وأبو ظبي مثلا؟

معاذ: عاصرت هذه (الثورة) من بدايات ولادة مدن الصدفة.. هذه التسمية موازية لخماسية الصديق)عبد الرحمن منيف)، مدن تولد بالصدفة وهي ناضجة خدمياً من جراء توفر مصدر تمويل أحفوري. هذه المدن أصبحت ظاهرة وتتوالد من دون معاناة مدينية تواجهها المدن من جراء نموها الطبيعي. مدن تولد خلال فترة قياسية ناضجة بدون ذكرى او تراكم. لا تحتاج الى ممول دائمي. جدواها الاقتصادية متوفرة، لكنها تفتقد الجهد الإنساني الذي يضيف طعماً

للحياة. نمط الحياة في هذه المدن يقول بأن كل شيء يشترى ويباع بدون استثناء. من هنا تفتقد هذه المدن الاصالة في مشاركتها الفعالة في بناء التمدن الإنساني. مدن مشاركتها في التقليد الاعمى، لا تفوز بالجوائز وانما تعطي الجوائز. حتى أسماء المتاحف واللوحات تستعار من الأصل. منذ الستينيات عملت في الكويت ودبي والمنطقة. وعلى الرغم من اصالتها في حينه، وجدت من الصعوبة علي ان انتمي إليها، فلي متطلبات عيش متمدن لا توفرها. ربما الآن قد توفر بعض السعادة الاصطناعية. استبدل الزقاق، بمصعد وممر في الطابق العشرين، واستبدل السوق والبازار بمول تسويق ينفث وفرة صناعية في أيام الكرسمس وتحته عاملون اسيويون للتنظيف على طول النهار. المول أصبح كالحديقة العامة وبديلاً عن المكتبة. المشكلة الكبرى أنها، أي هذه المدن، أصبحت بأبراجها مثالا للتقدم. مسؤول كردي في أربيل، وهي مدينة عمرها آلاف السنين، يتمنى ان يحول أربيل إلى دبي ثانية. حقه في توفير الخدمات. ماذا عن تلافيف الزمن والتاريخ. هل من الممكن الآن أن تتنازل عن قلعتك الفذة على المستوى الإنساني.

المعماري محمد الأعسم مقيم في الخليج وهو أيضًا عاصر هذه الثورة العمرانية يعقب على ما قاله أستاذه معاذ الآلوسي:

محمد الأعسم: الهوية هي مجمل السمات التي تميّز شيئا عن غيره أو شخصا عن غيره أو مجموعة عن غيرها.. هذا ما تقوله (ويكيبيديا)، كل منها يحمل عدة عناصر في هويته. عناصر الهوية شيء متحرك ديناميكي، يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة، وبعضها الآخر في مرحلة أخرى. اذن ليست هناك هوية جيدة وهوية سيئة، وانما هناك هوية لكل شيء. ينطبق ذلك على مدن ودول الخليج التي تتغيّر هويتها بسرعة للأسباب التي ذكرها معاذ. هناك مدن تجاهد في الاحتفاظ بشيء من الهوية الاصلية مثل الرياض، وهناك مدن تحاول ذلك ولكن بدون فائدة، مثل ابو ظبي. اما دبي فلها خط مختلف تماماً. دبي اقتنعت تماما، كما يظهر، بأن لها هوية جديدة وهي فخورة بذلك سواء احببنا هويتها الجديدة او كرهناها. لا اعلم ماذا يعطينا الحق في تصنيف المدن حسب هوياتها ما دام اهلها والمقيمون فيها وزوارها راضين بذلك .. لا تفهموني خطأ، فانا ضد هويتها الجديدة، ولكني مستعد للتعايش معها. اما كم ستصمد هويتها الجديدة؟ لا اود التفكير بذلك لان الجواب قد يكون مرعباً.

معاذ: رأي محترم. هناك هوية باطلة. مثل "غوثام" الخيالية. حيث تزداد الجريمة والفسق. انا عشت في مدينة برازافيل في الكونغو، حيث كل شيء فيها يشي بعيش غير كريم. اغتصاب ونهب ودعارة. في اميركا وفي مناطق في شيكاغو ونيويورك ولوس انجلس لا يمكن المرور فيها الا بمعية البوليس تسمى Combat Zones. مناطق معرفة تنم عن الجنّي غير الصالح، الطالح. اليوم هناك مقاييس للمدن ومدى صلاحيتها للعيش الكريم. هلسنكي على راس القائمة.

(مسقط)

الثقافة الجديدة: سمعنا، استاذ معاذ، أنك تعتبر مدينة (مسقط) نموذجا للنجاح في التوفيق بين التراث والمعاصرة، هل، وكيف؟

معاذ: في منتصف سبعينات القرن الماضي،

كلفت ومكتبي الحديث التأسيس في بيروت، بأول عمل في مسقط، وهو مبنى لوزارة المعارف في مسقط. أول ما فعلته هو الذهاب لاستكشاف النسق العُماني.

فهو فريد وله حضور قوي. بلد خليجي له تاريخ موغل بالقدم، محافظ على التقاليد.

كلفت من السلطنة بتصميم أبنية متعددة. ممارسة مهنية ممتعة تعوض عما فقدته في هجرتي. لذا كررت الزيارات، وتنوعت المشاريع. منها مدينة رياضية.

صممتها مستلهما المنطقة، باستعمال خيام شبيهة بخيامنا. صممتها واشرف عليها زميل في مكتبنا "خطار الاتاسي" بمساعدتي الدورية. ابنية قريبة الى قلبي، وازدادت قرباً بعد زيارتي الأخيرة. هذه الأبنية ما زالت شاخصة. جلست في ظلها:

فندق مطرح في مطرح، البنك العربي في مسقط، سفارة دولة الامارات العربية المتحدة، جامع عبد الرضا السلطان، مكتبة الأوقاف، إسكان موظفي البنك العربي، المركز الثقافي في صلالة، البنك المركزي في صلالة.. هذه الأبنية صممت ومنذ البداية بنسق واضح يجمع بين عبقرية المكان وإرادة الباني. نسق يمليه البلد الاصيل، لا حديث النعمة. تركة واضحة لا خلاف معماري عليها، تخاطب بلغة غير دخيلة.

نعم، ربما مسقط العاصمة الوحيدة التي لها الهوية المميزة. بعد اكثر من خمسين سنة أعود للمدينة واكتشف أن الجمع بين الأصالة والمعاصرة ممكن وجميل. مدينة حاضرة متطورة متقدمة، نظيفة ذات نسق موحد، هويتها التي اعرفها مؤكدة. واحتشام أهلها بخصوصية وهوية فذة واضحة. والاهم اصيلة بكل معنى الكلمة.

(زها حديد)

الثقافة الجديدة: لنقف أمام تجربة)زها حديد)، هناك من يعتبرها عمارة المستقبل، وهناك من يراها قفزة في الحداثة وبعضهم يعتبرها قفزة شكلية لا تهتم بالمحتوى الداخلي الذي يمس حاجات الانسان، أين تضعها أنت؟ لنأخذ البنك المركزي في بغداد مثالا؟

معاذ: أعتبرها ظاهرة شخصية تزول برحيل زهاء المبكر. اشبهها بالنجومية وأؤكد انها مستحقة لهذه النجومية. والسبب هو نمط عكس التيار، لا يتفق مع الهوى الإنساني في اكتساب الشخصية والتعريف عن الذات. زها لا تعترف بالنسق المديني لموقع عملها، ولا بالوظيفة او احتياجات الانسان. تعتمد على الصرحية والصدمة في التمتع بالمنجز. أعترف بها وافتخر كونها شخصية فذة حققت لنفسها ولعمارتها مكانة، ليست كحالة وانما كـ مودة. موقعها مهم في مسيرة الابداع الإنساني. مشكلتي معها اكاديمية. فتأثيرها بقدر ما هو ايجابي في اكسبو المدينة الحالي الاستثماري، هو سلبي في التعليم الأكاديمي، وذلك لسهولة اللعب بآلة ذات مفاتيح، مبرمجة بدون إحساس وشاعرية. وإخراج اشكال بارومترية. برامج بعيدة عن الحس المعماري. اتجاه اخر غيّر العمارة التي تخدم العيش الكريم وسعادة الانسان في الوصول الى المدينة الفاضلة. في بعض الاحيان تعمل هذه الظاهرة على التخريب في تشويه النسق المديني. تخريب أجمل شبه جزيرة يهديها دجلة لبغداد وذلك بنصب خازوق في وسط شبه الجزيرة.

الثقافة الجديدة: كما اتفقنا أحلت جوابك عن زها حديد للمهندس المعماري (نعمان منى) وهو أحد العاملين في تنفيذ مشروع البنك

المركزي: هذا كان جوابه:

نعمان منى: النقاش حول معنى العمارة والترابط بين الشكل والمتانة والفائدة) الوظيفة) مازال مستمراً وسيبقى كذلك مازالت هنالك حاجة للعمران على جميع اشكاله ووظائفه. واذا تجاوزنا هذا النقاش في الوقت الحالي فلا بد لنا ان ننظر الى جانب آخر من تجربة تصميم مبنى البنك المركزي العراقي كمبنى له وظيفة معينة وفي ظروف تستوجب مراعاتها وفي بقعة من العالم لها خصوصياتها من المنطلقات الأمنية والبيئية. لم يكن مكتب زها حديد المصمم الوحيد لهذا المبنى، ولم يكن تصميم المبنى جاهزاً لتلتحق بها المتطلبات الهندسية الأخرى. الفريق المصمم متكون من 12 مكتبا استشاريا، اضافة الى مكتب زها حديد، قدموا اكثر من 22 خدمة استشارية وهندسية متخصصة. كان الفريق يجتمع عموما كل أسبوعين للتنسيق بين المتطلبات والتصميم الأساس مما أدى الى تغيير وتنقيح التصاميم حسب المتطلبات التخصصية. يعتبر مبنى البنك المركزي العراقي بناية ذكية حصلت في التصميم على شهادة البيئة BREEAM من بريطانيا. درس المصممون حركة الشمس في العراق لسنة كاملة لتحديد اتجاه العاكسات Fins . وكان لدراسة متطلبات البيئة المحلية انعكاسات عديدة على أسلوب البناء، كما كان للمتطلبات الأمنية تأثيرها على المبنى وحتى تقسيم محتوياته بين القاعدة-Po dium والبرج Tower. كل الخدمات والنظم المصممة والاحتياجات الأمنية هي انعكاس لمتطلبات رب العمل، إضافة الى كونها مترابطة تؤثر وتتأثر بما يجري في المبنى لذلك اعتبرناها بناية ذكية. هذا الترابط احتاج الى دراسة أخرى -Facilities Man agement والتي حددت في استنتاجاتها متطلبات وكيفية إدارة الخدمات في المبنى والتي بدورها اثرت على تكامل التصاميم الخدمية والبيئية". نلاحظ أيضا ان تصاميم الهندسة المدنية Structure اخذت، الى جانب المتطلبات الهندسية الأخرى، حقيقة تقارب خط الزلزال من الجانب الإيراني الى العراق وتاثيره خلال المائة سنة المقبلة. هذه مقتطفات قليلة لأسلوب اعداد مبنى متكامل تصميماً بين الشكل والمتانة والفائدة الوظيفية. وكانت الدراسة المكثفة لمتطلبات رب العمل ودراسة التجارب الأخرى مثل البنك المركزي في كنساس والبنك المركزي في الكويت والبنك المركزي الأوربي في فرانكفورت في قمة الدراسات واولها. لا بد أيضا ان ناخذ بعين الاعتبار ما حققه المبنى على ارض الواقع في العراق بعد الانعزال الكلي وتوقف النشاط العمراني من نهاية السبعينات من القرن الماضي والى الان. انها مدرسة تستحق الدراسة من قبل جميع المهتمين والمشاركين في التصاميم والتنفيذ. هذا ما جعل البنك المركزي هدفا للفرق المتخصصة التي تزور الموقع باستمرار للاطلاع على هذه التجربة الفريدة في العراق. إن تاثير تصاميم زها حديد واسعة عالمياً، خصوصا في الوسط الطلابي. هناك تجارب أخرى يمكن وصفها شكلية (تركيبة الشكل) مثلArt nouveau او Art Deco والتي مازلنا نتحسسها ونتأثر بها بصيغ متعددة بالرغم من انحسارها كحركات، لكنها أصبحت جزءا من التراث العمراني. كمثال اننا نجد الكثير من البيوت البغدادية مصممة بطرازArt Deco . لا يمكن الجزم

باستمرارية طراز زها حديد الانسيابي ولكن اعتقد ان تأثيرها الإبداعي سيبقى لفترة طويلة.

معاذ: انا لا أقلل من قيمة البنك المركزي كمبنى. أنا أقلل من قيمته بلغة العمران. اي انه خارج نمط السياق. مبنى متسلط بعيد عن الانسانية والشاعرية، يخرب نسق رافديني. يدعو للاغتراب خارج المقياس العمراني. بناية منفردة تدعو وستنجح في تحويل بغداد الى مدينة ملح، ناكرة للتراكم الحضري. لا رومانسية في هذا الطرح. العمارة اسمى من ان تكون مجرد بناء ذي تقنية عالية. اين الانسان؟ نحن نتعامل مع بشر وليس الحجر فقط.

(الفن والعمارة)

الثقافة الجديدة: ما رأيك بالفكرة التي طرحتها جماعة الباو هاوس Bau Hous حول الجمع بين الفن والحرفة خاصة في العمارة؟

معاذ: هذه التجربة فات زمانها. المفروض أن المعمار على معرفة بالحرفة، وللحرفة ناسها. تعلمت كثيراً من أمور البناء من الأسطوات. وكتبت ذلك من الدرس الاول في الطابوق والنجارة، وكيف تورمت عيني من جراء اللحيم. في المدارس الانكليزية، وبعد فشل "مدارس الگرامر" اتاحوا الفرصة للطلبة للتطبيق في ورش للعمل.

عند الألمان هناك سنتان للتدريب قبل الدراسة في حقل البناء، وكذلك المدارس التكنيكية. مثل مدرستي، الصيف العملي مطلوب في كل سنة.اي أن السنة ثلاث سمسترات الصيف عملي. بعض الالمام بالفن والمشاركة بين الإثنين ضرورية، وكلما زادت المعرفة من الإثنين كان الناتج أوفق.

(الضروري والمقدس)

الثقافة الجديدة: تجري حالياً عملية تجريف واسعة للمحلات القديمة التي تحيط بالمرقد العلوي في النجف وتصلنا احتجاجات واسعة من سكان المدينة. الصراع يدور هناك بين الضروري والمقدس، كيف تنظر لهذا الموضوع؟

معاذ:عندما يجتمع الجهل والجشع لا يبقى مقدس ولا ضروري، ولا تبقى قيم ولا تقاليد. وعندما يصبح المردود المالي والاستثمار هو الأساس يصبح القرار بيد حديثي النعمة الجهلة والمتعجلين على الخمط. لهذا لا تهمهم قدسية المكان ولا أصالة المدينة. الهوية الجديدة المتحركةً هي اللا هوية. مدينة لقيطة لا تمت للتراكم ولا تتناغم من الذات. هذا ينعكس على تصرف البشر. كما يحدث لبغداد ولمدن الخليج.

(بغداد ليست شارع الرشيد وحسب)

الثقافة الجديدة: في بغداد شهدنا مثل هذا الصراع حول المركز الحضري للمدينة وشارع الرشيد بالتحديد. الأبنية التاريخية القديمة تتداعى بدون صيانة وتنزرع بنايات حديثة بلا هوية.. ما هي مهمات الدولة للتخطيط، ومن عليها أن تستشير لوضع الخطط؟

معاذ: ما يؤلمني هو اختصار العمران في بغداد على تأهيل شارع الرشيد او المتنبي وما يقارب 40% من الشعب العراقي تحت خط الفقر. هناك بالمقابل مشاريع تخريب مستقبلية استثمارية معزولة، في حين ان هذه المدينة تستحق صيانتها والحفاظ على نسقها الذي هو تركة عالمية.. كم مدينة مشابهة لبغداد بتاريخها الحضاري الغني"، بغداد معروضة

للاستثمار من قبل سماسرة أراض بنسب من القيمة. هذا المستثمر الجديد يشوه النسق المديني. كما حدث في شارع حيفا عندما أصرّ المستثمر على ان لا يتبع نسق الشارع العام. الإنشاء ضمن رواق ومطار المثنى يتحول الى مشروع استثماري إسكان بوابة بغداد المسخ .الرعاية لا تقتصر على تحضير الرسوم والدراسات و المسوحات إن وجدت، و إنما في الارادة والمشاركة والادامة، في الرغبة في العيش الكريم غير المتخلف. المساهمة في البناء والصيانة، يجب ان لا يكون الترقيع كهدف رئيس. شارع الرشيد ليس كل بغداد. ولا المنطقة المركزية" ولا شارع أبو النواس. المشكلةً هي أن أصحاب القرار في العراق تركوا الأمر بيد حديثي النعمة الذين لا يهتمون فكريا وروحيا بهذا البلد العريق مهد الحضارة.

---

* معاذ الالوسي معماري وفنان عراقي من مواليد 1938، حائز على بكالوريوس هندسة معمارية 1961 من جامعة الشرق الأوسط التقنية في انقرة، وعلى دبلوم اختصاص أبنية تعليمية في المناطق الاستوائية، في 1964، من مدرسة رابطة المعماريين في المملكة المتحدة. تدرب في المانيا الاتحادية. عمل مع الجادرجي، ومن مؤسسي الاستشاري العراقي. له خبرة تفوق النصف قرن في ممارسة العمارة والتخطيط في انحاء الشرق الاوسط وارمينيا وافريقيا وقبرص.

أكاديميا، عمل كمحاضر وممتحن في الجامعة التكنولوجية في بغداد، وزائرا في جامعات عدة. في الوطن العربي. له بحوث في العمارة المحلية والإسلامية. وساهم في إصدار منشورات ودوريات معمارية.

حائز على جائزة تمييز للإنجاز المعماري مدى الحياة. من مؤلفاته " نوستوس" حكاية شارع في بغداد، "توبوس "حكاية زمان ومكان" .ذروموس" حكاية مهنة، سرد بصري لمعمار عربي. خواطر في زمن الكورونا ـ رسائل معمارية الى وجدان نعمان ماهر وكتاب "ما تبقى". وله بحوث في عمارة المنطقة والهوية المعمارية. اقام في أوروبا ومدن الشرق الاوسط معارض في الرسم والتصوير. سكن في بغداد وانقرة وبيروت واثينا وفرانكفورت. مقيم حاليا في قبرص.

أدب وفن

عن شغيلة الفكر والإبداع

حسب الله يحيى

بدءاً.. هل يحق لنا أنْ نعد من يعمل في حقول الفكر والثقافة والمعرفة والإبداع.. شغيلة منتجة، وسبيلا من سبل العمل والعيش معا؟ بكل تأكيد.. ذلك انه ليس بوسعنا تجاهل الأساتذة الذين يعملون في حقول التربية والتعليم - سواء في المدرسة أو الجامعة - مثلما لا يمكننا أن نغفل عمن يعمل في مراكز البحوث والدراسات في شتى التخصصات، بوصفهم.. شغيلة بناء وعي المجتمع. إلا اننا إلى جانب هذه النخب الأكاديمية والتدريسية، نجد ان هناك اوساطا عديدة ومتنوعة من الأدباء والفنانين والكتاب، يعملون في الصحافة والمؤسسات الاعلامية..وهم منتجو ثقافة ومبتكرو جمال..انهم جميعاً.. شغيلة تعنى بإنتاج المعرفة..ولكن.. الى جانب هؤلاء جميعاً، نجد شغيلة من نوع آخر..

فهي تنتج أبحاثاً وترسم مخيلة راقية عن طريق الفنون والآداب، من دون أن تتلقى أجوراً، إلا من مصادر رسمية محدودة وغير ثابتة. وقسم كبير من هذه الشغيلة متفرغ للكتابة والفنون المسرحية والتشكيلية والموسيقية من دون أجور.. ولا يوجد ضمن تقاليد الدولة العراقية، جهة تهتم بـ (التكليف) أو (التفرغ) إلا في حدود ضيقة واستثنائية نادرة، ولا يعول عليها في بناء حياة اقتصادية ثابتة ومنظمة للعاملين في الميدان الثقافي.

في حين.. توجد في بلدان عربية وأجنبية تقاليد ثابتة تقر بأهمية التفرغ لغرض دراسة معينة، أو بناء نصب، أو إقامة حفل موسيقي أو عرض مسرحي..وهو أمر نادر الحدوث في العراق، ذلك ان الدولة العراقية برمتها، ليست معنية بالاهتمام والالتفات الى الثقافة والفنون والفكر، وهي على نحو آخر تهمل التربية والتعليم.. بجميع روافده.. كما لو انها تعد الاهتمام بهذه الجوانب.. ترفاً وهي غير ملزمة بالالتفات الى هذا (الترف)...!!

لذلك لا نجد في المدارس والجامعات، مختبرات وقاعات ومكتبات أو يعوزها الكتب والمجلات الأكاديمية الجديدة العربية والعالمية.. كي تكون مصدراً وينبوعاً يمد الحياة المعرفية والإبداعية.. بما ينبغي ان يكون عليه بلد ينشد الوعي والانتباه في كل الميادين كالعراق...

كذلك تشير الاحصاءات الى ان هناك 30% من العراقيين يعانون من الأمية، ومن العزوف عن الالتحاق بالمدارس والجامعات، لإدراكهم ان المدرسة

والجامعة لا تؤهل خرّيجيها بالعمل الفاعل والمنتج، وانما هي تضخ باعداد كبيرة اجيالاً من العاطلين عن العمل، والذين لا يتقنون اي صنعة بذاتها، مثلما ينسون ما تعلموه - على محدوديته - ليصبحوا مجتمعاً خارج محور الحياة الحاضرة والمستقبلية.. ذلك انه لا يلوح في الافق راهناً الى ان العملية التعليمية ستشهد افقاً جديداً، مثلما لا يجد شغيلة التربية والتعليم والثقافة والابداع.. ما يسد رمقهم ويحقق حضورهم الانساني! إنّ هذا الواقع السلبي والمرير الذي تواجهه هذه الشغيلة.. واقع مزرٍ لا يلقى اهتماماً من جميع الحكومات التي توارثت السلطة منذ عام 2003 حتى الآن.. فضلاً عن اهمال الدولة برمتها لشغيلة الفكر والابداع.. فهي غير معنية باصدار القوانين التي تكفل العيش- حتى في مستوياته الأدنى للأدباء والصحفيين والفنانين- وفي أحسن الأحوال قد تمدهم بـ (تكريم) سنوي لا يتجاوز (المليون دينار) تستقطع منه الضريبة ليصبح مبلغاً لا يتجاوز الـ (750) دينار سنوياً!! وهي منّة لا تليق بمن أفنى عمره يبحث ويقرأ ويفكر يظل زاهداً في أمور دنياه.. ليجد نفسه وعائلته في شظف من العيش وفي ضائقة مالية وصحية واقتصادية تسهم مجتمعة في تخليه عن كل اهتماماته ومنطلقاته في إيلاء الثقافة والإبداع لينصرف الى تدبير قوته وقوت عياله مما يتقاضاه من راتب تقاعدي متواضع...! ان شغيلة الفكر والإبداع في العراق، هم الأكثر مظلومية في الحياة الراهنة، وهم الاكثر حاجة الى الانتباه والرعاية.. بوصفهم النخب المضيئة في المجتمع الذي نطمح اليه.. مجتمع تسوده الحياة الرغيدة والمستقبل السعيد والآمال الكبار..

البورتريه: استراتيجية للبناء في «أسير عاشق» لجان جينيه

إبراهيم العدراوي [1]

1 - تقديم

نهدف في هذا المقال إلى دراسة استراتيجية البورتريه البلاغي في بناء الإيتوس، في كتاب "أسير عاشق" للكاتب جان جينيه. ونفترض أن دراسة هذه الاستراتيجية، في الكتاب الأخير لجينيه، قد تكشف عن جوانب أخرى من فكر الكاتب الذي بنى صورةً مغايرة للمثقف الغربي الذي، عادة، ما ينظر إلى "الشرق" إمّا بصورة استعلائية، وإمّا بصورة المتعاطف الإنساني. تنطلق هذه الدراسة من سؤال مركزي: كيف يبني البورتريه إيتوس الكاتب في "أسير عاشق"؟ وللإجابة عن هذا السؤال، سنقف على مفهومين رئيسين، هما: مفهوم البورتريه، بوصفه استراتيجية بلاغية، ومفهوم الإيتوس، وكيف يبنى داخل الخطاب.

وقبل أن نشرع في دراسة السؤال الإشكالي الذي وضعناه موجها للدراسة، لا بد من الإشارة إلى سياق تأليف الكتاب، وموضوعه، لأن هذا السياق، من شأنه أن يلقي الضوء على إشكال تصنيف الكتاب. هل هو سيرة ذاتية أو شهادة أو مذكرات...؟ وكيف يمكن قراءته، هل نصنفه روبورتاجا صحفيا أو نضعه ضمن الكتابات الذاكرة المنفتحة على أنواع متعددة من أدوات الكتابة؟ وهل تهيمن صورة الذات في السرد، أو أن الكتاب، ينفتح على أصوات أخرى، تجعل منه عملا بوليفونيا، بالمعنى الباختيني؟

عكفَ جان جينيه على كتابة "أسير عاشق" بين سنتي 1984 و1986؛ أي في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي مرحلة دالّة تجعل من "أسير عاشق" "كتابا/ ذاكرة"، يستعيد فيه الكاتب قرابة سنتين، أمضاهما بين الفلسطينيين، لاسيما في مخيم "عجلون" بالأردن، في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، وهي مرحلة فاصلة في حياة الكاتب سينعتها "بالجمال". وإذا كانت لحظة اكتشاف "الجمال" في المخيمات الفلسطينية، ذكرى مؤسسة في الكتاب، فإن ذاكرة الكاتب تنفتح على رحلاته إلى مناطق أخرى من العالم العربي؛ مثل المغرب وتونس ولبنان، من جهة، كما أنها تستحضرُ ما شهدته أوروبا من تفاعلات مع أحداث "الشرق"، من جهة أخرى. ويتضمن الكتاب بعضا من الذكريات والتجارب المختلفة التي عاشها الكاتب في حياته، ولا سيما شهادته على تجربة "الفهود

السود" بأمريكا. لقد استجدّت أحداث كثيرة، في السنوات الأخيرة، في مسار القضية الفلسطينية، قد تجعل القارئ بعيدا عن إدراك حقيقة العمل الفدائي الفلسطيني الذي يشكل، حسب تقديم الأستاذ كاظم جهاد للترجمة العربية، "العجيبة المحورية التي يتأسس عليها، ويدور مجمل الكتاب"[2].

2 -تأسيس نظري ومنهجي

أ-البورتريه، استراتيجية لبناء الخطاب

ترى جويل غارد طامين أن البورتريه "مفهومٌ خطابيٌّ" الأصل، ارتبط ميلاده بالخطابة القديمة، ثمّ استُعمل فيما بعد في جميع الأنواع الأدبية. إن البورتريه، حسب طامين دائما، هو الأثر الذي تركته الخطابة في الرواية، سواء في مستوى السرد أم في مستوى الوصف. وتكمن أهمية هذا المفهوم، في نظرها، في أنه يسمح بإعادة توحيد البلاغة مع التخصصات الخارجة عنها؛ لأنّ هدف البورتريه هو اللغة في حركتها، ومن ثمّ، الإنسان، الذي يحوله إلى حجّة للمدح أو الذّم، لا سيما في الخطابة الاحتفالية.

يحضر البورتريه في أجزاء الخطاب الثلاثة:

-في مرحلة الإيجاد: حيث يرتبط بالحجج المتعلقة بالشخص (a persona)؛

-في مرحلة السرد: حيث يحتاج الخطيب إلى رسم صورة لمن يدافع عنه أو ينتقده، كما أنه يُوظف في كل مرة، يسعى فيها الخطيب إلى استدعاء العواطف، لاسيما في الخطاب الاحتفالي؛

-في مرحلة الترتيب: حيث يعمد الخطيب إلى انتقاء الصور التي يريد أن يجعلها أكثر حضورا في خطابه.

وتدرجُ طامين البورتريه، ضمن الصور التي تجعل الموصوف ماثلا أمام الأعين، ومؤثرا في الأذهان. وهو، في نظرها، يحمل أسماء متعددة؛ وذلك تبعا، لما نصفه:

-التبوغرافيا: وصف الأماكن؛

-الكرونوغرافيا: وصف المراحل والأزمنة؛

-البروسبوغرافيا: وصف الجوانب الجسدية للشخصيات -الإيتوبي: وصف الطبائع[3].

يخضَعُ وصف الشخصيات للتّوجيه من الواصف، ويهدف إلى إبراز الخصائص التي تميز الشخصية، فيُبنى عليها الحجاج، ومن خلالها، يعمل الخَطيب على بناء نماذج، تفيدُ إمّا المدح، إذا كان النموذج إيجابيا، وإمّا الذم، إذا كان النموذج سلبيا؛ وهذا ما يسمى في بلاغة الحجاج، عند بيرلمان، ببناء "النموذج"، أو "عكس النموذج". ومن أجل الإلمام بخصائص الشخصية، "يجب البحث بصورة منظمة في مجموعة من المواضع، التي حددها سيسرون، انطلاقا من المقالة الثانية من كتاب الخطابة لأرسطو، وأدرجها ضمن مرحلة الإيجاد؛ وهي: الاسم، والطبيعة (الجنس، منطقة الانتماء، العرق، العيوب والخصال الجسدية والأخلاقية)، ونوع الحياة (التعليم، الصداقات، المهنة إلخ)، والوضع الاجتماعي، والعادات، والمشاعر، والتجارب، والأذواق، والنوايا، والأفعال، والأحداث، والأقوال"[4]. وترى جويل طامين أننا، من خلال هذه العناصر، لا نبني جزءا من الخطاب فقط، بل يمكننا أن نبنيَ الخطاب كلّه. ونرى أن استراتيجية بناء الخطاب استنادا إلى تقنية البورتريه في كتاب "أسير عاشق" حاضرة حضورا كبيرا؛ فهي تؤلف أجزاء الخطاب، وتؤدي وظيفة حجاجية، تتخذ فيها الذات موقع الشاهد، من جهة، وموقع الناقد، من جهة أخرى.

ب-الإيتوس وبناء صورة الذات في الخطاب

استثمر دومنيك مانغينو مفهوم الإيتوس الذي يعدّ أحد الأركان الثلاثة الأساس في خطابة أرسطو، الذي يرى أن الخطابة هي "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع، وهذا الإقناع يتوقف عند أرسطو على ثلاثة أركان هي أولا "أخلاق القائل"، وهو ما يمكن أن نسميه بحجة الإيتوس، وثانيا "تصيير السامع في حالة [نفسية] ما، وهو ما يمكن أن نسميه بحجة الباتوس، وثالثا "القول نفسه من حيث هو يثبت أو يبدو أنه يثبت" وهو ما يمكن أن ننعته بحجة اللوغوس أي الكلام و/ أو العقل"[5].

واستنادا إلى قول أرسطو: "والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يلقى على نحو يجعله خليقا بالثقة... وهذا الضرب من الإقناع ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم، لا عن طريق ما تظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم. وليس صحيحا –كما يزعم بعضا الكتاب في مقالاتهم عن الخطابة أن الطيبة الشخصية التي يكشف عنها المتكلم لا تسهم بشيء في قدرته على الإقناع بل بالعكس، ينبغي أن يعدّ خلقه أوقى عناصر الإقناع لديه"[6]، ركز مانغينو على فعالية "الإيتوس" في مجال تحليل الخطاب، ولعل أول تعديل أدخله على هذا المفهوم يتمثّل في "أخذه من حقل الخطابة الشّفوية، وإعادة صياغته في مجال تحليل الخطاب"[7]، واستنادا إلى أرسطو والدّراسات الحجاجية الحديثة، استنتج مانغينو أنّ:

"-الإيتوس مفهوم خِطابي، وهو يتكوّن داخل الخطاب، وليس صورة توجد خارجه.

-يرتبط الإيتوس أساسا بسياق التفاعل، من أجل التّأثير في الآخر.

-الإيتوس مفهوم هجين (اجتماعي- خِطابي) وسلوك يتمّ تقييمه اجتماعيا، ولا يُمكن فهمه خارج وضعية معيّنة للتّواصل، وتكون هذه الوضعية نفسُها مُدمجَةً في وضع اجتماعي تاريخي معين"[8].

وإذا كان المتكلّم يشكّل صورته داخل الخطاب، انطلاقا من واقع اجتماعي معيّن، فإنّ طريقة تقديمه لذاته تندرج ضمن المعارف والتّمثّلات المشتركة بينه وبين المخاطَب، فهو ينطلق من القوالب الجاهزة في بناء صورته، وينطلق المخاطَب من القوالب نفسِها في تلقّي هذه الصّورة وتشكيلها من جديد. وقد لا تتطابق الصّورة الّتي يُريد المتكلّم أن ينسجها عن ذاته داخل الخطاب، مع الصّورة الّتي يُكوّنها عنه المخاطَب، لاسيما إذا كان المقام التواصلي يعرف نوعا من التّوتّر بين الطّرفين، ولهذا، فإنّ المتكلّمَ مدعوٌّ إلى مراعاة المقام من أجل إقناع المخاطَب بصورته ودفعه إلى تصديقه وتبنّي مواقفه. ولا ينبغي أن نغفل أنَّ الإيتوس السّابق على الخطاب قد يُؤثّر في تشكيل صورة المتكلّم داخل الخطاب، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الكتاب الذين ينطلقون من تجربتهم الذاتية في الحكي عنها؛ ذلك أن مدى مشاركته في الحدث المروي، وأهميته في التنظيم السياسي أو النقابي أو المهني أو الاجتماعي... تجعل منه "شاهدا كبيرا" أو "شاهدا صغيرا" في الحدث، هذه الصّورة تسبقُه قبل أن نتعرّف على الصّورة الّتي بناها لذاته داخل الخطاب، ولهذا " لا يُمكن أن نتجاهل أنّ الجمهور قد كوّن تمثّلات عن إيتوس المتكلّم قبل أن يتحدّثَ"[9].

تشكل الذات محور الكتابة في "أسير عاشق"، غير أن هذه الذات يُعاد تشكيلها في الخطاب،

لتقدّم صورة مغايرة، لما يعرفه القارئ عنها، ومن هذا المنطلق، فإنّ استثمارنا لمفهوم الإيتوس، كما عرضنا له سابقا، قد يسعفنا في الكشف عن إيتوس جان جينيه، وإعادة النظر في المسلمات التي كرّسها النقد عنه، لاسيما أننا نعرف أن كتابات جينيه شغلت العديد من الدراسات الغربية والعربية، والأمر نفسه، ينطبق على شخص الكاتب وحياته.

3 -"أسير عاشق" وإعادة رسم صورة الذات والعالم

يقول جان جينيه: "عندما يشفّ رسم عن عيوب كثيرة، فإن الرسام يمحوه، وتُدعُّ ضربتان أو ثلاثٌ بالممحاة الورقة من طراز "كانسون" بيضاء تماما؛ وهكذا، فما إن مُحيت فرنسا وأوروبا حتى أصبح هذا البياض القابع أمامي، والذي كان بالأمس يضم فرنسا وأوروبا، فضاءً للحرية راحت تنخطّ فيه فلسطين التي عِشتها... أكانت هذه الانتفاضة، التي بقيت خارجة على القانون زمنا طويلا، تأمل أن تتحول إلى قانون تكون سماؤها هي أوروبا؟ حاولت أن أقول ما صارت عليه؛ أمّا أوروبا، التي صارت تشكل لديّ أرضا مجهولة، فقد باتت ممحوة"[10].

يرسم جان جنيه بورتريه الشخصي، ببناء علاقة انفصال عن الثقافة الغربية، وبالتعبير عن امتلاكه لقيمة الحرية المفتقدة في هذه الثقافة، وتتجسد هذه الصورة بوضوح، عندما يعيد النظر في مسلماتها، انطلاقا من التجربة التي عاشها، و كان شاهدا عليها، ويُظهر المقطع السابق الذكر، لوحة جديدة للعالم والذات، تتجسد في الخروج من عالم منبوذ، يُمحى في ذاته، إلى عالم يمتلك فيه الكاتبُ حريته، والعالم الممحو هو أوروبا وفرنسا، فهذا العالم أصبح مقيدا للحرية، أمّا العالم الجديد فهو الذي "ينخط" في حياته، من خلال التجربة، وهو عالم يمنحه إمكانات التحرر واكتشاف الجمال.

تُبنى علاقة الانفصال مع الثقافة الغربية ومسلماتها، انطلاقا من تفاصيل التجربة التي عاشها جان جينيه في المخيمات الفلسطينية، ومن اللقاء بأناس بسطاء، يبحثون عن معنى للحياة، في نضالهم اليومي، يقول مصورا علاقته بالمرأة: "كان شيء ما ينبئني بأن وضعي ما كان لينسجم مع ما كنت أعرف عن الشرق: رجل وحيد يتوسط فريق نساء عربيات. كان كل شيء يعلن عن هذا الشرق الذي سأراه بالمقلوب، لأن هؤلاء النساء خلا ثلاث منهنّ، كنّ متزوجات..."[11]. إنّ الصورة التي تقدمها الثقافة الأوروبية عن المرأة الشرقية، والأحكام المسبقة عنها التي تجعلها ضمن ما يسمى عادة "الحريم"، صورة مغلوطة عن الشرق، حسب جينيه، وهي مقدمة أساس، ستدفعه إلى إعادة مراجعة هذه الصورة النمطية من خلال تجربته الشخصية، وتتكرر هذه الصورة الإيجابية عن المرأة في الكتاب كله، سواء في مستوى وصف تحررها، أم في مستوى الحكي عن تضحياتها وانخراطها في المقاومة. يتخذ السردُ التجربةَ منطلقا للشهادة، ويستقرئ العالم، بناء على ما شاهده الكاتب، وما عاشه من تجارب، لا على ما كرّسته الثقافة الغربية في ذهن المخاطب عن الشرق خصوصا، وعن الآخر عموما.

4 -"أسير عاشق": مذكرات شاعر على "الأزمنة الرديئة"

يقول جان جينيه: "لنتوقف قليلا عند الحقيقة

المعروفة في أن الذاكرة ليست بالشيء الموثوق منه. تعدل، لا عن مكر، الأحداث وتنسى التواريخ وتفرض ترتيبها الزمني الخاص، وتتناسى أو تحول الحاضر الذي يكتب أو يسرد. تفخّم ما كان عاديا: فأكثر إمتاعا لكل واحد أن يكون شاهدا على أحداث نادرة لم يتحدث عنها أحد من قبلُ. من عرف واقعة فريدة، فذّة، نال حصّته من هذه الفرادة الاستثنائية. من هنا رغبة كل كاتب مذكرات في البقاء وفيا لخياره الأول... يريد كاتب المذكرات أن يعبّر عما لم يره أحد... وإننا لمحظوظين، ومن مصلحتنا أن نوهم بأن رحلة الأمس تستحق عناء ما نكتبه الليلة... إنّ كاتب المذكرات يطمح إلى أن يكون مغني ذاته، من دون أن يعترف لنفسه بذلك إلا لماما... أكان هوميروس سيكتب الإلياذة لولا غضب أخيل؟ أكنا سنعرف غضب أخيل لولا هوميروس؟ ولو أنّ شاعرا رديئا غنّى أخيل، فما كان ياترى سيعرف عن هذه الحياة المجيدة والقصيرة..."[12].

يرسم جان جينيه صورة للكاتب الحقيقي، الذي يمنح للوجود حقيقته، انطلاقا من التجربة التي عاشها؛ فهو ليس كاتب صالونات، وليس صحفيا ينقل ما شاهده، ولكنه يعيد صياغة التجربة ببث روح الشاعر فيها، وهي صورة تنسجم مع التصور الإنساني للشاعر، بوصفه المبدع القادر على الإحساس بالجمال، والتعبير عنه. إن كتابة جينيه كتابة ذاكرة، وقيمة ما يكتبه يقترن اقترانا وثيقا بالتجربة التي عاشها بالفعل، غير أن الكاتب يقيد قيمة التجربة في علاقتها بالذاكرة؛ فالذاكرة ليست بريئة؛ بل هي تمحو، وتنتقي، وتعدّل... وهذا ما يجعل منها أداة من أدوات غنائية الذات، وشعريتها. يقدم جان جينيه مثالا لعلاقة الشاعر بالتجربة، باستحضار العلاقة بين "هوميروس" و"أخيل"، يمثل الأول نموذجا للشاعر، والثاني نموذجا للبطل في الذاكرة الإنسانية، ويتساءل عن قيمة الشاعر والبطل في بناء المخيلة الإنسانية، ويصل إلى أنهما لا ينفصلان، فلكي يكون هناك شعراء، يجب أن يكون هناك أبطال في التاريخ، ولكي يكون هناك أبطال في التاريخ، يجب أن يكون هناك شعراء أفذاذ. إن صورة هوميروس وأخيل، صورة منتقاة بدّقة للتعبير عن علاقة الذات بالتجربة، وهي، في المطاف الأخير، صورة جينيه الذي ربط بين كتابته وشعريته، وبين البطولة المتجسدة في المقاومة والجمال.

لا ينفصل تصور جان جينيه عن الذاكرة عن تصوره للشهادة، وهو تصور يقرن بين الشهادة، بوصفها فعلا تاريخيا، وبين البعد الإيتيقي لها؛ فالشهادة، عند الكاتب، تقترن بالتحرر من القيود الإيديولوجية والسياسية، وهذا التحرر يعبر عنه جنيه في مستويات متعددة:

أ-تحرر الذات:

يقول جنيه: "... اعتبارا من أواسط 1983، صرت حرا بما فيه الكفاية للبدء بتحرير ذكرياتي التي يَنبغي أن تقرأ كتحقيق صحفي (روبورتاج)[13].

يتضمّن هذا المقطع، الوارد في نهاية الكتاب، تَوجيهين للقارئ؛ التوجيه الأول، يؤكد على مطلب أساس، ناضلت من أجله الذات طيلة حياتها، وهو التحرر، ونعتقد أن المسافة الزمنية التي تفصل بين التجربة وكتابتها، جعلت الكاتب متحررا من الراهن، لأنه يقيد حريته، أمّا التوجيه الثاني، فيعيد التأكيد على بعد مهم في الكتاب، وهو كيف يمكن

أن يُقرأ؟ وهذا التوجيه يعزز قيمة الذات، لأنها كانت شاهدا حاضرا في الأحداث، وجزءا منها، وهو ما يحيل عليه "التحقيق الصحفي" الذي يتسم بالتحري والدّقة في الوصف، والموضوعية التي تسعى الذات إلى الاتصاف بها، في علاقتها بالأحداث التي كانت شاهدة عليها؛ وهذا يكشف على تحرر الذات من الحدث، من جهة، وتحررها من العاطفة التي قد تكون نتيجة الانفعال العاطفي اللحظي، من جهة أخرى.

ب-التحرر من الآخر:

يقول جان جينيه: "كلمات الشاهد الأولى، بعد اسمه وعمره، هي التالية تقريبا: "أقسم بأن أقول الحقيقة كل الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة". وأنا قبل أن أشرع بكتابة هذا الكتاب، أقسمت بأن أقول فيه الحقيقة؛ ولم يكن ذلك في شعيرة ما، بل في كل مرة يطلب فيها فلسطيني أن يقرأ بداية الكتاب أو بعض مقاطعه، أو نشرها في مجلة أو أخرى، كنت أبذل ما في وسعي للصمود أمام طلبه. لا يمثل الشاهد، قضائيا، لا الرجل الذي يعارض القضاة ولا هذا الذي يخدمهم. وهو يكون بحسب القضاء الفرنسي قد أقسم بأن يقول الحقيقة، لا بأن يقولها القضاة.... إن الشاهد لوحيد... وهو لا يرد على السؤال الضمني "كيف" فحسب، وإنما ليري الآخرين "لمَ" هذا "الكيف"، وليسلط عليها إضاءة تنعت أحيانا بالفنية. ولأن القضاة لا يكونون أبدا في الأماكن التي يقام فيها بالأفعال التي يحكمون عليها، فالشاهد لا غنى عنه، ولكنه يعلم أن صدقية الوصف لن تعني شيئا لأي شخص، ولا للقضاة، إذا لم يضف هو عليها الظلال والأضواء التي كان هو الوحيد الذي ميّزها. يقدر القضاة أن ينعتوه بالثمين، وإنه لكذلك"[14].

يقدم جان جينيه تصوره للشهادة، منطلقا من الثقافة الغربية نفسها، وهو تعبير عن علاقة النقد، واتخاذ المسافة. فمن أسس الشهادة قول الحقيقة. غير أن تصور الحقيقة، حتى في تقاليد القضاء الفرنسي، قيمة إنسانية، تكشف عن التفاصيل التي يمكنها أن تدفع الآخرين إلى الحكم، وهذا يعني أن الشاهد يقدم إضافة نوعية للحدث، عندما يجيب عن أسئلة ضمنية، تفترض في شهادته التفسير والإقناع، وهو ما يصفه جينيه بالإضاءة الفنية. الشاهد يضيف الأضواء والظلال، ومن هذا المنظور، فهو يصنع الشهادة، ليخدم الحقيقة. ولكي تصبح الشهادة مطلبا للحقيقة، يجب أن تتحرى التجرد، وهو ما يكشفه جينيه في علاقته، بموضوع الشهادة والفاعلين فيها، وهم الفلسطينيون. رفض الكاتب أن يطلعهم عن تفاصيل شهادته، لأنها ليست موجهة لهم، أو لخدمتهم، بل لخدمة الحقيقة التي تصنعها الذات، بالانفصال عن الآخر، مهما كان هذا الآخر.

يرسم جان جينيه إيتوس الحياد، برفض الشهادة تحت الطلب، أو الكتابة تحت الطلب، ويتضمن كتاب "أسير عاشق" مقاطع متعددة، تكشف عن هذا البعد من أبعاد شهادته، ومن أمثلة هذا، حواره مع ياسر عرفات، وهو أحد رموز المقاومة الفلسطينية، وقائدها الأبرز، يقول الكاتب:

"... التهذيب نفسه هو ما ميزت في صوت عرفات، عندما قال لي:

-ولم لا تضع (في الفلسطينين) كتابا؟

.... ما كنت معتقدا بمشروع هذا الكتاب – ولا أي كتاب- ولا بالمتيقن من الانتباه إلا لما

كنت أسمع وأرى..."[15].

يرفض جان جينيه طلب عرفات بالكتابة عن الفلسطينيين، على الرغم من أن هذا الطلب صادر عن سلطة فعلية ورمزية كبيرة، هي ياسر عرفات. وهذا الرفض تعبير عن الذات المتجردة، والمتحررة من الآخر؛ لأن الحقيقة، عندها، هي التجربة نفسها، أمّا الكتابة عنها، فلاحقة على ما كانت "تراه وتسمعه"...

تركز الكثير من الدراسات الحديثة على الإبدال الذي تحققه الشهادة، في مستوى ميثاق الكتابة؛ إذ انتقل هذا الميثاق مما يسميه فيليب لوجون في تنظيره للكتابة السير ذاتية "الميثاق السير ذاتي"، الذي تتطابق فيه ذات الكاتب المؤلف وذات الكاتب والسارد، إلى "ميثاق الشهادة". ففي ميثاق الشهادة، يعلن الشاهد، في مقدمة مذكراته أو شهادته، عن ميثاق أخلاقي، يلتزم بموجبه بقول الحقيقة، وتوخي الصدق، والتجرد من العوامل الذاتية والسياسية التي من شأنها أن تؤثر في نقل الحقيقة، وما يكتبه الشاهد عن أحداث الماضي التي كان طرفا فاعلا فيها. والملاحظ أن جان جينيه، يعي هذا البعد من أبعاد الشهادة، غير أنه يورد هذا الميثاق في آخر كتابه "أسير عاشق"، ولا يفصل هذا الميثاق عن تصوره للحقيقة التي تتحرّرُ من الواقع، ومن الذات والآخر، وهذه الحقيقة تظل ذاتية لأنها محكومة بسلطة الكتابة وأدواتها، ومن أهم هذه الأدوات الذاكرة.

ج-التحرر من الواقع

يقول جان جينيه: "لكن ماذا إذا كانت الكتابة كذبا حقا؟ وماذا إذا كانت عمل على إخفاء ما كان، إذ لا تمثل الشهادة أكثر من خداع بصري؟ حتى إذا كانت الكتابة تقول نقيض ما حدث، فهي لا تقدم منه سوى وجهه المرئي، المقبول، والأخرس إذا صحّ التعبير... كيف يمكن التعبير في الوقت نفسه عن المشاعر المتناقضة التي تصدر عن مختلف شهود تلك المشاهد؟ الأمر نفسه بالنسبة إلى جميع صفحات هذا الكتاب التي لا تتضمن سوى صوت منفرد. وكسائر الأصوات فإن صوتي مغشوش... هذه الجملة تطمح إلى حجب الكتاب، وكل جملة إلى حجب الجملة السابقة لها، فلا يبقى على الصفحة سوى خطإ: ما كان يحدث غالبا نوعا ما، وما لن أقدر أبدا على وصفه بحذق، وما أتوقف، بحذق أيضا، عن محاولة فهمه [16].

يتضمن، المقطع السابق الذكر، تأملا في جدلية التجربة والكتابة عنها، هل يستطيع الكاتب أن يكتب الواقع؟ لا تستطيع الكتابة، في نظر جينيه، أن تنقل الواقع، كما هو، فهي صوت منفرد، وعاجزة عن تصوير اللامرئي، إنها خداع وصوت مغشوش، لأنها تعيد تشكيل الواقع، فتلجأ إلى الحذف والحجب، ومن ثمّ، فمنطق الكتابة عن التجربة الذاتية، يتجاوز التحرر من الذات والآخر إلى التحرر من الواقع نفسه.

د-التحرر من الذاكرة

لا يمكن فصل الذاكرة الفردية عن الذاكرة الجماعية؛ وهي إمكانية من إمكانات إعادة تركيبها، أو ما يسميه يان أسمان "مونتاج الماضي"[17]؛ ويُقصدُ بهذا المفهوم، أنه ليس ثمة ماضٍ، يمكن الاحتفاظ به في ذاكرة ما بصورتهٍ كما هو؛ أي إن الماضي، حين نتذكره، لا نتذكره بصورته التي وقع بها؛ وإنما بما يبقى من الماضي في الذاكرة،

كما يقول هولبفاكس: "ما يستطيع المجتمع استعادته منه بأطره الرابطة الموجودة في كل فترة من الفترات (18). وتعمل الذاكرة، بطريقة استعادية وبنائية في الآن نفسه (إعادة مونتاج الماضي وبنائه). ولعل هذا ما دفع جان جينيه إلى تأمل الذاكرة، والتأكيد على أن ذاكرته ليست ذاكرة متعالية، ومحايدة؛ لأن الماضي لا يستطيع أن يظل ماضيا بالصورة نفسها التي وقع بها، فالماضي يُعاد تنظيمه بشكل دائم في الذاكرة، من قبل الأطر الرابطة المتغيرة والخاصة بالزمن الحاضر؛ ولهذا يقول جينيه: "عليّ، منذ الآن، أن أنبه القارئ إلى أن ذكرياتي دقيقة، فيما يتعلق بالوقائع والأحداث والتواريخ، غير أن المحادثات أعيد تركيبها... أعترف بأنني اسقت إلى الحقبة، ذلك أن الحوارات التي ستقرؤونها معاد تركيبها فعلا. آمل أن تكون أمينة، لكنني أعرف أنها لن يكون لها أبدا حذق حوار حقيقي... لا تحسبوا مع ذلك أنني لا أحترم الفدائيين: فلعلي قمت بكل ما في وسعي لاستعادة نبر الأصوات وتنويعاتها وكلمات الجمل... أنا أراهم في السن نفسها التي كان لهم ساعة الحدث المتذكر. أهي مزيّة لسني أم نتيجة بؤس لحياة بكاملها، إنني أراني من القفا، أنا الذي كنت مستندا بقفاي دائما إلى الحائط؟ (19)

5 -إبدال المثقف في الشهادة على "العجيبة الفلسطينية"

قبل أن نكشف عن موقف جان جينيه من "القضية الفلسطينية"، نتوقف على موقف الأوروبيين منها، ولاسيما المثقفين منهم؛ وذلك لأسباب متعددة، أهمها دور المثقف في التأثير في الرأي العام وصناعته، وكيف استطاع جان جنيه أن يبني حالة الاستثناء والتفرد، من بين هؤلاء المثقفين، انطلاقا من قناعاته الخاصة التي يعلنها صراحة في عنوان كتابه "أسير عاشق".

نستحضر، في هذا السياق، مقالا للمفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي، بعنوان "دموع سارتر(20)، ينتقد فيه موقف المثقفين الأوروبيين من القضية الفلسطينية، ويبرز فيه تناقضات المفكر جون بول سارتر في موقفه من إسرائيل، وهو "نموذج" "للمثقف الغربي"، الذي يحيد عن القيم الإنسانية، عندما يتعلق الأمر بالقضية الفلسطينية، وذلك نتيجة ما أسماه عبد الكبير الخطيبي "الوعي الشقي" الذي تولّد لديه، من جراء إحساسه بالذنب المترتب عن الإبادة النازية لليهود، يقول الخطيبي: "ليست دموع سارتر دموع متصوف...إنها بالأحرى دموع الوعي الشقي لفكر ممزق تشكل إبادة النازية خلفيته... إنها أفكار محافظة تجعل من شعب معين مركز العالم. فهو يرى أن وجود إسرائيل معطى تاريخيا لا يمكن الطعن فيه، وأن المشكل الذي ما زال معلقا هو وجود اللاجئين الفلسطينيين لا وجود الشعب الفلسطيني: إنه اختلاف أساس تسعى الصهيونية الوثوقية إلى حجبه وإغفاله. غير أن الصهيونية المشروطة، نظرا لعمائها المتولد عن الشعور بالذنب لا تدركه ولا تفهمه (21). ويسوق الخطيبي مجموعة من الأقوال للمثقف البارز والمؤثر سارتر، ومنها قوله: "ليس بيننا من ليس مذنبا بل ومجرما في هذه الظروف، فنحن المسؤولون عن هذا الدم اليهودي الذي أراقه النازيون"، وقوله أيضا: "لن يتمتع أي فرنسي بالحرية ما دام اليهود لا يتمتعون بكامل حقوقهم، ولن يخلد أي فرنسي إلى الأمن والطمأنينة ما

دام يهودي واحد في فرنسا أو خارجها أو في العالم أجمع لا يطمئن على حياته [22].

ينتقد الخطيبي موقف المثقف الغربي الذي وقع ضحية الدعاية الصهيونية التي "تعمل على إحياء ذكرى الخوف من إبادة الشعب اليهودي لكي تشعر الغرب بالذنب وتقضي على كل ما من شأنه أن يعوق مشاريعها التوسعية [23].

وينتقد عبد الكبير الخطيبي موقف سارتر من القضية الفلسطينية انتقادا لاذعا، إذ يقول: "لقد حادت الصهيونية بسارتر عن الطريق وجرته نحو سلمها الذي يمتزج بالشعور بالإثم والوعي الشقي، وقد كان سارتر، شأنه في ذلك شأن الرأي العام الغربي آنئذ يعميه الضلال واليأس: كان الغرب يريد أن يدفن جثته وينسى رعب النازية، وكان على الشعب الفلسطيني أن يؤدي ثمن هذا القرار الفظيع [24].

يُعيد جان جينيه النّظر في علاقة المثقف من القضية الفلسطينية، وينطلق، في إصدار هذا الموقف، من التجربة التي عاشها، عند زيارته للمخيمات في الأردن، هذه التجربة ستقوده إلى اتخاذ موقف، ينتصر لفلسطين، وقضيتها، يقول جونيه: "بالنسبة لي، أن تكون كلمة "فلسطينيون" موضوعة في العنوان، أو في صلب مقالة، أو على منشور سري، فإنها تستحضر في ذهني مباشرة الفدائيين في مكان معين هو: الأردن، وخلال فترة يمكن تحديدها بسهولة: أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر من العام 1970، ويناير، فبراير، مارس، أبريل 1971. ففي هذه الفترة، وفي ذلك المكان، عرفت الثورة الفلسطينية. إن الوضوح البديهي العجيب لما حدث، وقوة تلك السعادة المرافقة لوجودهم، يسميان أيضا: الجمال"[25].

يمكن التمييز بين مستويين في الأسباب التي دفعت جان جينيه إلى الإعجاب بالقضية الفلسطينية، والانتصار لها؛ المستوى الأول، يبدو موضوعيا، ويتمثّلُ في الوضوح الذي نجم عن لقائه المباشر بالفلسطينيين، والمستوى الثاني، ذاتي محض، يكمن في السعادة التي شعرت بها الذات عند حدوث هذا اللقاء. وهذان المستويان، يتفاعلان معا، لينتجا قيمة من القيم التي يتأسس عليها الفكر والوجود، وهي قيمة الإحساس بالجمال.

إنّ موقف جان جينيه ليس موقفا انفعاليا، يحكمه الشعور بالدّهشة؛ بل هو موقف نقدي، نابع من التجربة التي رآها، وعاشها، فجعلته، يعيد النظر في مسلمات الثقافة الغربية، وتدفعه هذ التجربة الحقيقية إلى اتهام الغرب بالمسؤولية عن تحويل الإنسان، بعد قرون من الدعوة إلى الحداثة والتنوير، إلى حياة الرحالة، وهو ما يظهر جليا في مخيمات اللاجئين الممتدة في مناطق مختلفة في العالم، ينعت جان جينيه هذا الوضع بأوصاف لاذعة، تحطّ من ادعاءات الثقافة الغربية، وتحملها المسؤولية عن مآسي العالم؛ فالمخيمات تمثل "فضلات الأمم" و"مياهها القذرة"، وهي نتيجة لصناعة البؤس في العالم، هذه الصناعة رآها الكاتب بأم عينيه، يقول: "ننظر اليوم، ربما كما قبل أربعة آلاف سنة أو أكثر، إلى شعوب كاملة، وهي تعاود الانغماس في حياة رحالة، لا بفعل اختيار...هذا ما نراه من كوة الطائرة، أو عندما نتفحص المجلات الباذخة التي يخلع ورقها الصقيل على المخيمات أمنا ظاهريا، في حين هي ليست سوى فضلات الأمم "الجالسة"، لأنها لم تعرف أن تصرف "مياهها القذرة"، فهي راحت وتركتها في

واد... ينبغي أن ننظر بارتياب إلى صور المخيمات تحت الشمس أو على أوراق المجلات المصقول. تكفي هبة ريح واحدة ليطير كل شيء، النسيج والصفائح، الزنك والفولاذ. فلقد شاهدتُ البؤس بأن عينيّ ذات يوم"[26].

6 -خاتمة: فرضيات جديدة لإعادة قراءة " أسير عاشق "

يصعب تصنيف كتاب "أسير عاشق" في خانة من خانات الكتابة عن الذات؛ إذ تحضر فيه تقنيات الكتابة المتنوعة التي تخترق أنوعا متعددة؛ كالشهادة، والسيرة الذاتية، والبورتريه، والتحقيق الصحفي.... ويمكن قراءة هذا الكتاب /الذاكرة، بوصفه عملا متعدد الأصوات؛ أي "بوليفونيا" بالمعنى الذي منحه الناقد الروسي ميخائيل باختين لهذه المفردة [27]. إن هذا التعدد، لا يلغي الذات، بل يمنحها مساحة أكبر لإعادة بناء صورتها في الخطاب، كما وضحنا ذلك في تحليلنا لمقاطع متعددة من الكتاب، وهو ما يجعلنا نفترض أنه يمكن قراءة هذا الكتاب/ الشهادة، بوصفه إعادة صياغة للعالم الذي يحيط بالكاتب ويقهره، فهو: "عمل لا يفرض فيه أسلوب الروائي والمسافر صوته وحده وأفكاره، بل يدعك، ومن هنا فرادة الكتاب وطبيعته الاستثنائية، ترى إلى مصائر الآخرين وتسمع أصواتهم، وذلك حتى في الإيماءة الخفية، ما لا يكاد يرى أحيانا، في الكلام المشوش، بل الصامت، ما لا يكاد يسمع والذي يظل مع ذلك يهدر بقوة [28].

وأخيرا، لا نستطيع أن نتجاهل، صورة الكاتب، التي يعيد بناءها استنادا إلى ذاكرته الحية، والناقدة، والتنويرية؛ إذ يمكن قراءة ذاكرة جنيه، بوصفها إشهارا للجنون في وجه العالم، الذي أصبح يشبه الصحراء، وهي آخر صيحات الذاكرة التي توازي هذا القول المكثف للناقد جون إيف تاديي، الذي يكيف فيه مسار علاقة الإنسان بالذاكرة، حين يقول: "الذّاكرة هي التي تصنع الإنسان؛ فهو يبدأ حياته مثل طفلٍ فروديّ، يبدو ظاهريا مصابا بالنسيان المرضي (الأمنيزيا)، كبت جراحاتِه كلّها في لا وعيه. ثم يكبر مثل يافع برغسونيّ: ذاكرته مقترنة بالفعل، ذاكرة عملية موجّهة نحو المستقبل؛ بوديريّا يستعيد الماضيَ في عطر وموسيقى بالاشتغال مشترك لحواسّه الخمس. وبتقدّمه في السّن يصير بروستيّا، وهي ذي ذاكرته تعيشُ حالاتِ وَجْدٍ لا شعوريّة، تجعله يعيش الماضي من جديد، ولربّما يفلت من قبضة الزّمن. ثم لا يلبثُ أن يشيخ على شاكلة شاتوبريان، لا تستطيع ذاكرته أن تواسيه، كان سوفوكليس قد بيّن له الطريق إلى كولونا، طريقَ السّلام الرّوحي بعد ماضٍ مشحون ودمويّ، لربّما تاه في ذاك الخلاء حيث صرخ الملك لير مُشْهِراً جنونه في كلّ اتجاه، هنا حيث لا ذاكرة لأحدٍ [29].

خبر جان جينيه جنون العالم الحديث، وليس غريبا أن تصنّف كتاباته إلى جانب الكتاب والمفكرين الذين دانوا عبث الحضارة الرأسمالية التي تصنع الموت، وتدمر قيم الإنسان، وتعيد العمران إلى خلاء وصحراء... ومقابل هذه الصورة المجنونة للعالم، يبني جينيه صورة "القديس والشهيد"... ونضيف الشاهد المجنون على الأزمنة الرديئة.

---

*إبراهيم العدراوي: باحث في البلاغة وتحليل الخطاب.

الهوامش:

(1) كاظم جهاد، مقدمة ترجمة كتاب «أسير عاشق»، ط1، القاهرة، دار الشرقيات للنشر والتوزيع، 1997، ص 7.
(2) Joëlle Gardes Tamine, La rhétorique, Éd, Armand Colin, Paris, P 163.
(3) Joëlle Gardes Tamine, La rhétorique, P 163.
(4) عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ط1 ، تونس، مسكلياني للنشر والتوزيع، 2011، ص 25.
(5) عبد الله صولة، المرجع نفسه، ص 25.
(6) Maingueneau Dominique, « Ethos, scénographie, incorporation », in Images de soi dans le discours – La construction de l'ethos, Ruth Amossy, éd Lausanne, Delachaux et Niestlé, 1999, p 75-100.
(7) Maingueneau Dominique, Le discours littéraire: Paratopie et scène d'énonciation, p 205. Armand Colin, 2014.
(8) Ibid, p 205
(9) أسير عاشق، ص 417.
(10) أسير عاشق، ص 14.
(11) أسير عاشق، ص 51.
(12) أسير عاشق، ص 49.
(13) أسير عاشق، ص 317-318.
(14) أسير عاشق، ص 38.
(15) يان أسمان الذاكرة الحضارية، ترجمة عبد الحليم عبد الغني رجب، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2003. ص70.
(16) Maurice Halbwachs. Les Cadres Sociaux de La Mémoire.P 390.
(17) أسير عاشق، ص 40.
(18) عبد الكبير الخطيبي، دموع سارتر، مجلة أوراق فلسفية، العدد 14، 2005.
(19) عبد الكبير الخطيبي، ص 47.
(20) عبد الكبير الخطيبي، ص 50-49.
(21) عبد الكبير الخطيبي، ص 50.
(22) عبد الكبير الخطيبي، ص 52.
(23) جان جينه، أربع ساعات في شاتيلا، ترجمة محمد برادة، مجلة الكرمل، العدد 7، 1983، ص 147.
(24) أسير العاشق، ص 22-21.
(25) كاظم جهاد، مقدمة اسير العاشق، ص7.
(26) كاظم جهاد، مقدمة أسير عاشق، ص7.
(27) Jean- Yves et Marc Tadié – Le sens de la mémoire, Folio Gallimard 1999. P 929-.

النقد الأدبي الحديث في العراق

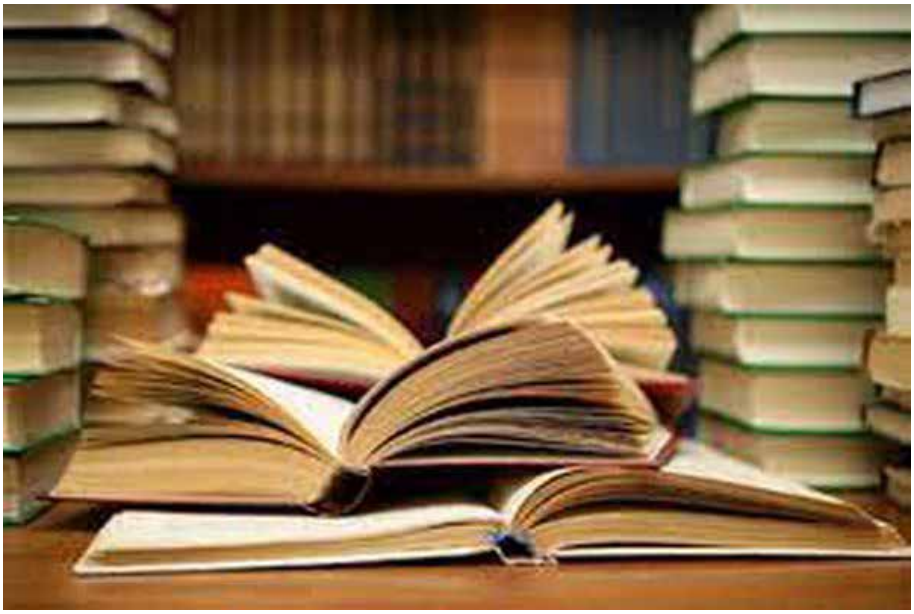

لان النقد بات مرافقاً اساسياً لاي نص ابداعي ، ولأن عدداً ممن يكتبون لا يراعون سوى تقديم الانطباعات التي يسودها الطابع الاخوي ،إرتأينا ان نقدم هذه الابحاث التي تتعلق بالشعر والرواية والقصة القصيرة، علّها تكون مؤشراً ينبه الى النقد المعمق والنوعي الرصين الذي ننشده.

جدلية الماء والنار

كيف نقرأ الشعر؟
قراءة في ضوء كتابي «الأب بالتبني» للشاعر أجود مجبل

ياسين النصير

المَعاطِش
وجهٌ مِنَ المِرآةِ
يَخرُجُ باحثًا عنّي
ولا أحَدٌ هُنا لِيَدُلَّهُ
فيعودُ مُختنِقًا بِبُوتوبيا الخُرافيينَ
والقُطعانُ تَمشي حَولَهُ
ما عادَ مَعنِيًّا بِما قالَ الرواةُ ،
فَقَطْ يُحاوِلُ أنْ يُطَمْئِنَ نَخلَهُ
جابَ المَعاطِشَ والحروبَ
وشاهدَ الأنهارَ وهيَ تموتُ حُزنًا قَبْلَهُ
ورأى لهُ في المِيثولوجيا
أصدقاءَ بِطَعمِ آلِهَةٍ أريقُوا مِثْلَهُ
يَتداوَلُونَ الليلَ فيما بينَهُم
والبَرقُ فيهِمْ لا يُغَيِّرُ شَكْلَهُ

1 -المقدمة: العنونة المركبة

إبتداءً من عنوان القصيدة ''المعاطش''، يموضع الشاعر أجود مجبل، القصيدة في جدلية الماء وظمأ الأرض، أي العلاقة بين الماء والنار. تعني ''المعاطش: مواقيت الظمأ، والأرضون التي لاماء بها''[1] ''قاموس العين''. ولايتم ظمأ الأرض إلا بالنار. وللوهلة الأولى يجسد عنوان القصيدة الصراع بين عنصرين من عناصر الطبيعة هما؛ الماء والنار. وعلى الرغم من عدم ذكر النار في العنوان، إلا أن وجودها يشكل ظاهرة كونية، وإذا كان الماء حاضرًا بفعل الظمأ، فثمة أشكال أخرى لحضور النار في القصيدة وباشكال مختلفة منها: الخرافة، اليوتوبيا، الحروب، القتل، الجفاف، وعطش النخيل... وعندما لا يكون ثمة ماء بفعل النار في حياتنا اليومية، تجف عجائن العلاقات الاجتماعية، العلاقات التي تشكل جوهر افعالنا ومصادر وجودنا. جدلية مركبة من عنصرين أساسيين، تمنح النَّص قوة دلائلية، الأولى: غياب عجائن الحياة اليومية، والثانية هيمنة قوى النار''الظمأ'' فـ ''العجين بنية من البنى

الأساسية للمادية، الحميمية "[2]. إن تعطيل عجائن الطبيعة بفعل النار/الظمأ، تعطيل للخيال المادي للأشياء أيضًا، وحين تكون البداية استدعاء للمرايا، للكشف، تتسع العلاقة لاحقًا بين الماء والتراب "الانثروبولوجيا"، بين الأرض وانتاجها "البايولوجيا"، بين الفعل والخرافة" الميثولوجيا" بين الأنا والأخر، "السوسيولوجيا"، وبين الإنسان والسماء،"الأديان والأسطورة". وهكذا، لايبدأ العنوان إلا من الطبيعة، مشكلًا موضوعًا يشمل جدل الطبيعة وجدل المجتمع. هذا بالمجمل ما يحدث عندما يشكل الظمأ أديولوجيا العلاقة المشوهة بين الأرض(البشر) والسماء (الآلهة). وفي أوّل سطر يضعنا الشاعر في حمأة الصراعات المادية والروحية للطبيعة، وقد تلبست خيالات شعرية؛ "الآخر والمرايا". لا يبدأ الشعر الحديث من الذات ومشكلاتها الآنية، ولا من التجارب الخاصة،ولا من اية أغراض، بل يبدأ من الطبيعة في صيغة الخطاب مع الآخر المختبئ في مراياها، أي مما تفعله العناصر بعضها ببعض، ثم يتحرر الخطاب منها، ليشمل قضايا الإنسان والكائنات الحية. هذه الجدلية المعولمة تستبطنها الشعرية الحديثة متخلية عن أنا الشاعر، وعن ذاته، وعواطفه ورغباته ومواقفه، وعن تاريخة، وسيرته الذاتية. وتذهب إلى "الموضوع" الذي يعبّر عن علاقة الإنسان مع الطبيعة، حينئذ تجد صورة أخرى لشعرية العناصر، وقد استوعب مشكلات حياتنا اليومية أيضًا. فالمعاطش أفعال الجدب، وفي الوقت نفسه إشارة لتخلي قوى السماء عن الأرض. لذا تكون الشعرية سؤال في الوجود، وليست حكايات عن الوجود.

2 -الاستهلال

تبدأ القصيدة باستهلال غامض، مبهم، غرائبي، فنتازي، ومجهول. وهو من أفضل الاستهلالات التي تتشكّل منها المخيلة الشعرية الحديثة:

وجهٌ مِنَ المِرآةِ
يَخرُجُ باحثًا عنّي.

استهلال حركي، سريالي، سيمضي معنا هذا "الوجه" في تضاعيف القصيدة المكثفة، مغيرًا من مسارها وراسمًا خارطة طريق لصورها، هكذا يكون الاستهلال "ما من شيء يحدث في النَّص إلا وله نواة في الاستهلال"[3]. صيغة للبحث عن المبني للمجهول "الماء"، فيظهر في صورٍ عديدة: تارة إشارة سرابية هنا، أو برقًا هناك، أو ضميرًا لحائك الكلام، ثم يختفي ليسمى في أخر القصيدة كـ" أحد أصدقاء الآلهة". فالآخر صورة للماء ساعيًا لتحطيم اسطورة النار. لذلك لا تقف القصيدة عند عتبات استهلال المعاطش الطبيعة فقط، بل تذهب لاستحضار التناقضات والتعارضات الاجتماعية، التي تولدها العلاقة بين الماء والنار، التراب والهواء، الواقع والميثولوجيا، الإنسان والآلهة. دون الماء، الذي، كما تقول الخيمياء يسود الاعوجاج حياتنا، فالماء ثقافة"يعدل العناصر الأخرى"[4]. ودون الماء لا تُخلق عجينة الحياة كما يشير نيتشة وباشلار. أن سيطرة النار"المعاطش" يعني غياب لروح العجائن الحميمية: غياب الصناعة، الزراعة، الأسرة، الطبخ، القوت، التبادل، الاتصالات، السوق، البضاعة، التجارة، العلوم، الثقافة، الأسرة.. إلخ. هذا الغياب الشامل يشكل جوهر تناقضات النار والماء، فالحرارة ديمومة الحركة. هكذا

تحدث فاوست غوته عن دور الأمواج في تحديث ألمانيا القرن التاسع عشر.. فالمرايا التي تعد مخزنا لأحداث الأزمنة ، تتكفل بأن ترينا وجها آخر للراوي، وقد اختنق بيوتوبيا الخرافة، حين قلبت الخرافة الحقائق إلى أوهام، وصلوات استسقاء، وتعازٍ. إن البحث عن أسباب المعاطش، لا تكمنُ في ظاهرة شح الماء فقط، بل، في شح البعد الاجتماعي والاقتصادي والنفسي والسياسي، وهو ما يجعل الظمأ فعلًا سياسيًا، وحين تتحول الحياة إلى كتلة نارية وأسلحة فكرية، وأحلام عن يوتوبيا الخرافة الميتة، تكون ثقافة الغاب قد هيمنت. هذه ميزة شعرية الحداثة، تنطلق أوّلًا من الطبيعة، ثم تتحرر منها بفعل العلاقات الاجتماعية والدينامية؛ لتشمل النفس والاقتصاد والفلسفة والعلوم، إلخ، ثم ترسم صورة جدلية لمستقبل العلاقة بين عناصر الأرض، والإنسان. هذه الجدلية العجائنية للشعرية متأصلة في مكونات العلاقة مع الطبيعة؛ وواحدة من المهيمنات الفكرية الكبرى للحداثة وهي تنتقل من الإيقاع التنظيمي إلى التبادل المعرفي. فالمعاطش شكل من أشكال قوى الشر، كل الحكايات تبدأ من السلب،(انعدام الماء) من تلك النقطة التي تصل الحال فيها إلى الموت، في هذا المفصل الاستهلالي يولد التناقض، الشعرية ليست كتابة قصائد حديثة عن تحولات الإنسان في الطبيعة، أو تحولات الطبيعة في الإنسان، إنمّا هي طريقة للبحث عن الكيفية التي يكون الإنسان فيها مندمجًا مع عناصره الطبيعية، فأول الفكرة البنائية للشعرية الحديثة أن يكون استهلالها غامضًا، غريبًا، وعصيًا على التشكل بهيئة معلنة، انه الآخر؛ الطيف، والنبوءة، والخاطر.: ”وجهة يخرج من المرآة“ والمرأة تكوين وسطي، يجمع بين الأشكال عبر الأزمنة، وكأنها مدونة لا يمكن تقليب صفحاتها إلا بالنار، كي يكون قصديرها عاكسًا.- هكذا يحدثنا الروائي عبد الخالق الركابي في روايته ”ما لم تمسسه النار“، عن الشعرية الباحثة في الأوراق غير المحترقة، في تلك البقايا التي تشكل مرآة مجلوّة مفتتة وممزقة، لا استقرار في الرؤية الواقعية للأشياء، فالرؤية المتصالحة ليست شعرية، عندما يستعيد الشاعر دور الطبيعة التقليدي، يستعيد في الوقت نفسه أفعال العناصر القديمة فيها، شواخص للذاكرة، كيانات تتحرك عكس اتجاهاتها، زلازل،براكين،عواصف،أ مطار، خرافات، يوتوبيات، حروب، أوبئة ، تأملات ذاتية.

جابَ المَعاطِشَ والحروبَ
وشاهدَ الأنهارَ وهيَ تموتُ حُزنًا قَبْلَهُ.

3 -البؤرة المولدة

فبعد التحليق في يوتوبيا المرايا والبحث عن الآخر، نجد أ ”بؤرة الشعرية “، في القصيدة هي المرآة، بؤرة رحمية تكمن فيها عجائن الحياة اليومية: غرينًا طينيًا مختمرًا، نورأ صناعيًا، ماءً يرينا انعكاس الأشياء، ونارًا تلحم العناصر، المرآة البؤرة طميّ الكائنات المختفية. ولا أحد يسأل من أين أتت المرآة؟ فهي ليست كيانًا اجتماعيًا يمكن صناعته، ولا هي بضاعة تشترى، إنمّا هي محمول لصور الطبيعة، تختزن مآسي الرافدين، هي ذلك التكوين الرحمي الذي اختلطت فيه كل العناصر، فكونت“المعاطش“ البؤرة التي ستولد كما يقول ريفاتير“سلسلة من المتغيرات المتزايدة الطول والتي تؤثر تدريجيًا في الخيال البصري“[5].

ورأى لهُ في المِيثولوجيا
أصدقاءَ بِطَعمِ آلِهَةٍ أرِيقُوا مِثْلَهُ.

عندئذ نكون قد فتحنا الرؤية النقدية على "العجائن" والعجين على وفق رؤية باشلار، يمتلك طاقة الحضور والتشكل؛ أما بفعل اليد، (النحات)، أو بفعل العناصر الطبيعية (التشكيلات الطبيعية للرموز) أو بفعل الصور(الشاعر). لذا تكون المرآة مخزنا لحال الاجتماعية التي تخزن خمائر الأزمنة والأمكنة ليخرج "المنتظر"،"كلكامش"، "عوليس"، "اليعازر"أو "غودو". فهؤلاء لا يحضرون إلا عندما يجف الضرع، وتسود النار. ويموت نصف العالم، هذا شأن "المرآة" التي ستكون محتفظة بميثولوجيا الأفول، تلك التي خربت "الأشكال الباطنية (للعناصر)، تمهيدًا لقبول أشكال خارجية "كما يقول أفلاطون[6]. وتلك التي ولدت واستقرت أو تلك التي ستولد لاحقًا. فـ"الأكثر تعقيدًا ينشأ من الأكثر بساطة"[7].

لا تحتاج البؤرة الرحمية للقصيدة إلى ضوء، ضوئها في ظلمتها، وهذا شأن الشعرية كطريقة تهب الحياة "للفرص التي لم تتحقق "، أي الكشف عن النور الكامن في الظلام. ونجدها هنا ليست مرآة قصدير كما يتوهم القارئ، إنّما هي مرآة كهفية، بنية رحمية، و بئر زمني، و كوة في مغارة ،اوكهف أفلاطوني، أو تلك البداية قبل أن يستوي العالم على نور. وللوهلة الأولى نتبين أن هذه المرآة هي الأرض، هي الطبيعة وموضوع التوليد والانجاب. فالأمومية للمرآة البؤرية هي شعرية القصيدة.

ليست المعطاش التي تكشفها المرآة البؤرة خلو الأرض من الماء فقط، إنمّا هي، ما يحدثه غياب العجين وافعال اليد كما يشير باشلار إلى ذلك، من تعطيل أو كما يريد نيتشه، حين يتحدث عن بوذا ذي المليون يد. يتحدث باشلار في شاعرية أحلام اليقطة ان علينا "استرداد الخرافي، ويجب ان نساهم في وجوده"[8] فهو ليس قرين مرحلة دون أخرى، ها هو يعيش بيننا وقد تسلح بالخرافة المعاصرة، ففي الأشياء ثمة ما لايدرك كنهه، وهو ان الكتابة ليست إلا تراتيل أوهام[9].

قطعانُ تَمشي...
ما عادَ مَعنِيًا بِما قالَ الرواةُ
فَقَطْ يُحاوِلُ أنْ يُطَمْئِنَ نَخلَهُ"

4 -الأب الموضوعي الطبيعي، للمعاطش.

لكل نص، مهما كان نوعه، ثلاثة آباء:
الاب الموضوعي الطبيعي.
الأب الموضوعي الدينامي.
الأب الموضوعي،الموضوعي:الأب بالتبني.

لا يشترط الشكل الحياتي للوجود أن يكون متعلقًا بالإنسان وحده، أو بأشيائه اليومية او بقضاياه، بل، يتعلق بمن يماثله، وبمن يجعل منه امتدادًا له، ولذلك، مهيمنات طبيعة الشكل فله ما يماثله، ليس في السماء كما تدعي المثالية الأفلاطونية، إنما في التشكيلات الحياتية. فالأب الموضوعي للقصيدة. هو الأرض- الأنثى في جدبها وفي اخصابها، في أنثويتها وفي خنثويتها، وهو الموضوع الطبيعي الذي يباشرنا يوميًا، كعلاقة الأشياء بالماء،والنار،والهواء، والتراب، " وخلقنا من الماء كل شيء حي"، فالشكل الفني للشعرية لا يبنى مسبقًا، بل يتشكل من خلال أفعال العناصر الطبيعية. والقصيدة التي تتحدث عن الجدب، عن الجفاف، عن علاقة الروحي المشوهة بالمادي، عن موضوع الظمأ الكوني، عن الميثولوجيا، عن موت

الذاكرة والتربة والأشجار، وعن شح المطر والينبوع، وعن مفاوز استجلبت الحروب. عن السماء بلا مطر، وأنهار الأعماق اليابسة، وعن الحروب التي أتت على أخضر العراق، والموت للأحياء وعطش النخل، كل هذه الأشكال حالات اختلال العلاقة بين الأرض والسماء، بين (الأسفل والأعلى/ الآلهة والبشر)كما هو اختلال للتوازن بين الأرض وأعماقها، (الحياتي والمقدس/ الحاضروالماضي) وعبثًا تكون صلاة الاستسقاء حلًا للظمأ. وعندما يكون الموضوع الطبيعي بهذا الجفاف الكوني؛ تتعطل الحياة: لا زراعة، ولاصناعة، ولا اجتماع، ولا حب، ولا ألعاب، ولا قوت ولا أمان، وإذا ما تغلغلنا في طاهرة أفول الماء، نجد أننا أمام ظاهرة كونية كبرى؛ قد تؤدي إلى انعدام الحياة على كوكب الأرض، فالمعاطش ليس فعلًا أحاديًا، ولا مفردة قاموسية، بل هي معادلات رياضية كونية، أبدًا ولن تكون عقوبة سماوية للبشر، بل هي تعطيل لأنثوية الأرض . أن الأب الموضوعي للقصيدة، الذي هو الطبيعة، ليس أبًا مؤقتًا أو ظرفيًا، بل هو قِدرُ عجينة الحياة اليومية، ومطبخها.

وإذا اضفنا لموضوع "العطش" الطبيعي، تاريخ تقلبات مناخ الأرض، ومرورها بعصور حجرية، وجليدية، وبرونزية، وحديدية، وترابية، إلخ، نجد أن العطش يرافق مسيرتها، وإذا ما أضفنا ما يحكى عن علاقة كوكب الأرض بحركة الشمس وتـاثيرات هذه الحركة على المناخ، وغياب الضوء والحرارة، نجد أنفسنا أمام مجلدات من المدونات الروحية والمادية التي تتحدث عن هذه العلاقة، التي تزخر الكتب والعلوم بها. هذه الأبوة الطبيعية للنار/العطش، تلقي بأبنائها للحياة دون ان ترفقهم بأي غطاء، ولكن من خلال التفاعل الأجتماعي والروحي والعلمي يوّلد الإنسان آلية السيطرة على الطبيعة، عندئذ تكون القصيدة قد اكتشفت طريقًا آخر للعلاقة مع الطبيعة غيرالميتافيزيقيا وافعال الأقدار المبهمة التي تسكن الرياح والزلازل والأمطار والأوبئة والحروب. فللطبيعة مؤسساتها الخيالية التي تؤكد دورها. سيبقى العنصر الميثولوجي مرتبطًا بإفعال الطبيعة وهي تنتقل من الميتافيزيقا إلى العلم التجريبي، وقد واكبت الفلسفة هذا التحول، ورصدها التراجيديا واعمال الفن، ولذلك تعد الطبيعية أبوةً شاملة لكل الأفعال، بما فيها خيالات الشعراء والامراء والملوك والسحرة.

على المستوى الشعري تمهد الأبوة الطبيعية للموضوع مجالًا للتغلغل في المجهول، خاصة إذا كان موضوعًا كونيًا، وهو ما تحقق في الكوميديا الإلهية، لدانتي، وفي قصص وحكايات اج جي ويلز، ومن قبل في الفردوس المفقود، لملتون،وفي جمهورية افلاطون، وفي رسالة الغفران لابي العلاء المعري، و في كليلة ودمنة لابن المقفع،والف ليلة وليلة. وإلى اليوم لايكون تفكير بالموضوع دون استحضار جذوره الميثولوجية. إلا أن المشكل الأساس أن هذه الابوة الطبيعية لا تعطي القصيدة شكلًا خاصًا بها أول الأمر، بل تدمج الشعرية في سياقات ميثولوجية واسطورية وحياتية، مكونة عجينة الاختلاطات الشكلية، حيث يضيع فيها الشكل المحدد على حساب المحتوى الكوني. فلا تسمة الكوميديا الإلهية ولا رسالة الغفران ولا الفردوس المفقد ولا

رخلات اج جي ويلز، قصصا او تلاجيديا او ملاحم او اشعار، فالأبوة الطبيعية للشعرية يبعد عنها أي انتماء لشكل محدد.

5 - الأب الموضوعي الدينامي

فلم يعد العطش بنية قائمة بذاتها، حين أصبح للفعل الإنسان دور في السيطرة على الطبيعة، وهو ما اتسمت به العلوم وأفكار التنوير والحداثة والثقافة. لتشكل أبوة ثانية لموضوع الماء والنار؛ وهو الموضوع الدينامي، فنجد ''المعطاش'' يتحول من اللغة إلى الأداة، ومن الفعل المجرد إلى الفعل المادي، ومن الأفكار إلى الممارسة،وهذه الأبوة الفعلية التي ستحول القصيدة إلى أسئلة وبحث، وأول ما يشّد عصبها هو البحث في جدوى الميثولوجيا والمدونات القديمة في حياتنا اليومية، ثم يصار البحث لاحقًا في عجائن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية. هذه الدينامية وحدها تنقل القصيدة من الأبوة الطبيعية الإيجابية، إلى الابوة الدينامية السلبية، من الأبوة الصيانية إلى الأبوة التدمير، من التجريد إلى المعرفة، من المشاعية إلى ابوة العمل والتجربة والعلاقات والإنتاج المادي والفلسفي. ومن هنا تبدأ الشعرية باتساع ميدانها عندما تجد نفسها في أفق المعرفة الإنسانية وليس في تلك التصورات الميتافيزيقية للوعي. ومع هذا التحول الجذري في اللاوعي المعرفي للثقافة لن يكون السطح اليومي الاجتماعي للصور الشعرية- قادرًا أن يمنح الشاعر أفقًا جديدًا للمعرفة، فسطح الحياة اليومي عرضة للاختراق. والشعرية جزء من علاقة الذات بالموضوع . ''فالذات عند ماركس مثلا هي الإنسان الاجتماعي، او الفرد في صلاته الحقيقية والطبقات والمجتمع إجمالًا، و''الموضوع'' هو جملة الأشياء المحسوسة والمنتجات والأعمال بما فيها التقنيات والاديولوجيات والمؤسسات والمؤلفات الفنية والثقافية، ثمة علاقة مزدوجة بين الإنسان وما ينشأ عنه من أعمال، فما من فعالية بغير موضوع تعطيه شكلًا،''[10] تلك التي تضع الخيال في متناول اللغة..فصناعة مخيلة مادية لتغذية النخل والحيوان والإنسان، وتديم الهيمنة البشرية على الطبيعة، تتطلب السيطرة على طرائق الوعي الاجتماعي ممتزجًا بالرغبات الذاتية،''أن اللاوعي الأكثر عمقًا هو في حقيقة أمرة خنثوي''[11]، فالأرض وأفعالها، الأرض وما يفعل بها، تنتج تكوينات خنثوية، وهو ما يولد دينامية متفاعلة، فالجنس الأحادي صياني، بينما الجنس الخنثوي، تدميري. فعندما تلد الطبيعة وتنضّج الثمار بذاتها، تكون قد وِلِدت. هكذا يكون وضع مخيلة الماء في حضوره وفي غيابه. شعرية لطبيعة حجرية يحولها إلى طبيعة عجائنية. وعندما لا نجد حلًا لمشكلاتنا، لا نركن ذاكرتنا إلى الميثولوجيا والتراث، بل إلى المادة السلب، في أحلام اليقظة الشعرية، في العلم والتجربة. إن معاودة الحياة ليست أن نتنفس ونحن نيام، إنمّا، هي الوقوف الدائم الذي يوصل إنسان الأرض بألهة السماء، هكذا تنشط المخيلة الدينامية للقصيدة.

ما عادَ مَعنِيًّا بِما قالَ الرواةُ ،
فَقَطْ يُحاوِلُ أنْ يُطَمْئِنَ نَخلَهُ

إن عودة القصيدة لميثولوجيا الحياة اليومية ، خطوة في تأكيد الكلام الشفاهي، وهو ما تبدأ به القصيدة بعد استهلالها، ورأى لهُ في المِيثولوجيا

أصدقاءَ بِطَعمِ آلِهَةٍ أرِيقُوا مِثْلَهُ". هذه العودة تحول الشعريَة من الابوة الطبيعية الساكنة التي كان
مُختنِقًا بِيُوتوبيا الخُرافيينَ،
والقُطعانُ تَمشي حَولَهُ،
ليست الدينامية روحية بحت ولا مادية بحث ، إنمّا هي مزيج ثقافي حسب ما يفكر الناس به. فالروحي يعيدنا إلى علاقة الإنسان مع الآلهة، تراجيديا "المعطاش" أي القدرية الطبيعية، بينما تعيدنا تطورات المادة الطبيعية في دورانها ابتداءً من الفلسفة الميلينية إلى غاليلو ونيوتن، إلى كيفية السيطرة على الطبيعة، فالمتغيرات الطبيعية بنية تدميرية، التي هي عبارة عن معلومات وخرائط وتصورات وتخيلات لا يمكن احصاؤها تؤكد بمجموعها رحلة" النار" الكونية ونزولها من السماء إلى الأرض، ثم دخولها في ميادين الإنتاج والعمل والتفكير، وجعلها تكوينًا علميًا منتجًا للصناعة والفلاحة والحروب، في هذه المرحلة، مرحلة التنوير، بدأت الشعرية تتحرر من هيمنة أشكال الأبوة الطبيعة لموضوع "العطش" لتتحول إلى أشكال الأبوة الدينامية أي البحث عن افق إنساني للشعرية .تستحث الشعرية الحديثة على الثورة، خاصة عندما تتحرر صورها من الميتافيزيقيا.

ماذا يريد الشاعر بعد أن يخلق تكوينًا غائرًا في الواقعية والمثيولوجيا، ويجعل منه عجينة بيد خبّاز ماهر يمزج فيها بين فعل اليد وفعل الرؤيا، هذه القصيدة استثناء في قراءاتي للشعر، كثافتها المركزة واحدة من اختصارات الزمن، وقوله في الواقعية والمثيولوجيا تجعلنا نؤمن أن أي فعل لايمكن أن يستغني عن طفولة الطبيعة والحلم. فالدينامية هي النقلة التجريبية للحداثة الشعرية.

6 - الموضوع الموضوعي: الأب بالتبني

نصل إلى نهاية بحثنا عن الأبوة التي تتبنى الشعرية، وتصيّرها كيانًا معرفيًا يرتبط بمفردات حياتنا اليومية، بالرغم من أن الشعرية لا تمت بأي صلة للمنفعة الذاتية، أو لأي غرض توَظّف له، الشعرية فن خالص مادته أفعال الإنسان من أجل جمالية مطلقة. والبداية كانت باستدعاء (أنا المرايا)، ليحولها الشاعر إلى الأرض المرايا، السماء المرايا، الأزمنة المرايا، الدين المرايا، اليوتوبيا المرايا، أي يجعل مكونات الطبيعة تحت رؤية الإنسان. ثم يتكشف أكثر عن دور الموضوع الكوني، ذلك الذي كان مدفونًا في ثلج الأرض وبرونزيتها وحديدها وخيميائيتها وطبيعيتها، أو ذلك الذي كان شيئًا أو صورة، ثم تحول إلى تكوين معرفي يقرأ عبر الفلسفة والعلم. فالعلاقة بين الأرض وإنسانها لا تقاس بمفردات الحياة اليومية على السطح فقط؛ وهو ما يعني ظاهراتية الأشياء؛ بل تقاس بالأفعال المركبة من تكوينات مادية وروحية؛ من الماء والنار، مولدة عجينة كونية، وها هي المرايا تَستحضر وجه الشاعر "الشاهد"، المختنق في خبايا التاريخ.

وشاهدَ الأنهارَ وهيَ تموتُ حُزنًا قَبْلَهُ.

في هذه اللحظة المفارقة، ينكشف الكائن البشري كقارئ يحرك الأشياء الساكنة، ويدعو لعدم التصالح معها، بل التخاصم والكشف، "فلم يعد الأمر يتعلق بالإنحياز للأشياء، بل بمخاصمة الأشياء، في جدلية

البؤس والغضب، ضد بؤس (المعاطش) ينهض الغضب المحرر [12].

عديدة هي قراءات القارئ الذي سيتبنى جدلية النماء والتغيير، وعديدة هي القصائد المتمردة على القراءات الجامدة، قراءات القواعد والنظم، ومن يقولب القراءة ضمن منهجية ثابتة كمن يخلّف ذرية متطابقة، وهذا ما يخالف طرائق التغيير، ما يمكن اعتماده في القراءات الجديدة للشعرية هو تعدد ألسنة القراء، هؤلاء الذين قلبّوا التوازي على مدى عصور، ولم يستقروا على طريق واحد في الرؤية، لذلك تتطلب الشعرية منهجًا يتبنى طروحاتها الجديدة، ولن يكون هذا الأب غير القارئ، الذي يؤول صور القصيدة وأبعادها، الذي يلغي الفاصل بين الطروحات العلمية والطروحات الاجتماعية، هذا القارئ هو الأب بالتبني الذي يلجأ إليه الشاعر ليؤول مشروعه، وينشر ثقافته، ويعمم رؤيته. دون القراءة التي تتبنى التأويل، تبقى القصيدة ناقصة، فلا مناص من أن نعتمد هذه الموضوعاتية اطارًا عامًا غير فضفاض للنقد، وفي داخل هذا الإطار يمكن للناقد أن يقرأ ما تؤول إليه العلاقة بين النَّص والمجتمع. أي جدل البنية الثلاثية للشعرية:(الطبيعة /الدينامية/ القراءة) دون ذلك لا قراءة للقصيدة، وبالقدر الذي يمارس الإنسان حريته مبتعدًا عن أي اغتراب يمنعه من تحقيق هذه الحرية، تكون الشعرية قد كسبت شيئًا من فاعلية العناصر. علينا أن نقرأ الشعر بعودته إلى عناصر الطبيعة في اشتباكها المادي، وفي ديناميكيتها الاجتماعية، وفي رؤيتها للمستقبل. هذه القراءة تجعل الشعر جزءاً من حرية المواقف، وشيئًا يمكن لمسه وشمه ورؤيته وتذوقه وادراكه، وأي كيان معرفي يخرج عن هذه المصاهرة المعرفية للقراءة لايمكنه أن يحقق أدنى جمالية..وليس غريبًا أن تجد لها معادلًا موضوعيًا في حياتنا الاجتماعية: عندما يجف الماء تجوع الأرض وعناصرها، و يصبح الجفاف والتصحر مادة في العناصر نفسها، فالشعر الحديث لا يقولب العناصر في صور محددة، بل يوحد العناصر الطبيعية لتكوين صورة كونية عن الموضوع.

هذه القصيدة تؤسس لمعادلة تكشف عن الكيفية التي يكون الإنسان فيها قارئًا لتاريخه وهو غير التاريخ الذي تدونه المقولات والمراسم والبيانات، قد لا يكون هذا التاريخ دليلًا مباشرًا للاقتصاد والفلسفة والمجتمع وعلم النفس وغيره، ولكنه المؤشر الذي لا يخطئ عندما يكون الفراتين قد جفا. يتمكن الشعر الموضوعاتي من الكشف عن مكونات المعرفة الغائبة في تفاصيل الطبيعة، تلك التي تعلمنا باستمرار أن الشمس لا تشرق ولا تغرب، وإنما نحن الذين نتحرك في فضائها وفي ما تفرضه علينا، وفي كل تحولاتها. لا تقرأ هذه القصيدة إلا من خلال المعية مع الطبيعة، ومن دون ذلك تصبح كلمات فارغة/فالـ"معية" أي جدلية الشعرية للطبيعة واحدة من رفقة الشيطان للسفائن في البحر، سواء اكان الملاح عوليس أو كلكامش، لابد للشعر من "معية"، ومعية القصيدة العناصر الطبيعية في يقظتها وفي أفولها، دون ذلك، فالطبيعة تصمت، ولا لغة يمكن أن تفتح طلاسمها. هذه ليست قصيدة تُقرأ في مأتم، بل هي حلم يقظة تتحدث فيه عن انبثاق الآخرمن المرآة الزمنية، كـ"رأس صغير ثمين يبادله النظر"[13] هكذا يكتب

جان بيير ريشار عن بول إيلوار. عن الآخر الذي هو أنا، المختزن في مرايا الطبيعة. . يكتب الشاعر الآن قصيدته الناقصة في لحظة وجد نفسه دون الآخر مسؤولًا عن القول السؤال، فهو الكائن الذي يهب الشعرية للحياة ، كما تهب الطبيعة الدينامية، بوعي، الفرص التي لم تحققها الميثولوجيا واليوتوبيا والرواة المختنقين. مهمة الشاعر، كما يبدو من السياق؛ أنه يطمئن نخلة، من العطش، ففي بلد جففت الحروب فيه كل شيء، أصبح أقل ندى يستدعي ميثولوجيا العناصر.

نحن نتحدث عن شعر العناصر في جدليتها الاجتماعية، وفي علاقتها مع الإنسان، وليس حديثنا عن الأتربة والمياه والنيران والهواء، نحن نتحدث عن الآخر الذي يأتي محملًا بقدرية الفعل، مطمئنًا نخلة، أو بانيا مأوى، أو محققًا مصير. هذا يعني ثمة دينامية حركة ترافق القراءة،" فالعلاقة هي التي تلد النظر، النظر الذي يخلق الرؤية، الرؤية التي تسمح بالمرئي ولكن المرئي -وهذا هو سره- لايوجد بالنسبة لنا إلا في صيغة ما يُرى"[14] أي في صيغة الموجود. والقارئ وحده من يحقق الموجود.

وجهٌ مِنَ المِرآةِ
يَخرُجُ باحثًا عنّي
ولا أحَدٌ هُنا لِيَدُلَّهُ.

الهوامش

(1) قاموس العين، مادة ظمأ
(2) غاستون باشلار، الماء والاحلام، ت: د. علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007، ص 157
(3) ياسين النصير، الاستهلال في بدايات النص الادبي، دار نينوى ، دمشق، ط4 ،2017 ، ص13.
(4) باشلار، ص157.
(5) مايكل ريفاتير، دلائليات الشعر، ترجمة محمد معتصم، كلية الاداب والعلوم الإنسانية.
(6) حاورة التيماوس، افلاطون، ص 125. منقولة من الإرض واحلام يقظة الإرادة
(7) مايكل ريفاتير ، ص 75
(8) غاستون باشلار ، شاعرية أحلام اليقظة/ علم شاعرية التأملات الشاردة، ت: جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 ،1991،، ص 104
(9) المصدر السابق ص 104.
(10) هنري لوفيفر، ماركس وعلم الاجتماع، ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعي، وزارة الثقافة ، دمشق، 1971 .ص10
(11) غاستون باشلار، الأرض واحلام يقظة الإرادة ، ت: قيصر الجليدي، مشروع كلمة دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، ط1، 2018، ص 149.
(12) الأرض واحلام يقظة الإرادة، ص 151
(13) العرب والفكر العالمي شتاء 1988 ص 27
(14) العرب والفكر العالمي شتاء 1988، ص 29

(السلطة في الرواية العراقية) قراءة نقدية

د.علي ابراهيم

أعدت دراسة كتاب (السلطة في الرواية العراقية) للدكتور أحمد رشيد الددة الطبعة الأولى والصادر عن اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية 2013. وهو أصلا أطروحة دكتوراه كنت عضوا في لجنة مناقشتها. تناول الباحث موضوعا مهما، يكاد أن يكون التيمة المركزية السائدة في عموم المنجز الروائي العراقي والعربي أيضا، فقد شكلت السلطة قبل وبعد تأسيس الدولة العراقية قواسم مشتركة ضاغطة، وإذا ما حصرنا الموضوع ببداية الوعي القصصي في العراق أي منذ تجربة رائده لمحمود أحمد السيد ومن جاء بعده من رواد القصة والرواية حيث نجد ذات الملامح في القصة والرواية والشعر والمسرح والسينما وبقية الفنون كلها لا تبتعد عن المحن والمظالم والعسف الطبقي والقسوة في محاربة الآخر، وكل ذلك مرتبط بطبيعة السلطة وسياستها القمعية والمتسلطة على حرية الفرد ودوره في الحياة وجعله عاجزا أن يفعل شيئا للخروج من الواقع المزري وهذا الانموذج قد تكرر في كل الحقب وعلى عموم السلطات المتعاقبة، وإذا أضفنا إليها السلطات الأخرى التي تطرق إليها الباحث المتمثلة بالسلطات القبلية والعشائرية والعائلة التي تمثل الاضطهاد الاجتماعي تزداد الصورة قتامة.

الموضوع رئيسي وقار، وأظن أن الباحث لم يتعب كثيرا في ايجاد مصادر مادته البحثية المتوافرة، على الرغم من أن كثرة المصادر البحثية يشكل هما اضافيا واشتغالا صعبا وأحيانا عسيرا يتجسد في جمع هذه المصادر وانتقاء المنتج منها بعد تصنيفها فليس كل كتاب يصلح أن يكون مصدرا يخدم البحث... لقد اشتغل الباحث على ثلاثين رواية منسوبة لعشرة كتاب مرموقين، لهم حضورهم، في الساحة الأدبية وهم أعلام الرواية لا تتحدد شهرتهم في العراق بل في الوطن العربي وبعضهم تعدت إلى مناطق أخرى من العالم عن طريق ترجمة منجزهم إلى لغات عالمية ومع ذلك يطرح سؤال هل فعلا أن موضوع السلطة في الرواية يتحدد بهؤلاء العشرة؟

لماذا لم يتطرق الباحث لأعلام أخرى مثل: جاسم المطير وعلى الأقل رواياته الثلاث:(زقاق الأقنان، تأملات سجان، وأنا عشيقة الوزير).

درس فاضل العزاوي وركز على رواية القلعة الخامسة وأهمل روايته (مدينة من رماد)، حيث كان دور السلطة السياسية فيها واضحا، وتفردت هذه الرواية في موضوعة صناعة الجلادين المدافعين عنها، عن طريق شخصية (قاسم حسن) معاون الأمن الذي تحول إلى جلاد وصار شخصية ازدواجية، يعذب من جهة ويبكي عندما يضرب صديق طفولته (جليل محمود). هذه الرواية تعطيك أنموذجا خاصا وهو اجتماع سلطتين في شخص واحد؛ جلاد السلطة وشخصية الإنسان المنتمي إلى جذوره الشعبية البسيطة وقوانينها الاجتماعية المتوارثة. كما لم يتناول روايات أخرى مثل: (هم أو يبقى الحب علامة) لمحيي الدين زنكنة، (وليمة لأعشاب البحر) حيدر حيدر، (الجنائن المفتوحة) لبرهان الخطيب الذي يتناول فيها استمرارية تسلط السلطة حتى بعد تغيير نظام الحكم المتخيل، وهنا يستشرف الروائي رحيل نظام صدام حسين قبل سقوطه من دون حل، حيث يزداد عدد اللاجئين الهاربين من العراق. و(صيادون في شارع ضيق) لجبرا إبراهيم جبرا[1]. ويمكن تناول رواية (شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف وهي تتحدث عن ارهاب السلطة دون تحديد للمكان بشكل مباشر وهناك ايماءات كثيرة على أن أحداثها تدور في العراق علما أن الكاتب من أب سعودي وأم عراقية، اسقطت جنسيته السعودية وعاش في العراق وسوريا وولد في الأردن ولم يعش في السعودية طويلا، فحاله حال جبرا إبراهيم جبرا الفلسطيني الأصل.

وبما ان موضوع السلطة متنوع ومتشعب فإن غالبية المنجز يمكن أن يفيد منه الباحث ومهمته تنحصر في اختيار الأفضل الذي يخدم موضوعه...

وفي هذا المجال حدد الباحث زمن البحث: ”وقد اكتفت محاولتنا هذه بملاحقة ودراسة التجربتين الروائيتين الخمسينية والستينية“[2] وهنا علينا التوقف لمعرفة مفهوم التجربة الروائية في عقد معين، وخاصة بمفهوم النقد الروائي بمعنى هل نحدد سمة هذا العقد بكمية النشر ونوعيته في تلك المدة أم بروايات كتبت بعد سنوات ولكنها تناولت في موضوعاتها تلك الحقبة أو ذلك العقد وعلى سبيل المثال رواية (النخلة والجيران) لغائب طعمة فرمان صدرت عام 1966ولكنها تناولت الواقع العراقي اجتماعيا وسياسيا في الخمسينيات.

وإذا كان الباحث مقتنعا بهذا المنهج لتسمية الحقبة الزمنية روائيا فان خياراته في مكانها، وإلا سيرى الناقد والقارئ في كتابه خللا كبيرا في طبيعة البحث، لأني تفحصت جميع الروايات كمصادر لدراسته فلم أجد رواية واحدة صدرت في الخمسينيات تناولها الباحث، وكان يمكن الإفادة من (ذنون أيوب): في روايتيه؛(الدكتور إبراهيم)، و(اليد والأرض والماء) وكذلك من (أدمون صبري): القصة الطويلة (سعيد أفندي) ولم أجد سوى ثلاث روايات صدرت في الستينيات: ” (النخلة والجيران) لغائب طعمة فرمان ولحقها برواية (خمسة أصوات) 1967، و(الظامئون) لعبد الرزاق المطلبي عام 1967. وتوزعت بقية الروايات على

السبعينيات ست روايات، والثمانينيات عشر روايات، والتسعينيات خمس روايات، وبين 2000و2007 ست روايات. وكلها تناولت موضوع السلطة، وعدد منها تناولت السلطة بأنواعها في الخمسينيات والستينيات، ومن هنا أفضل عدم تحديد مدة زمنية في المقدمة ولذلك أرى أن عنوان الكتاب كان موفقا وينسجم تماما مع متن الكتاب ويحسب للباحث. لأنني لا أعتقد أن هذا الموضوع جرى تناوله بهذه السعة وهذا التخصص. فأغلب ما كتب هي اشارات عابرة في دراسات ومقالات نقدية كثيرة، ولكن ليس بهذه المنهجية.

وجدت أن التمهيد كان ضروريا وإن أسهب الباحث وأطال لأنه تناول جوهر مفهوم السلطة ولذلك جاء العنوان مطابقا: (التشكل التاريخي للسلطة)، وتوقف عند التدرج في ظهور السطلة منذ ظهور الإنسان البدائي على الأرض وصراعه مع الطبيعة، لتجاوز سطلتها عليه وهذا تطلب منه العمل مع الأخرين من أبناء البشر وتميزه عن حياة الحيوان واستعان بتحليله هذا على فلسفة افلاطون التي تدعو إلى العمل الجمعي لمواجهة جبروت الطبيعة، وكتب الباحث عن المجتمع اللاطبقي حيث:" تسود فيه معتقدات فكرية هادفة إلى سبر أغوار الكون وكشف أسراره، معتمدة على خيال ساذج ومعقد"[3] وكان التوصيف غير دقيق لأن الكاتب لم يحدد زمن ظهور ذلك المجتمع في المرحلة المشاعية وهي الطور الأول من ظهور الحياة على الأرض...وهنا نقطة الخلاف مع الباحث، إذ لم تكن هنالك "معتقدات فكرية..." إنما كانت هناك مشاعر تعبر عن الخوف مما يحيط بالإنسان الضعيف أمام ما يصدر عن الطبيعة من أهوال وانفجارات وعواصف لا يفهم ذلك الكائن بما يحيط به، فكان يبحث عن تفسير أو منقذ لحياته ومن هنا ركز على معرفة الفاعل ليعبده أو يتذرع إليه عسى أن يحميه ومن هنا جاءت فكرة البحث عن الرب. ولذلك أختلف مع الباحث حين ذكر: " نشأ الدين كاقتران شبه شرطي مع الوجود الإنساني بشكل عام والنزعة الجماعية الفطرية بشكل خاص"[4] وهنا ينبغي القول أن الدين لم يظهر مع الوجود الإنساني الذي سبق ظهور الاديان جميعها الأرضية والسماوية. وأتفق تماما مع استنتاج الباحث العلمي والسديد وهو أن: "الدين يمكن أن يكون أداة تحقق السلطة من خلاله شرعيتها واستقرارها، وتستخدمه في صراعاتها السلطوية مع خصومها، مستغلة كل وسائله الطقوسية والعشائرية، بما في ذلك الخرافات في سبيل ضمان تثبيت شرعيتها ووجودها"[5].

وربما فات الباحث أن يذكر أن ظهور المعتقدات الدينية القديمة والحديثة هو بسبب عدم قدرة الإنسان على تفسير الظواهر الطبيعية وسلطتها في البدايات، والتي تعني خوف الإنسان منها دفعه لصنع آلهة يحتمي بها مما يحيط به من كوارث جبارة. وقد توصل الباحث إلى القناعة بضرورة الجماعية بدلا عن الفردية: " إن هذه الجماعة لم تكن تعترف بالفردية فالروح الجماعية هي الأس الذي تقوم عليه السلطة (المشكلة) ولا مدار للفردية في أفلاك هذه الكينونة"[6].

وفي تقديري يصعب الحديث عن نشوء السلطة من دون المرور بكتاب (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) لفريدريك انجلس، ولا يجوز تجاوز أفضل من نظر لهذا

الموضوع (نيكولاس بولانتزاس) في كتابه نظرية الدولة، وهو من المنظرين المتميزين فقد عرف السلطة: "بأنها علاقة قوى طبقية" وانطلاقا من هذه الأطروحة يمكن القول: "إن الصراع بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع هو الإطار المرجعي، لمفهوم السلطة ويتعين فهم علاقات القوة هذه، ليس بوصفها علاقات بسيطة، سطحية، انما هي علاقات مركبة من جهة وغير متكافئة من جهة أخرى وتحددها في نهاية المطاف القوة الاقتصادية ثالثا"[7] بينما يرى الباحث أن " السلطة الملكية قد عززت قناعات شعبها بحتمية الامتثال لأوامر هذه السلطة والانقياد لتشريعاتها وأحكامها عن قناعة تامة. لأنها في جوهرها تمثل الآلهة نفسها، ومن ثم الدوران في فلك الدين"[8] ولم يحدد أي سلطة ملكية على الرغم من أنه ربط ذلك بالفكر العراقي القديم وبقيت الفكرة عائمة وبما أن الكتاب موضوعه الرواية العراقية وهي محددة السنوات أي من1921ولحين صدوره. كان ينبغي التركيز على هذه السنوات ولا بأس من التطرق لبداية نشوء السلطة وتركيبتها، وتوظيفها للدين. وكان للسلطة الملكية الهاشمية سبقا في هذا التوظيف ولاحظ استغلال تسمية (الهاشمية) ربطا مع توظيف الدين لبقائها. والواقع يشير إلى فشل كل المحاولات لهذا التوظيف من قبل الأنظمة وسلطاتها المتعاقبة. وهناك صفحات مضيئة للعراقيين وغيرهم في التعبير عن رفضهم لها بل قدم الكثير من الشهداء لهذا الغرض السامي.

ومن الملاحظات المنهجية التي لم يركز عليها الباحث، هي الجوانب الفنية في رسم الشخصيات، وما وفرته من قناعات لدى المتلقي، لا سيما أن كتابه اعتمد بناء الشخصية في الرواية وأفرد لها الباب الأول بثلاثة فصول:(الشخصية المهزومة، والشخصية المنتمية، والشخصية المتمردة). وقد اعتمد الباحث على مصادر عراقية معتبرة في تحليله للشخصيات الروائية في الروايات المختارة، وقد توقف عند طبيعة الشخصية منذ ظهورها في العمل الروائي بدءا من أرسطو الذي جعل منها ثانوية بالقياس إلى عناصر العمل التخيلي أي خاضعة إلى مفهوم الحدث، ثم احتلت الشخصية في القرن التاسع عشر مكانا بارزا في الفن الروائي، وعندما تخلت الرواية عن فكرة القوة العظمى للشخصية، حيث أصبح صمويل بيكيت يغير اسم وشكل الشخصية في العمل الواحد، وفرانز كافكا يقف عند الحرف الواحد من اسم بطله، ويليام فوكنر يسمي عن عمد شخصين مختلفين باسم واحد. وجورج لوكاتش ويتبعه لوسيان كولدمان أكدا على العلاقة بين البطل وعالمه الخارجي، ثم جاء نورثروب بنظرية البطل والبطل المضاد، ليشكلا أطراف الصراع في الرواية. وبعدها جاءت تجربة ميخائيل باختين الذي جعل الأهمية لما يحيط بالشخصية من العوالم. وكذلك ما تمثله الشخصية ذاتها. والعلاقة بين الشخصية المتخيلة والواقعية.

وكان يمكن التطرق إلى أنواع الشخصيات في القص ومنها المرجعية والأسطورية والمجازية والمتكررة والفردية، إلى جانب الرئيسة والثانوية، والمسطحة وغيرها. وليس من المهم التركيز على ما قاله الفلاسفة بطبيعة السلطات التي ظهرت مع ايماني بالكثير من النظريات العلمية وهي تشكل خلفية فكرية أساسية لكل انسان واع ناهيك

عن الناقد والمحلل والمفكر فهي تساعده في معرض تحليل العوالم الروائية وقد ذكرت ذلك في تناولي للمنجز الروائي العراقي. ولذا أفضل أن يركز الباحث على ما ورد في النصوص الروائية ويستخرج منها طبيعة السلطة السائدة في زمن الرواية فمثلا يعد المؤجر (أي صاحب الدار) في رواية (آلام السيد معروف) سلطة على بطل الرواية السيد معروف فهو يمارس التهديدات المتكررة لإخلاء البيت، أم هي إحدى مظاهر غياب السلطة وعجزها عن تقديم خدمات للمواطنين. وهل هروب حسيبة من البيت تخلصا من سلطة العائلة الجائرة يعد شكلا من أشكال السلطة الاجتماعية. ولأن هذا السلوك أقض مضجع العائلة برمتها؟

وهناك سلطة أخرى وجدناها في رواية (المرتجى والمؤجل) لغائب طعمة فرمان وهي سلطة المنفى التي يعاني منها المنفيون وسببها السلطة الأولى والغربة التي تذكرني بالشاعر رشدي العامل حين يخاطب ولده " يا ولدي لا ترحل فان سيف الغربة أقسى من سيف الجلادين".

ويستعرض الباحث شخصية سعيد العائد من أسره بعد سنوات طويلة في رواية مهدي عيسى الصقر(بيت على نهر دجلة) فيظهر لنا عالمه المتفرد ومن جوانب؛ نفسية وخيالية، لا تقترب من الواقع، يجعلنا نستنتج أن هذا الرجل يعيش واقعا غريبا وحياته سجنا دائما وعن طريق الوصف لكثير من سلوكياته، يمكن القول: إن سلطة متخيلة تسيره وهو خال من الإرادة.

ونقرأ في الصفحتين: 97 - 98 إن سلطة الحروب والقمع تجر الناس بما فيهم الأطباء النفسانيين إلى سلطة أقوى وأظلم منها ألا وهي سلطة الخرافة والإيمان بما هو ليس واقعيا... وأرى أن هذا التشخيص من قبل الباحث جيد لكن به حاجة إلى تنظير أوسع لإيضاح هذه الظاهرة في الرواية والواقع.

وفي تحليله لرواية الجسور الزجاجية لبرهان الخطيب، يستخدم الأسماء وما ترمز اليه، والتي لم تعد نافعة في القص الحديث، وجرى تجاوزها عند كثير من كتاب الرواية المبدعين، فليس بالضرورة أن تكون الشمس رمزا للثورة أو اسم (مزعل) للطبقة العاملة من دون أن يكون هناك معادل موضوعي لدلالة هذه الرمزية لكي يقتنع المتلقي بهذه التقنية.

يحلل الباحث أدوار أبطال (خمسة أصوات) ويتوصل إلى نتيجة وهي " اقصاء دور البطولة الأحادية ... إذ تبدو أدوار البطولة فيها موزعة بين الشخصيات فلا مكان للصوت الواحد (البطل) الذي يمتلك المعرفة الكلية والرؤية المحددة التي تهيمن على النص ومن ثم على بقية الشخصيات..."[9] وفي هذا المجال لابد من القول أن غائب طعمة فرمان لم يرد أن يكون لهذه الرواية صوت بمعنى بطولة فردية لذلك أطلق عليها (خمسة أصوات) وجاء صوت الراوي في الموقع السادس من السرد. وذكره الباحث بتصرف في الهامش نقلا عن د. شجاع العاني: " إن رواية (خمسة أصوات) قد أخفقت في أن تقدم جديدا للرواية العربية والعلة في ذلك- كما يرى- هي كون أحداث الرواية – بشكل عام – تقع قبل التغيير لا بعده. كما أن شخصياتها جميعا تنتمي إلى شخصية اجتماعية واحدة متجانسة سياسيا وايديولوجيا، ولا تختلف عن بعضها كثيرا إلا في حدود الأمور الخاصة والذاتية"[10] وهذا يتناقض مع ما

بدأه د. شجاع وتجاهله الكاتب حيث أشار إلى أن " الراوي في خمسة أصوات هو المتنوع، والرؤية موضوعية مع أن المؤلف سمى فصول روايته بأسماء أبطالها، وأفرد لكل شخصية أكثر من فصل مما جعل الرواية تحقق الالتحام في فصولها"[11]. أتفق مع هذا التحليل لكني أختلف مع د. شجاع العاني لأني لا أعتقد أن حكم الحدث يختلف على أساس زمان وقوعه قبل أو بعد التغيير.

إن انتماء شخصيات الرواية الاجتماعي الطبقي واحد، لكنها غير متجانسة، لكل منها أسلوبه في الحياة والتفكير؛ فقد يتفقون على رفضهم للواقع السياسي لكن كلا يعبر عن هذا الموقف بطريقة مغايرة تماما. وقد نجح الباحث د. أحمد الددة في توصيف كل شخصية من هذه الشخصيات الخمس؛ شريف، حميد، إبراهيم، سعيد وعبد الخالق.

وتناول الباحث محنة المثقف والأديب أمام حركات التسييس في تلك المرحلة، وهي جزء من الاضطهاد الفكري، فلم يكن المثقف تابعا في فترة الخمسينيات بل كان معارضا، وكان التعبير عن معارضته مختلفا سلبا وايجابا...

ويعتمد الباحث نصا أخذه من كتاب (صورة البطل في الرواية العراقية) ولم أجد هذا المصدر في قائمة مصادر ومراجع كتابه، والنص يؤكد على دور السلطة في بناء شخصية عزيز محمود بطل رواية (القلعة الخامسة) لفاضل العزاوي وإن ما ورد: " شكلت السلطة السياسية قوة فاعلة استطاعت الاشتراك في بلورة وتكوين الوعي السياسي عند بطل الرواية (عزيز محمود)..." ولم يحلل الباحث هذا الموقف الذي تبناه مما أثار الاستغراب لاننا نأرى أن السلطة كانت قامعة على الاطلاق للجميع، وما حصل له من تغيير كان بفضل السجناء السياسيين، فعلى يدهم تعلم أشياء كثيرة ساهمت بإعادة بناء شخصيته الغارقة في المجون والضياع إلى شخصية واعية رافضة للواقع وللسلطة المسؤولة عن كل أنواع التردي.

وفي الباب الثاني يتناول الباحث (الذكورة والأنوثة) كسلطة مع تبادل الأدوار وركز على السلطة الأبوية المستمدة سلطتها من المقدس الديني، في فصله الأول وعلى الايديولوجيا والمرجعيات ووجد نماذج لشخصيات في روايات غائب طعمة فرمان يمثلون هذه الفكرة ويعدها "نماذج اجرائية تعالج مسألة المرجعية الأبوية التي تحكم أو تتحكم في الفعل الإنساني"[12] ولكن الباحث وقع في بعض الأخطاء في تشخيص طبيعة الشخصيات في الواقع الروائي فلم يكن عمران اقطاعيا لأنه لا يمتلك أرضا بل مستأجرا لأرض تعود ملكيتها لـ (نشمية) ولم يكن (حسين) زوجاً غير شرعي لـ (تماضر) بل هو عشيق لها على وفق ثقافتنا الاجتماعية.

يضع الباحث المسؤولية الكبرى على (حميد) الذي أهمل زوجته (حليمة) وابنته (هناء) التي فقدها مبكرا. ولكن المتلقي النابه سيجد حميد ضحية السلطة الأبوية التي فرضت عليه الزواج من دون رغبته، لذا لم يستسلم للأمر الواقع فهجر البيت وراح يلهو مع امرأة أخرى... إذن نحن أمام ضحيتين والثالثة الطفلة مما يجعلنا الواقع أن نتعاطف مع الضحايا في رواية (خمسة أصوات).

اما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان: (السلطة الانثوية بين الاحتجاج والتمرد) وكرسه للدفاع عن المرأة المسلوبة السلطة

بسبب السلطة الأبوية والسلطة الذكورية اللتان وردتا في الفصلين من هذا الباب واللتان تعيشان في محنة من التسلط والتراجع في مسيرتهما مما جعلهما تسعيان لاستعادة:لاستعادة "هويتهما الضائعة، وتحقق كينونتهما التي سحقت خصوصيتهما عوامل الاستبداد الأبوي والذكوري"[13] وفي هذا المجال يبدأ بتوطئة نظرية يشير فيها إلى نضالها من أجل ايجاد أنساق ثقافية جديدة، لتكوين " عوامل منتجة لخطاب معارض أو ثقافة مضادة تتبناها الأنثى لتواجه بها استراتيجيات المصادرة والتهميش والاختزال"[14].

وانتقل إلى التطبيق والبدء برواية (القربان) مسلطا الضوء على شخصية (حامدة) الحقوقية والمدافعة عن المرأة على الرغم من صغر حجمها في النص الروائي إلا أنها كانت مؤثرة واعية لدورها وتأثيره في الواقع. وتناول شخصيات أخرى مثل حسيبة في (ظلال على النافذة) والتي شكلت مركزا معارضا لتسلط الأبوية والذكورية وعبرت عن ذلك بهروبها من البيت.

ويأخذ أنموذج (سهام) من رواية (المركب) لغائب طعمة فرمان بوصفها " شخصية قوية تفرض سطوتها على الآخرين عبر ما تطرحه من آراء وأفكار حول المجتمع وآراء الناس"[15] تعبت (سهام) لكنها ظلت قوية على الرغم من تحالف المؤسسة التي تعمل بها، مع الجانب الاجتماعي (الأبوية والذكورية) وجرى استخدام كل أساليب التشويه فأشيع تعرضها لعملية اغتصاب، للحط من سمعتها، بينما نفت هذه التهمة.

وتناول الباحث (رجاء) شخصية أخرى شغلت بطولة رواية (امرأة الغائب) لمهدي عيسى الصقر وهي أيضا من الشخصيات الصامدة والرافضة لكل مذلة متمسكة بأمل عودة زوجها من الأسر.

وحاول فؤاد التكرلي في روايته (الرجع البعيد) جعل بطلتها (منيرة) قوة في السرد، بحيث لا يمكن معرفة أبطالها إلا عن طريق علاقتهم بها. وقصة منيرة ليست غريبة فقد تعرضت فعلا للاغتصاب من قبل ابن خالتها، وأخفت ذلك عن حبيبها (مدحت) ولم يعرف الحقيقة إلا يوم الزواج، فحاول الهرب منها، لكنه مات أثناء عودته إليها، وهي صدفة غير مقنعة في السرد الروائي الحديث، وهنا حاول التكرلي أن يطرح بديلا للمرأة المثقفة المتخطية للقناعات الزائفة التي يسير خلفها المجتمع كما يراها الراوي. وأظن أنه لم ينجح في مسعاه، فأعاد المحاولة في روايته (خاتم الرمل) فسلط الضوء على الأم (سناء) وجعل لها حضورا دائما حتى بعد رحيلها. ولكن تأثيرها يظل مؤثراً على سلوك وحياة ولدها (هاشم) الذي أسهب د. أحمد في متابعة حياته لدرجة أن المتلقي قد يظن أن الباحث قد خرج عن الموضوع الرئيس وهو السطلة الانثوية في الرواية العراقية. وتتكرر الحالة في رواية (المسرات والأوجاع) لفؤاد التكرلي حيث يركز الروائي على الشخصية الرئيسة (توفيق) ويربط ذلك في دور النساء بحياته.

ثم يتناول شخصية (ياسمين فوزي) في رواية (الأنهار) لعبد الرحمن مجيد الربيعي، المتعددة المواهب والمثقفة ويعدها أنموذجا مغايرا في توصيف السلطة الأنثوية.

وينتقل إلى رواية (الخراب الجميل) لأحمد خلف ليكشف عن بدايات تحرر المرأة وتوجهها للعمل وعن طريق بطلة الرواية

(خيرية) التي تقرر أن تعمل في معمل للخياطة، وأخيرا يقتنع محمود ولكنه يبقى عاجزا عن مفاتحة والديه الرافضين لعمل (الكنة). ومن جهة أخرى نجد العلاقة بين (ليلى ومحمود) غير متكافئة لأن (ليلى) أكثر تأثيرا على الشخصيات الأخرى، بينما (محمود) يعيش مع جملة من المتناقضات الفكرية والنفسية وليس لديه موقف، وتظهر شخصية (مها) التي تقترب من (ليلى) فهي قوية في رأيها ومواقفها ولها جرأة في تثبيت أفكارها والدفاع عنها. ويعبر محمود عن ضعفه إزاءها: " إنني أختلق فرصا ذهبية للحديث معها، ومع هذا، أجد نفسي في حالة من الخيبة والمرارة عند بدء الحديث"[16].

وينحاز الباحث إلى شخصية (ساهرة) بطلة رواية (موت الأب) لأحمد خلف، لأنها تقف بالضد من السلطة الأبوية الذكورية بقوة.

وأخيرا إن اختيارات الباحث لنماذج المرأة في الروايات العراقية التي ذكرناها ليست كلها تستحق أن تمثل سلطة الأنوثة على الرغم من أنها ثارت ضد السلطة الأبوية والذكورية فيما نجد ضرورة حذف مصطلح (الأبوية) من العنوان الرئيس ودمجها بكلمة (الذكورية) لأنها جزء من هذا المصطلح.

وفي خاتمة الكتاب يخرج الباحث بمجموعة من النتائج المهمة في بحثه وهنا نشاركه الرأي بأن اعطاء تصور نهائي لتشكيل السلطة الأولى ليست عملية سهلة ولكنه نجح في اعطاء تصور استنادا لبعض المقولات المعرفية والفلسفية ونختلف معه في أن مفهوم السلطة في الفكر العربي ارتبط بمفهوم نظام العلاقة الولائية أو على الأقل أنه غير وارد في الواقع، ونتفق معه في أن مفهومها في الفكر الغربي متطور وجديد ومساير لطبيعة المجتمع الحركية... ونرى كما يرى الباحث: ليس هناك ثوابت اجتماعية قارة وانما كل المفاهيم في حركة صراع مستمر مع الواقع، وتتطور بتطور المجتمعات، ونحن معه في كثير من الاستنتاجات ومنها المرجعية الفحولية والمرتبطة بمخيال ذكوري، وما تنتجه من سلوكيات، تمثل ثقافة قمعية خلقت مجتمعات هشة.

ولعل أبرز نتيجة توصل إليها الباحث؛ هي قضية تطويع المرأة واخضاعها للمقررات الذكورية التي تؤكد اقصاءها وتهميشها في المجتمع[17]. إلى جانب الخطاب المعارض الذي تبنته الأنثى في مقاومتها للتهميش والاختزال ومع دعوة الباحث المخلصة للمرأة بالانشغال بعملية فهم جنس الذكر وتقويض فعله الاستغلالي والنجاح في خلق ثقافة جديدة خاصة قادرة على استيعاب النسق المهيمن وتفكيك أركانه.

الهوامش :

(1) جبرا إبراهيم جبرا ، على الرغم من أنه من أصل فلسطيني ، إلا أنه ترعرع في العراق وذكر اسمه في موسوعة أعلام العراق.

(2) أحمد رشيد الددة ، السلطة في الرواية العراقية، ط 1، بغداد ، 2013، من اصدارات مشروع بغداد عاصمة، الثقافة العربية2013. وزارة الثقافة العراقية: ص 6

(3) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص 11

(4) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص 12

(5) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص 12

(6) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص 13

(7) صالح ياسر ، المجلة الأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، العدد الثاني، سنة 2007.

(8) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص 15

(9) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص175

(10) أحمد رشيد الددة، م. ن صص: 175- 176

(11) شجاع مسلم العاني، في أدبنا القصصي المعاصر ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1989: 32

(12) أحمد رشيد الددة . م. ن: 209

(13) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص: 284

(14) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص: 284

(15) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص: 294

(16) أحمد رشيد الددة، م. ن ، ص: 322

(17) أنظر أحمد رشيد الددة، م. ن: 230

على دوال القص عند جليل القيسي
سرديات المدينة بوصفها محاولة للقبض

رنا صباح خليل

إن أهم ما تميزت به السردية العراقية في معاصرتها للتحولات الأيديولوجية في الأدب هو تجاوزها بنيات الشكل السردي على وفق ضرورات فنية حكمتها عقلية القاص أو الروائي في خلق ثيمات تجاوزت العلاقات المتداولة المألوفة في النسق السردي، فكانت هناك تماثلات في الاشتغال على المستوى الفني لها موطئ قدم في المتخيل التاريخي والسياسي والميثولوجي، وهي مؤسسة على قناعة راسخة في البناء والتلقي، ربما لأن فعل القراءة وانعكاساتها للتصورات الذهنية أفاضت على مخيلة الأديب في تكريس مغامراته السردية إلى تأسيس نمط له كشوفاته التأويلية الرحبة التي تنجذب اليها مختلف المناهج والتقنيات. تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على المنجز السردي للقاص جليل القيسي في محاولة للبحث في انتاجاته القصصية قصد استكناه معالم هذه التجربة الإبداعية والخوض في خصوصية الكتابة السردية وتعالقاتها بالمدينة والكشف عن جمالياتها، وآليات معماريتها وتفحص عوالم وتقنيات خطابها السردي الذي يحقق للنص رؤاه ومقاصده الفكرية والسردية.

إن لمشروع السرد القصصي عند (جليل القيسي) في تشكيله عالما قصصيا، استراتيجية سردية تتأسس منهجيا على مجموعة اجراءات وادوات، يوظفها لتحقيق اهدافه وغاياته ومقاصده، ولعل التساؤل الرئيس الذي تطرحه هذه الدراسة:

- ما هي أبرز اركان هذه الاستراتيجية السردية التي مكنت (جليل القيسي) من بناء عالمه القصصي؟
- ما هي آليات تشكل تفاعلية النص والقارئ وما هي اشكال عرض المحتوى القصصي؟
- كيف تمظهرت المدينة قصصيا؟ وما هي اسس ومعالم فضائها السردي؟
- كيف صاغ خطابه السردي بالشكل الذي يسمح له ببناء عالم قصصي مفتون بالمدينة، وهو يمزج بين المتخيل والواقع محافظا على قدرته فنيا للوصول الى حكايته وبلورة رؤيته الفكرية والفنية؟

إن دراستنا لسرديات قصصية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمدينة وهذا يحتم علينا الإشارة إلى أهمية المكان بوصف المدينة مكانا إشاريا

لمفهوم اكبر واوسع، يمكن لنا أن نلم شتاته بتعريف القارئ على اهمية المكان الذي استقطب انظار الفلاسفة والأدباء منذ افلاطون الذي عدّ "المكان حاويا وقابلا للشيء[1] وبعده توسع ارسطو حيث قال "إن المكان هو السطح الباطن المماس للجسم الحيوي، وهو على نوعين: خاص فلكل جسم مكان يشغله ومشترك يوجد فيه جسمان أو أكثر[2]. أما في الدراسات الحديثة فيعرفه يوري لوتمان بأنه " مجموعة من الاشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة التي تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة والعادية مثل الاتصال والمسافة"[3] فقد نقل لوتمان المكان من المستوى الفلسفي إلى المستوى السيسيولوجي، واكد على أهميته تحت نظام العلاقات القائمة بين الأشياء التي تخضع لتغيرات مختلفة في الأشكال و"إن نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والاخلاقية العامة التي ساعدت الانسان في مراحل تاريخية على إضفاء معنى الحياة التي تحيط به، نقول أن هذه النماذج تنطوي دوما تحت سمات مكانية"[4] فمرجعية الإنسان الأولى تعلقت بالمكان ليبني منظومته، كما أن المكان هو الركيزة الأساسية التي يتعامل بها الإنسان مع الوسط الذي يعايشه، وينتمي إليه وقد جاءت الدراسة مقسمة إلى مبحثين:

المبحث الأول

الاتكاء على الميثولوجيا عند القيسي

إن الاعمال القصصية لجليل القيسي لها خصوصية جمالية يمكن لنا أن نستشعرها ونتلمس سحرها الخاص عن طريق التعامل معها ابداعيا في استحضار الموروث

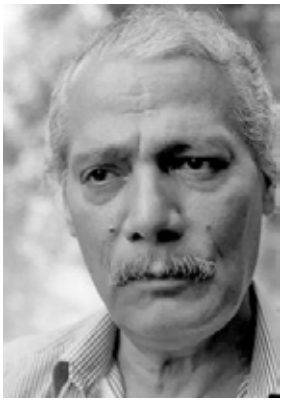

جليل القيسي

الكاتب . إن الاقتران مع المكان ضمن حقائق حياة الجماعة له تخيلاته الخاصة لانتاج تاريخ ثقافي مروي له عقد صلة جديدة مع دوال المكان التي دائما ما تكون متجاورة مع بعضها، ليستقوي بها الكاتب على تثبيت دعائم القص وهي في الوقت نفسه تحفز امكاناته الوصفية لسحب القارئ إلى الايغال في فهم الانهيارات التي قد تحصل متجددة كل حين في تلك البقعة الجغرافية، ولتشكل رصيدا سرديا له مقومات نشوئه بوصفه حاضناً للأحداث على الرغم من مأساويته؛ لأن هذا الخزين السردي هو خزين الجماعة وخزين افراد تلك المدينة وهو الدال على بقاء السرد حياً عن طريق التخيل الذي قد يؤشر بعض عناصره من هويته الوهمية أو الحقيقية، لذا يلاحظ بأن الشخصية في أدب القيسي تستولد لها حكاية مغايرة تحوز على ذاكرة اوسع وتفضي لاحقاً نحو تكرسات مرتبطة بالمكان المقترن معها مثل شخصية (ضحى) في قصة (غابة من الأحلام) التي ينفتح فيها المكان تدريجيا نحو تخيلات تنمو وتتحول إلى اسطورة يوظفها القيسي عن

طريق ترسيخ دعائم ثنائية الشخصية ومكانها في اتخاذ نص يوازي ما بين اسطورة الآلهة ننيكال التي تزوجت إله ثمرات الصيف كما مذكور في الأساطير وبين شخصية ضحى التي كان يدعوها البطل لان تتمتع بانوثتها قبل أن تهرم وتخسر فرص الحياة وأن تستشعر زهور النرجس والعشب الربيعي في مدينة كركوك، تماما مثلما الآلهة ننيكال التي تمتعت وانجبت وهي تتنعم بتيجان الطبيعة الخلابة مع العشب والنسيم والماء، أن الاهتمام بثنائية الشخصية جعل القيسي يتعامل مع الآلهة ننيكال وضحى على انهما شخصية واحدة باطلاق اسم ننيكال على ضحى حين يحادثها وهو هنا اهتم بعنصر سردي كان يستخدمه في اغلب قصصه وهو تبادلية العلاقة بين الاثنين، فيصبح احدهما مكملا للآخر ودائما ما يكون الشخص النظير في ذلك الثنائي هو الفاعل الاساس في هذه العلاقة النامية نحو الاسطورة وإنتاجها وكأن الشخصية تظل في هذا الفضاء لتعزز مجال المكان وقدرته على اضافة طاقة مفعلة للتصورات الجمعية و للهروب من ضغط الايديولوجيا نحو اليوتوبيا، ولذلك كان يطلق القاص على لسان شاب كردي يبيع الليمون اغنية فيها دعوة لإقامة عرس اسطوري وبصوت عالٍ رخيم يقول: ''أيها الليمون .. الليمون الكركوكلي أعطني فمك لأقبله، فأنت عروس جديدة.. تنهد بعمق وقال ترى ستصبحين عروسا لمن؟''[5] وهو هنا يخاطب فتاته ضحى التي هي وجه آخر لننيكال، وقد نجح القيسي في توظيفه لليوتوبيا واستثمار امكاناتها الغرائبية وحاول في قصه أن يبتدع صورا للمرأة لما توفره من التخييلات خارج علاقتها مع المكان، واستثنى في ذلك امكانات الجسد وقدرته على ابراز الثنائية الرمزية والاسطورية بين الطبيعة بكل صورها من نسائم وامطار وعشب ونهر والمرأة في مجال الأنوثة المحكومة بالغياب والفقد ومنحها ما عرفته الحكايات والأساطير القديمة من استمرار في العطاء والحب. إن ولع القيسي بمدينته الروحية ارنجا ومدينته الواقعية كركوك لم يمنعه من الانجذاب لمدن اخرى فربما يقوده مخياله الخصب نحو السفر إلى مدن اخرى يجمعه معها الجمال والافتتان ففي قصة (مملو) يأخذنا في سياحة نصية اخّاذة مع طقوس احدى المدن حين تعجبه فتاتا تحمل جرة مليئة بالعسل لغرض تقديمها نذرا في يوم تقديم النذور وهو يوم ربيعي مقدس، فالقيسي لا ينقطع عن التراث الطقوسي في قصه ودائما ما يرجعنا إلى تخوم الآلهة وهو هنا خص القول عن موضوعة تقديم النذور التي لها اصولها الالهية القديمة ولهذا كانت فتاته من مدينة ششروم وهذا يتضح اثناء حديثه معها عندما كان يحببها في مدينته كركوك مستغربا من قدومها من مكان بعيد لغرض تقديم النذور للإله أنليل كي تتزوج شابا تحبه وكي يشفى والدها من مرضه، ونحن نعرف بأن ''انليل'' كان يمثل السلطة التنفيذية في مجلس الآلهة القديم وكانت تقدم له النذور اتقاء شره فهو كثيرا ما أحدث الكوارث والاوبئة والطوفان وتحفل النصوص الاسطورية بإشارات واضحة عن ذلك . ومرثية اور اكثر النصوص التي تومئ لمسؤولية انليل في خراب مدينة اور وكذلك رثاء نفر[6]. وهذا ما يفسر عودة السرد في قصة (مملو) إلى واقعيته حين يجد الناس ينظرون إليه نظرة ازدراء وعدم تقبل وكأنه

شبح قادم إليهم من مكان غير مألوف، وهم في استفهام عن كنهه وسبب وجوده بينهم فهم لهم عالمهم الميثولوجي ولهم طقوسهم، ولكنهم بعد خفوت فورتهم واستكانة هياجهم بدأوا بالفرح واستدعاء النشوة حين قالت عنه احدى النساء انه سراب جميل واخرى قالت عنه أنه خيال جميل وطلب شابا آخر المزيد من الخمر وقال لنزيد شهوة الفعل، وبذلك تحولت طاقة السرد نحو الفعل الايروسي بازدياد الشهوة ولكنها شهوة يستعلي فيها حضور الروح في معزل عن الجسد، أي أن كرنفال الاحتفال كان يدعو للسمو بالروح والهيجان الجمعي مع الخمرة، وهذا ما يفسر وصف النسوة لبطل القص على أنه خيال جميل أو سراب جميل، ذلك أن الروح شيئ هلامي متسامي بانزياحه نحو النشوة.

إن القاص في تناوله للميثولوجيا حاول أن يتحرك من عالم الواقع إلى عالم الفنطازيا ومنه إلى عوالم الغرائبية والأسطرة وفي قصة (صباح مشرق مع الأميرة مي ـ سي) جاءت الأسطرة كاسحة ليس على مستوى الشخصيات فحسب وانما اخذت القصة سرديتها المؤسطرة التي كانت تغلف الحكي بكامله وبذلك خلقت نظامها الميثولوجي الخاص بها وهو هنا بطل القص وهو جليل القيسي ببنطاله الجينز وحذائه الحداثي مأخوذا من عالمه المادي الواقعي مع صرة مليئة بالخبز وهو برفقة جدي صغير، مرتحلا إلى عالمه المتخيل ليزور الأميرة مي ـ سي ويقدم لها القرابين بمناسبة عيد (كي ـ سوك) ومن ثم تقع في غرامه بعد أن تحادثه عن مدينته ارانجا، وقد اعتمد القيسي على الحوار كأداة سردية كاشفة لطقوس الاعياد والقرابين وتراثها الميثولوجي بلغة منسابة جميلة تحمل عذوبة ذلك اللقاء الحميمي وفي مقطع منه جاء ما يلي :

" ـ أنا يا جليل الأميرة مي ـ سي .. ممثلة الآلهة التي تمنح الخصب للذين لهم اراضي بور .. لا اعتقد ان انسانا شاعرا رقيقا، حالماً مثلك لديه اراضي بور..

ـ اميرتي أنا انسان فقير، لا امتلك ارضاً.. صدقيني أنا افقر من فأر المعبد.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أؤمن بامتلاك الاراضي.

ـ ماذا تريد إذا؟

ـ لا شيء.

ـ لا شيء؟ لماذا جئت إذا من مدينة أرنجا البعيدة إلى هنا؟

ـ لرؤيتكِ اولاً، ولدي حب روحي للعديد من طقوس واعياد اجدادي، أزور هذه المدينة واشعر بحرقة في قلبي، وروحي، وبكبرياء يصل حد الوجد، لحضارتي"[7].

إن تجوال القيسي في اماكن قصصه لم يقتصر في جانبه الميثولوجي على رحلاته وزياراته للمواطن السومرية ومعابد الآلهة وقصور الامراء بل تعدى ذلك ضمن فنطازيا تأخذه لزيارة كافكا في مدينته والتحدث اليه والتجوال في عوالمه في قصة(صورة نادرة لفرانس كافكا) وفي قصة (الموتى يتلون القصص) زار نمرود والثور المجنح ذلك التمثال الغرائبي الذي شبهه بملك اشوري عنيد حين رفض التجوال في المدينة بعد ربطه بالحبال، والتقى السير هنري الباحث الاجنبي وتحدث معه عن مخطوطاته الآشورية المتعلقة بقلعة الشرقاط مستثمرا ذلك للحديث عن كنوز بلده بدءا من أور إلى جرسو إلى اوروك إلى اريدو إلى شوربال إلى نفر إلى كيش وأيسن وأشنونا وماري، متجولا في

حديثه ضمن محاورات فلسفية مع السير هنري الذي يجده متعديا مرفوضا لآثار بلده التي يجب أن تنقب ويتم البحث عنها من قبل ابنائها الاصليين وليس من الوافد الأجنبي، والقيسي في سردياته تلك كان مشغولا جدا بوقائع الاحداث المتسارعة والعديدة، الكبيرة منها والصغيرة وهو القاص العارف بتفتيت الوقائع ضمن سردياته ليجعلها تمتلك طاقة الاستدعاء والالتمام حول فكرته التي يريد أن يبثها، فتتوهج متوالياته السردية بطريقة ذكية واعية تشعر المتلقي بسيادة السرد واختراق الافتراض المناقض له مع المحافظة على الثبات للوحدات البنائية للقص وهذا ما اتبعه مع قصة (حجر المعشوق للأميرة شاشا) ايضا.

المبحث الثاني

المدينة بوصفها مكاناً أليفاً أو مكاناً معادياً

ضمت المجموعة القصصية (زليخة .. البعد يقترب) لجليل القيسي وصفا للمدينة بشقيها الأليف والمعادي، وتمثل هذه الثنائية استكمالا لثنائية المقدس/ المدنس، غير أن العلاقة التي تربط الذات بالمكان لا ترقى إلى مستوى الاحساس بقدسيته أو دنسه، بل هي تتعدى التعبير عن الارتياح للحلول في مكان ما أو الانزعاج منه، فألفة مكان ما تتأتى حين يمنح ذلك المكان مساحة للذات لتمارس فيه حضورها وسلطتها بحرية، أي حين تتمدد سلطة الذات وتنحسر امامها السلطات الاخرى المضادة، ففي هذه الحالة يكون المكان كما يسميه مول ورومير بـ (المكان العِندي)[8] وذلك لأن الانسان بطبيعته لا يحتاج الى مساحة (فيزيقية) يعيش فيها فحسب، بل يتطلع الى رقعة تضرب فيها جذوره وتتأصل فيها هويته . إن التعبير عن شعور ما تجاه مكان ما يدعو إلى استحضار وجه آخر يثير إحساسا على نحو مضاد داخل النص، ومن بين الاماكن التي تبرز وجهي ثنائية الأليف / المعادي في سرديات القيسي عن المدينة (الغرفة والشارع والنافذة والكنيسة والصحراء والسجن) وتظهر امكانية القيسي وموهبته في تجسيد الأماكن التي تتحرك عليها شخوصه بدقة عن طريق استخداماته لامكانيات السرد المتمثلة في :

اولا: السرد الموضوعي الذي يكون فيه القاص مطلعا على كل شيء حتى الافكار السرية للابطال.

ثانيا: السرد الذاتي وفي هذا النوع من السرد نتتبع الحكي عن طريق عيني القاص (او طرف مستمع) متوفرين على تفسير كل خبر متى وكيف يعرفه او (المستمع نفسه)[9] .

وعن علاقة السرد بالمدينة، فإن لهما تاريخا مشتركا، سواء في الرواية أو القصة فقد وصف لوكاتش السرد فيهما على أنه ظاهرة مدينية. ذلك أن المدينة هي في الأساس المكان الذي كان متطلبا مسبقا لانبثاق القص والروي كفن نثري، لم يتسن لهما أن يحققا تميزهما كجنس أدبي إلا "في عصر الواقعية واقتحام قضايا مجتمع المدينة المعقد بصراعاته، وطبقاته وتطلعاته [10]. ومن هنا أولى الكتّاب عناية خاصة بالمدينة وأدركوا أنها هي التاريخ والذاكرة وقاعدة الإبداع الأولى، وإن كانت المواقف التي جسدتها المدينة في الرواية تختلف من كاتب إلى آخر وتتراوح في مجملها بين الرفض، والقبول، فقد ارتبط تقديمها عند كبار الكتاب الغربيين بكل ما هو قبيح وقميء، وعد روائيو القرن الثامن عشر والتاسع عشر

المدينة موطنا للرذيلة والشر. نرى أن ثنائية الداخل والخارج تتجسد في مفاهيم عدة، وبخاصة في أعمال جليل القيسي القصصية، وتتجلى هذه الثنائية بوضوح من خلال علاقة الشخصيات في أعماله القصصية بالمكان المحلي، والمكان الذي تتطلع إليه الشخصية وتعيشه، سواء أ كان مادياً أم معنوياً أم متخيلا، ويحاول الارتحال إليه. فمثلاً نجد أن بطل قصة (ديوس أكس ماشينا) يحاول التحرر من المكان المحلي الذي يعيش فيه، بعدما تجول في شوارع كركوك في يوم عيد ميلاده وهو يتذكر ايام كان لهذا العيد مذاقا مختلفا عندما كان برفقة حبيبته، الامر الذي جعله يتعامل معه بسلبية لعدم شعوره بالألفة تجاهه، حتى انه وصف اجوائه بالضباب أو الضبابية رغم أنه حاول ان يتغزل بالضباب أول الأمر ومن ثم أخفق فيما بعد عندما سيطر عليه شعور عدم الرضا وقد جاء ذلك في النص التالي " قلت في نفسي: وحتى هذه الغرفة؟ من يدري، ربما ستعلمني هذه الغرفة معنى تلك الكلمات. تأملت الضباب وهو ينزلق بكسل لذيذ على زجاج النافذة. نادرا ما يحل الضباب على هذه المدينة بهذه الكثافة [11] قلنا انه أخفق بعد ذلك اذ تحول سيره في الشارع إلى مطاردة من قبل شخص اشعره بالخوف ومن ثم بدأ يصف حيوات المكان بالجمود وعدم احتوائها على الاحاسيس والمشاعر الامر الذي جعله يتصور أن كل شيء في المدينة باتت تتحكم به الآله حتى قضية معاشرته للفتاة ابنة العجوز التي استأجر منها البيت، وهذا ما نجده شاخصا في قصة (ايام مثقوبة) ايضا بعدما تنتهك المدينة وتبتلعها الآلة وتصبح غير قابلة للعيش فيحاول ابناء المدينة ايجاد مدينة بديلة لهم. أن المطاردة والخوف كانت لصيقة بالقيسي في قصصه خاصة حين يتحدث عن الشارع أو الزقاق الضيق فهذا ما نراه في قصة (الرجل الذي كانت روحه عارية) حين طارده شخصيا لأيام كثيرة لغرض قتله من دون سبب، وقد استثمر القاص هذه العدائية ووظفها لتشخيص حالة من حالات اجبار النفس على ما لا تطيقه فقد تولدت هذه العدائية عند ذلك الشخص بعدما اجبر نفسه على التزام الكهنوت والرهبنة وهو لا يقوى عليها، الامر الذي أدى إلى اعتلال في نفسيته، أن الملاحقة والترقب كانت دخيلة على شخصيات القيسي حتى في غرف نومهم وهم يمارسون الجنس مع زوجاتهم وقد ترسخ ذلك في قصة (حتى القطط) إذ كانت الزوجة ترى من النافذة أن هناك من يراقبهما في الجهة المقابلة من الشارع وهما في وضعهما الحميمي، ويقودنا هذا إلى القول بأن الشخصية قلقة وخائفة من العائلة ومن غيرها من البشر خارج مكانها الداخلي. إنها خائفة من الداخل كما هي خائفة من الخارج، خلاف رؤية باشلار الذي يرى أن مساحتي الداخل والخارج قد تتبادلان أدوارهما، لأن "الداخل والخارج متآلفان، إنهما على استعداد دائم لتبادل أماكنهما حتى يتبادلا العداوة، إذا تواجد سطح يفصل بين الخارج والداخل [12] فهذا السطح مؤلم على الجانبين.

إن ما يلفت انتباهنا في سرديات القيسي فيما يخص المكان اننا لا نستطيع ان نصنف قصصه على انها تحاكي المكان الأليف دون المكان المعادي فهو دائما ما يبدأ بوصف جميل لمدينته كركوك حين يتبع السرد الموضوعي في قصه ولارنجا حين يخاطبها

في سرده الذاتي، فيكون وصفه غاية في الجمال مأخوذا بصور فنية عميقة نابعة من وجدان الشخصية التي لا يتوانى ابدا عن اطلاق اسمه الصريح عليها دائما فأغلب شخصيات ابطاله هم باسم جليل القيسي، الا انه سرعان ما يزجنا بتغيير بوصلة الرؤية لدينا فيحول المكان إلى موحش ومعادي في القصة نفسها وكأن القصة تأخذ ادوارا عدة وطبقات متفاوته ما بين الجمال والقبح، وقد جاء ذلك في قصص كثيرة لديه مثل (ايام مثقوبة، لنحتفل معا، السحالي، سافروا مع طيور البحر، الجبهة صامتة الان، زليخا .. البعد يقترب) الا أن السوداوية كانت شاخصة في اماكنها المعادية في قصص مجموعته القصصية (صهيل المارة حول العالم) ومنها القصص:(الشوارع الأخرى أيضا، ثلاث تلال من الجراد، الضفة الاخرى من البحر، الليل والطين، إذا فقد الملح طعمه) وخارج هذه المجموعة لديه قصتي (احماض الخوف، ثقوب الكآبة). ولنأخذ قصتين وجدتهما موغلتان في الاحساس المعادي وآثرت الحديث عنهما لشدة وطأة الشعور بالقساوة والانتهاك وهما (اذا فقد الملح طعمه والثانية الشوارع الاخرى ايضا) ففي الاولى نجد المتواليات السلبية الواصفة لحال السجين حين ينفى إلى المكان الصحراوي خارج مدينته حيث جاء النص على لسان البطل "صحراء؟ لماذا؟ حسنا لا بأس أن انفى، لكن في الاقل بين اناس على شاكلتي، انا قبل كل شيء انسان ومن حقي ان اعيش في محيط بشري لا اعرف كيف يتسنى لي ان اعرف نفسي، ماهيتي، وجودي في الصحراء[13] فقبول الشخصية او رفضها لما تتلقاه مرتبط بقناعاتها ومعتقداتها وما يبثه القاص من دوال هي نتيجة طبيعية ومترتبة على تأثير وقع السجن على الشخصية في هذه القصة فما يتعلق بحقائق السماء والشمس والنجوم التشبيهية ليست سوى حقيقة مرة تعيشها الشّخصية في مثل هذا المكان العدائي، والذي يحاول تعميق هوة عدائيتها على نحو مباشر عن طريق اعتماد القص على الخوف والتعب النفسي مع ضغط صمت الأعرابي الذي لاقاه في الصحراء، و هو في كل ذلك يحاول ان يقدم لنا محاولات لتأكيد عدم ألفة المكان وعدم القدرة على العيش فيه، أن فضاء الصحراء استخدمه القيسي في عدد من قصصه على انه احد دوال العداء والضيق على الرغم من الرحابة الشاسعة التي يتصف بها ذلك انه كان دائما ما يتخذه نظيرا للخلو والاحساس الموحش بالتوحد وجاء ذلك شاخصا في قصتي (سفرة حول المقبرة، الصمت الفيثاغوري وفضاء السجن من أكثر الأماكن وضوحاً في موقفه السلبي تجاه الشخصيات المحبطة واليائسة والتي يمارس فعل المكان العدواني عليها. وذلك ما جاء في قصص اخرى للقيسي ومنها (الهروب الأخير، الليل والطين، وظل يحلم بالوشم، طيور السنونو عادت ثانية، العودة إلى مدينة ارنجا، الاعتقال الصحراوي رقم 125، زليخا.. البعد يقترب، الجدار الذي نطق، طيور السنونو عادت من جديد).

أما قصة الشوارع الاخرى ايضا) ففيها انتهاك للمدينة واحساس مفجع بالكارثة، فضلا عن اثارتها لمسألة مهمة وهي مسألة الأنا والآخر كإشكالية سردية ترتبط باختلاف وجهات النظر، أو الزاوية التي ينطلق منها القاص في إبرازها بصورة قد تكون معقدة وشائكة نوعاً ما، وربما تظهر الأنا مفردة

بصورة أكثر وضوحاً فيما لو اقترنت بالآخر[14]، وهذه العلاقة هي التي ترسم حدود التعامل داخل إطار المكان، فالآخر الموازي هو الذي فرض محبة المكان على العكس مما يفرضه الآخر النقيض من عدوانية وقد مثله القيسي بدخول الاغراب للمدينة وفي قصة اخرى مثله بتواجد كائنات غريبة أو تواجد الآلة التي باتت تتحكم بمصير الحياة الهائئة ومصير الناس الذي كان يسير نحو مجهول مظلم، ومن ثم فإن "أنا النص والآخر، منتج جملة من الإحالات اللغوية والنفسية والفكرية التي غالباً ما تكون في خصوصية المعنى تعبر عن أنا وآخر في الوقت نفسه، فالسرد بوصفه التوليفة المحايثة لتوظيف كل منهما في تركيبة الوعي كرغبة إرادية تمتحن كل أشكال وصيغ التعايش الممكنة بينهما ؟ يسعى لأن يجعل من الآخر أن يرتد في حيز الوجود إلى الأنا في إطار الكينونة[15]،وفي هذا المنحى تتحد العلاقة بين الأنا والآخر، ونحن داخل حدود المكان الواحد وهو في هذا القص داخل حدود المدينة أو الزقاق وهذا المفهوم اخذ مساحة مهمة في قص القيسي إذ نجده في القصص(أنا ذلك المسافر، أيام مثقوبة، سافروا مع طيور البحر، السحالي) وفي هذه القصص كثيرا ما نشعر بأن المدينة تختفي ولا يبقى لها وجود سوى في اذهان شخوصها وهذا ناتج من فعل الاحتلال الذي تتعرض له فالبطل يعيش فيها ولا يعيش، وهو في حالة ضياع مستمر رغم ان علاقته الحميمة مع المكان دائما ما كانت تنشأ منذ الطفولة ، فكلما كان هناك استرجاع للماضي، نجد البطل يقف على مرحلة عاشها وعاصرها وشغف بهندستها المعمارية المتناغمة مع بعضها فيذكر المسميات التي تخص نهرا وتلاً وزقاقا أو شارعا فيه كنيسة او قلعة او جسر فهو مفتون بأماكن مدينته التي يشعر بالضياع والفقدان فيها .

هناك عدد محدود من القصص لدى القيسي يمكن لنا ان نعد سرديتها تتعلق بالمكان الأليف المفرح المحبب من دون أن يلتف علينا بمغايرة احساسه بها في نهاية القص ودائما ما يرتبط هذا النوع من القص لديه بثنائية المرأة الحبيبة والمدينة ليشتغل على دالة الحب وعملها في حدود المكان لما لها من قدرة بالغة في التأمل، وفي منح النص طاقة إيقاعية متجددة، وهو في ذلك وفي قصص اخرى قد تخلو من الصوت الانثوي لكنها تتعامل مع المدينة على انها مكانا اليفا لا معاديا، كان يسعى باستمرار إلى الاقتران والتوحد مع الحركة الذهنية، والاعتماد على الفلسفة والطروحات الفردية بين المتحاورين على اعتبار أن الإيقاع السردي هو عبارة عن تجلٍ فعلي للواقع الخيالي الذهني المعيش؛ لرفده بما يلزم من تطور إيقاع السرد، وتحويله إلى بؤرة متنامية، شديدة الاقتران بالمكان والحدث ومن هذه القصص: (فتاة مجدولة بالضوء، الميثوبي، الطيران شاقوليا، نجمة ميديا المتوحشة، ومضات في اقاليم اللاوعي، أمم من الفرح، الطبائع القوية، فتاة بلون الفضة، الآلهة عناة، متعة غامضة، مُسرطنة بالوهم).

---

* باحثة وناقدة، محررة في مجلة (المورد) العراقية . وكنا قد كلفنا الباحثة بكتابة دراسة عن قصص جليل القيسي ، قبل المشاركة بهذا البحث في مؤتمر السرد الرابع الذي اقامه اتحاد الادباء والكتاب في العراق ، وتأخر نشره لاسباب فنية.

الهوامش:

(1) حنان محمد موسى حمودة، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، عالم الكتب الحديث، عمان، الاردن، ط1، 2006، ص18.
(2) محمد علي عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة، الاسكندرية، مصر، ص228.
(3) يوري لتمان، مشكلة المكان الفني(المكان والدلالة) تر: سيزا قاسم، مجلة الف، العدد 6، 1986، ص89.
(4) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(5) صفحة 47 من المجموعة القصصية (مملكة الانعكاسات الضوئية) جليل القيسي، دار الشؤون الثقافية العامة، 1996.
(6) نظر: الجنس في الاسطورة السومرية، ناجح المعموري، دار المدى، 2017، ص1 .
(7) الاعمال الكاملة لجليل القيسي، الجزء الثاني، دار ئاراس للطباعة والنشر، ط1، 2007، صفحة 325.
(8) ينظر: جماليات المكان: جماعة من الباحثين، دار عيون المقالات، الدار البيضاء، ط1، ص61.
(9) ينظر: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترك ابراهيم الخطيب، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت 1982، ص189.
(10) الريف في الرواية العربية، عبد الله ابراهيم، ص70.
(11) الاعمال الكاملة لجليل القيسي، الجزء الاول، دار ئاراس للطباعة والنشر، 2007، ط1، ص330.
(12) ينظر: غاستون باشلار ، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، كتاب الاقلام، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، ص196.
(13) الاعمال الكاملة لجليل القيسي، الجزء الاول، دار ئاراس للطباعة والنشر، 2007، ط1، ص519.
(14) ينظر: د. محمد صابر وجعفر عبيد، سوسن هادي، جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية، مدارات الشرق، ص63.
(15) المرجع السابق، ص64.

«النخلة والجيران» الريادةوالتطور

داود سلمان الشويلي

مقدمة:

ظهرت الرواية العربية الحديثة في العصر الحديث على إستحياء، ومرّت في الحياة الثقافية العربية بخطى وئيدة، وبطيئة. وكان السبب في ظهورها هو إتصال الثقافة العربية بالثقافة الأوربية فإستوردت بعض عناصرها، ومنها الرواية، وكأنها بضاعة لا تراث عربي لها، وشيء بكوري، ومولود جديد، حيث ترجمت بعض الأعمال الروائية الأوربية إلى العربية، وباتت المطابع، على قلّتها، تنشرها بين الخاصة من الناس أولا، ثم شاعت بين العامة، حتى استقامت في الحياة الثقافية العربية.

وكان السرد وما زال هو «ديوان العرب» على الرغم من غلبة المقولة المأثورة في أن الشعر هو «ديوان العرب»، تلك المقولة التي انطلت علينا جميعا، باحثين، ونقادا، ودارسين، ومهتمين، كذلك. ولو تفحصنا ما تركه العرب الأوائل من كتابات نثرية تتصف بما هو سردي من صفات ومميزات، لوجدناها تساوي أكثر نسبة من الشعر بكثير، وخير مثال على ذلك حكايات ألف ليلة وليلة، والمقامات، السير الشعبية، وحكايات أخرى زخرت بها المكتبة التراثية العربية، كقصة سيف بن ذي يزن، وقصة عنترة بن شداد، وتغريبة بني هلال، وحكاية ذات الهمة، وحكاية المياسة والمقداد، وغير ذلك من الحكايات والقصص التي حفل بها تراثنا السردي العربي القديم[1].

وقد تنوعت وتعددت فنون السرد العربي الفني، كالرواية، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جدا، فيما يشكل ما هو شعبي من ذلك السرد نسبة كبيرة أيضا، كالقصة الشعبية، والسالفة، والحكاية، والحدوتة، فضلا على الأساطير، والخرافات.

كتبت مرة: «حطّمت قصيدة النثر، كما حطّمت قصيدة التفعيلة، بنية البيت الشعري في القصيدة العمودية، ويأتي هذا التحطيم في أن قصيدة النثر ترفض أي نظام هندسي ينتظمها، ودائما هي تهرع نحو الحرية، وهذا هو عالمها الذي تعيش فيه، وإلّا فهي تموت كما ماتت العشرات من قصائد النثر، ان كان ذلك أثناء كتابتها، أو كان ذلك

أثناء طباعتها في وسائل النشر الورقية، أو الافتراضية، إذ أن نزعتها المتجهة نحو الحرية تتطلب مثل هذا الّاشتغال الفضائي الواسع والمنفلت من كل تحديد يحد بحريتها، على الرغم من محاولات بعض الدارسين، خاصة عند بحثهم لها لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه، لتحديدها باشتراطات وآليات عديدة.

ان مثل هذه الحرية التي تتبعها قصيدة النثر في بناء شكلها خاصة، أي في اشتغالها الفضائي المنفلت عن أي تحديد، سيؤثر حتما في توليد الدلالات، والمعاني، أي انها توظف جيدا اشتغالها الفضائي واستثماره في توليد ما ينضح منها من دلالات ومعاني، وهذا ينتج عند القراءة الذكية لها على المنابر، أو عند مطالعتها من قبل قاريء فطن على الورق الحقيقي أو الافتراضي، اذ يعرف الأوّل محطات قراءة النص، أو التوقف عن القراءة لأسباب لا مجال لذكرها، عن طريق اثراء النص من قاريء متمكن، ويعرف الثاني قراءة البياض والسواد، أو هندسة الحروف والكلمات والجمل، أو ترقيم المقاطع، وما شاكل كل هذا، في النص المكتوب على الورقة»[2].

وتأسيسا على هذا الفهم الخاص لشكل قصيدة النثر وهي جنس أدبي معروف، نتساءل عن شكل جنس أدبي آخر، أسبق منه[3]، وهو الرواية، فهل كان شكل بنية الرواية الفنية الناضجة يمتثل لاشتراطات معينة تحدده ضمن حدود لا يمكن تجاوزها، مع العلم ان السرد في روايات مابعد الحداثة قد تميّز بمميزات منها كسر التماسك الحاصل بين الأحداث، وتشتيتها، وتفكيكها، مثلا.

صحيح ان الرواية هي لغة، وأشكال تضم هذا اللغة، وهي لا قواعد، ولا اشتراطات منظورة تحكمها عند الكتابة، بدقة مسطرة المهندس المحترف، إذ انها لا شكل معين لها، مثل: الحجم، وثلاثية أرسطو في البداية والنهاية والوسط، والحدث، والشخوص، والوصف، والزمان، والمكان، وان ما يحكمها هو ما ستهتدي اليه عند الكتابة، دون الخروج عن تلك القواعد والاشتراطات غير المنظورة بصورة عامة، أي أن الرواية هي التي تضع قواعد واشتراطات بُنيتها، كذلك جميع مواصفات عناصرها الأخرى، عند الكتابة دون الخروج عن عامة القواعد والاشتراطات، حيث لكل رواية بنية خاصة، ويأتي التشابه بين بنى وأشكال بعض الروايات من باب التناص العام، مثل ما نجده في الروايات التي كتبت على غرار ألف ليلة وليلة، وبعض السير الشعبية، والمقامات، مثلا.

فلو ان الذين نظروا لبنية الرواية من المنظّرين والدارسين الأجانب (باختين، تودوروف، ياكوبسن، وبارت، وغيرهم) قد اكتووا بنار كتابتها، مثلما اكتوى كاتب الرواية ومبدعها، لمزقوا كل ما كتبوا من تنظيرات، ذلك أن الرواية عصية على القواعد، إذ انها حالة هلامية تتشكّل لحظة كتابتها، وانجازها، وهي بالتالي تضع قواعدها واشتراطاتها من دون الخروج عن العام من تلك القواعد والاشتراطات.

وبناء الرواية منذ التأسيس قد اعتوره تغيّر وتبدل، إذ تغيّر الشكل التقليدي لبنية الرواية إلى شكل آخر، إذ أصابته سنّة الحياة في التطور، فتركت، مثلا، الاعتماد على قول السارد (المؤلف، أوالراوي)، أو قول الليالي

(بلغني)، أو قول المقامة (حدثني)، أو قول السيرة الشعبية (قال الراوي)، أو(زعموا)، أو(كان يا ما كان) كما في أغلب الحكايات القديمة، وسوالف الجدات، وغير ذلك من العناصر السردية الأخرى للرواية.

الريادة:

عاش المجتمع العراقي بعقله الجمعي وهو مملوء بالقصص، والحكايات، والسوالف، والأساطير، والخرافات، كأي مجمع عربي أو أجنبي آخر، وقد تراكمت في ذلك العقل هذه المكونات التي توارثها عن الأجداد حتى وصل إلى أن يكون هو، أو فرد منه، كاتبا ومؤلفا لها.

عندما نقول ان الرواية في العراق قد بدأت بإصدار محمود أحمد السيد روايته «في سبيل الزواج – 1921» فليس معنى ذلك ان تاريخ السرد العراقي «الرواية خاصة» في العراقي قد بدأ من هذا التاريخ، وإنّما الذي يعنيه هذا التاريخ ان الرواية المكتوبة بقالب فني، شبه ناضج، وليست ما انصبت في قالب الحكاية، والسالفة الشعبية المعروفة، قد بدأت بهذا الإصدار.

لقد سبق الكاتب سليمان فيضي السيد بإصدار روايته «الرواية الايقاضية – 1919» بسنوات، إلّا انه اتبع فيها اسلوب القصص الشعبي، وصيغة المسرحية إلى حد ما، مما جعل الدارسين، والمهتمين، يبعدوها عن الريادة في كتابة الرواية العراقية، كما أبعدوا تجارب سابقة لها، كما في مقامة «سجع القمرية في ربيع العمرية» لأبي الثناء الآلوسي[4].

يقول الدكتور عبدالإله أحمد في كتابه (نشأة القصة وتطوّرها في العراق) [5]: «يعتبر سليمان فيضي الموصلي أوّل من حاول الكتابة في القصة الطويلة (الرواية) في الأدب العراقي الحديث. فقد نشر عام 1919، روايته (الرواية الايقاضية)، وطبعها بمطبعة الحكومة في البصرة، ووصفها بقوله: ((هي رواية أدبية انتقادية أخلاقية فكاهية ذات 20 فصلا))». ويشير الكاتب إلى ان الرواية قد «خلت من كثير من مقومات القصة، واختلطت إلى حد كبير بالمسرحية النثرية». وهذا السبب الذي جعلها بعيدة من أن تأخذ درجة الريادة في الرواية.

وكان الكاتب محمود أحمد السيد قد كتب رواية فنية لا غبار عليها إلّا انها لا تقف في مصافي الرواية العربية، والعراقية، التي تطورت حتى وصلت إلى قمة مجدها في القرن الواحد والعشرين. وقد مرت الأعوام والرواية العراقية ينمو عودها ببطء، ولم يشتد، إلى حد ما، إلّا بعد صدور رواية «النخلة والجيران» عام 1966[6].

ان التطور الذي أصاب الرواية العراقية قد أسهمت فيه عوامل كثيرة من أهمها: الانفتاح على الآداب الأجنبية. وتطور الرواية العربية. وترجمة الدراسات النقدية الخاصة بفن السرد، والرواية خاصة. وإزدهار النقد السردي العربي. وتقدم الحياة. وازدياد التعليم والثقافة، وغيرها من العوامل الأخرى.

في هذه السطور سنناقش رواية واحدة قد تطورت كثيرا عن الروايات التي سبقتها من روايات السيد وقد صدرت في السنوات التي تقف تقريبا في منتصف المسافة بين سنة إصدار السيد لروايته الأولى عام 1921 وبين عام 2021 وهي رواية «النخلة والجيران» التي صدرت طبعتها الأولى عام 1966، من حيث الشخصيات التي انتظمت فيها وحملت

عبء أحداثها. بناء شخصيات هذه الرواية يفترق عما عهدناه في بناء شخصيات الروايات السابقة لها ليس من حيث العدد، والنوع، وإنّما من حيث عمقها، ودلالاتها، ورمزيتها، والوظيفة التي تقوم بها، وهذا لا يعني انها بعيدة عن أن تكون أكثر بناء لو أحسن الروائي معالجتها، وتقديمها في روايته.

النخلة والجيران وشخوصها:

لقد وصلت رواية غائب طعمة فرمان إلى قمة ما وصلت اليه الرواية العراقية في ذلك الوقت بنزعتها الواقعية، من حيث النضوج، ووضوح الرؤيا الأدبية، وتمكّن الكاتب من أدواته السردية في الفكرة، والحدث، والحبكة، وبناء الشخصيات، والحوار، والوصف، والرمز كذلك، بحيث جاء المضمون متحدا بالشكل.

وقد تنوعت، وتعددت، الشخصيات في الرواية كتعددها، وتنوعها، في الأدب بصورة عامة. وتسمى الشخصية في بعض الأحيان»البطل» كما عند أرسطو، وتوماشفسكي، وغيرهما. وبـ «الدور» كما عند بريمون. و»الفاعل» كما عند بروب، وجينيت. و»العامل» كما عند غريماس. و»الحالة» كما عند تودوروف. وغير ذلك من التسميات المتنوعة، والمختلفة. وتعد الشخصية صورة أخرى للشخصية في الحياة العامة، خاصة بالنسبة للشخصية الأنسية، على الرغم من انها لا تكون مستنسخة (copy paste) كليا عن صورتها كما في الحياة، إلّا انها تحمل الكثير من صفاتها، ومميزاتها، في الحياة العامة، لأنها عندما يقوم الكاتب باستدراجها إلى عمله الابداعي، فانه يقوم باعادة بنائها، وصياغتها، حسب مفهومه لتلك الشخصية في عمله الأدبي، إذ يضيف، وينقص من صفاتها، ومميزاتها، وتكوينها الخِلقي، والخُلقي، والسلوكي.

والشخصيات في الرواية، وأي عمل سردي، تتنوع، وتختلف، بين أن تتحرك داخل عوالم الرواية التاريخية، أو كانت داخل عوالم الرواية السياسية، أو العاطفية، أو الاجتماعية...الخ، لأن كل نوع من هذه الأنواع الروائية لها عالمها الخاص بها، والذي تتبعه الشخصية، بل هي التي تبنيه عن طريق حركتها الاجتماعية، أوالنفسية، أوالعامة.

وتحتل الشخصية، في الرواية خاصة، مكانة مهمة وفاعلة في بنيتها الروائية، فهي الأداة، والوسيلة، التي يعبر بها الكاتب عن رؤيته لكل شيء، لأنها من خلقه. وأيضا هي الأداة الفاعلة في الراوية الفنية التي تلم كل عناصرها، اذ تدور حولها كل الأحداث، وهي التي تنظم كل الأفعال داخلها. وأيضا، فانها هي العمود الفقري الذي تتشكل حوله الحكاية التي تبنى حولها الرواية. اذن، وبصورة اجمالية، يمكن القول انها تبنى لتمثل كل شيء، وتصل في الكثير من الأحيان في بعض الروايات الغاية التي تروم الوصول اليها.

ان الشخصية عنصر معنوي من عناصر الحكاية، مستل من عنصر مادي في الواقع والحياة، مع شيء من الثبات والتغيّر، لا تنشأ بعيدا عن الكلام الذي يصوغها، ويصور كيانها، وأفعالها، وسلوكها، وأخلاقها، وماتمتاز به، وما يميزها عن الآخرين، ويصف صراعها المعلن، وغير المعلن، مع النفس والآخرين، أي يصور كل ما يجيش

في عقلها ووجدانها، الذي يدفعها إلى التحرك داخل عالم العمل الابداعي، بل هي في خضم هذا الكلام الذي يصورها ويصوغها.

بُنيتْ أحداث رواية (النخلة والجيران) «على خلفية آثار الحرب العالمية الثانية في العراق، إذ صيغ نظام الحياة اليومية لشخصياتها في ضوء تداعيات تلك الحرب في بغداد، فظهرت منزوعة الإرادة، ومجرّدة عن أي فعل إيجابي، وما لبثت أن مضت في حال يكتنفها اليأس إلى نهايات مقفلة أدّت بها إما إلى الموت أو القتل أو الغياب، وبذلك تكون الرواية قد طرحت قضية التاريخ الراكد للأمة حيث يتلاشى الأمل بالتغيير، فكل شيء في تراجع مطّرد، إذ تستسلم معظم الشخصيات ليأس عام يخيّم عليها من كل جانب، وتذوي النخلة الوحيدة، وتباع الدار، ويهدم الإسطبل، وتكاد الحواري الطينية الضيقة تخلو من الحركة، وتبدو المشاركة الاجتماعية مشلولة، بل معطّلة، فقد انسدت الآفاق أمام شخصيات مهمّشة جرى تقييد إرادتها من طرف غامض، وأصبحت طيّ النسيان. فشرعت في الاقتصاص من بعضها بالطمع والقتل والخداع»[7]. هذا ملخص للرواية يرينا الوظيفة الحقيقية للرواية داخل المجتمع الذي تستل منه بواقعيتها الفنية. لو طالعنا آية رواية غربية، أو عربية، أو عراقية، لرأينا ان الكاتب يسمي شخوصه أسماء لا يكرر اطلاقها على شخوص آخرين فاعلين في الرواية. وفي الوقت نفسه نرى بعض الروايات، وهي قليلة جدا، فيها شخوص تحمل الاسم ذاته. فما هو السبب في ذلك؟ هل السبب من الكاتب الذي يطلق تسميات على شخوص نصوصه السردية؟ أم انه من العمل الابداعي، حيث يفرض على الكاتب أسماء شخوصه فرضا، تمشيا مع البيئة والمجتمع الذي نهل منه حكاية روايته؟ ولكي تكون دراستنا موثقة بالأمثلة التي تجعلها دراسة ذات شأن في سلسلة الدراسات عن الرواية والسرد بصورة عامة، وهو في حالة التطور والصيرورة، سنقوم بتفكيك العمل الروائي وصولاً إلى عنصر من عناصره، وهي الشخصية، لندرسها من ناحية الأسماء التي أطلقت عليها. لهذا فان الدراسة هذه غير معنية بتحليل الشخصية من كل جوانبها النفسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية...الخ، بل هي معنية بأسماء الشخوص فقط.

تنوعت، وتعددت، أسماء شخوص الرواية العراقية، كمثيلتها الأجنبية، والعربية، وفي هذه الدراسة سنضع رواية غائب طعمه فرمان «النخلة والجيران» تحت مبضع الدراسة والفحص، لاستجلاء الأسماء التي ضمتها هذه الرواية. والاجابة عن السؤالين اللذين طرحَتْهما الدراسة في المقدمة.

نجد ان « النخلة والجيران» تضم أكثر من «35» شخصية، توزعت على نوعين، هما:

النوع الأوّل: الشخصيات الرئيسية التي تؤثر في أحداث الرواية:

هنالك شخصيات كثيرة تؤثر مباشرة في أحداث الرواية وهي:

- سليمة (خاتون) الخبازة. ابن زوجها حسين. مصطفى أحمد الدلّال (أبو ابراهيم). أسومة العرجة، وزوجها مرهون السايس (ابن الحجية عمشه)، وأبو قنبورة. حمادي العربنجي (أبو شيبة كما يسميه حسين)، وزوجته رديفة، أم خشم الأقجم. خيرية (الحكومة الله يسلمها)، وزوجها رزوقي الفراش. تماضر. صاحب أبو البايسكلات

(أبو مهدي). محمود ابن الحولة. الخالة نشمية. الأرمني(خاجيك، خاصيك).
هذه الشخصيات تلعب دورا كبيرا في رسم أحداث الرواية. فهي من الأبطال/ الفاعلين/ العاملين الاجتماعيين، ويمكن أن نطلق عليهم أي مصطلح من المصطلحات التي تقدم ذاكرتها، ولهما الدور الكبير في الأحداث. كما ان كل واحد منهم يشكل «حالة» ما في العمل الابداعي هذا.

النوع الثاني: الشخصيات التي لا أثر لها في الرواية:

هذه الشخصيات أمّا انها تدخل عرضا في أحداثها، أو ترد في استذكارات بعض الشخصيات الرئيسية، مثل:
- عليوي أبو حسين المتوفي. فتحية بائعة الباقلاء. الفتاة بدرية. السكران في الحانة. أبو فتوحي. أبو رمزي. سيد مختار. أبو صماخ. أبو العليجة. الأصلع الذي يريد يشتري العربة. والأسود المرسل من قبل حاج أحمد آغا. الشاب الأحول الذي يتكلم مع حسين قرب دائرة المفوضية البريطانية. ابن مروكي صاحب الحانة. علوان أبو الجص. أحمد الجايجي. طه، جاسم، اللذَين يقدم لهما مصطفى المال كدَين. عمران المضمنجي. جانيت البائعة. المسلول في الفندق. الساقي في البار. ماري فتاة البار. حاج أحمد آغا. جاسم المزين. رديف حبيب الخالة نشمية. الملا حمادي صاحب مقهى. تسواهن. وغيرهم. هذه الشخوص تدخل الرواية دون آية فاعلية، انها كالشخوص التي ترد في الأحلام، فهي لا تأثير لها، انها عبارة عن صورة لا واقع لها، لهذا فهي ليس لها تأثير في النص السردي.

ان شخصيات الرواية الخمس والثلاثين، توزعت على نوعين، هما:
* النوع الأوّل: ويضم الشخصيات التي لها أثر في الرواية.
* النوع الثاني: ويضم الشخصيات التي لا أثر لها في الرواية.
وبين هذين النوعين، شخصيات تتشابه بالأسماء، إلّا انها تختلف في:
- المهنة.
- الجنس.
وهذا يعني ان الكاتب قد أعطى احدى الشخصيات دورا رئيسيا في عمله الابداعي، ورسم ملامحها، وكل شيء فيها، وأخبرنا عن أفعالها، وأهمل الأخرى، إلّا انه ذكرها، أمّا في حوار عابر بين الشخوص الرئيسية، وأمّا انها مرت كذكرى من ذكريات أحد الشخوص الرئيسة. «فشخصية رديفة»، «أم خشم الأقجم» كما يسميها زوجها «حمادي العربنجي»، هي واحدة من الشخصيات الرئيسية، وهي مؤنث «رديف» الشخصية الذكورية التي تتذكرها الخالة نشمية على انه كان يبادلها الحب في صباها قبل أن تتزوج، في حوارها مع «تماضر». وكذلك بين»حمادي العربنجي»، احدى الشخصيات الرئيسية و»الملا حمادي» صاحب المقهى. إذن هناك شخصية رئيسية فاعلة، وشخصية ثانوية غير فاعلة إلّا انها تحمل الاسم نفسه، والفرق بينهما هو التأنيث والتذكير، أو المهنة.هذا التشابه وقع بين اسم شخصية انثوية، وبين اسم شخصية ذكورية. لهذا فلا يحسب تشابها لاختلاف الجنس، والفاعلية. وهذا ما تتطلبه الرواية في كثير من الأحيان، لمعرفة قدرة الكاتب على بناء شخوص روايته رغم اختلافهم بالجنس، وتشابههم

بالاسم. إذ أن لكل شخصية ملامحها الداخلية والخارجية. أمّا التشابه الحاصل بين»حمادي العربنجي»، احدى الشخصيات الرئيسية في الرواية، وبين»الملا حمادي» صاحب المقهى، الذي يذكره حسين مرة واحدة عندما يمر على مقهاه، فهو تشابه قائم في الأسماء على الرغم من اختلاف المهنة، حيث ان المهنة تسمية أخرى تطلق على أي شخص لا يحمل اسم يعرف به، وهو هنا كذلك، لا يعد تشابها، ما دام لا يؤثر في مجريات أحداث الرواية. ان هذه الشخصيات من النوع الثاني ترد في كلام الشخوص الآخرين من النوع الأوّل، ولم يكن لها تأثير يذكر في الرواية. انها عبارة عن شخوص مادية، محسوسة، إلّا انها تأتي بشكل عابر. ترى هذه الدراسة ان ذكر هذه الشخصيات في حالة تشابه الأسماء في العمل الابداعي السردي، مع اختلاف في التصنيف لسبب أو آخر، جاء لأسباب منها:

- ان الكاتب قد استوحاها من الواقع الذي ينهل منه، خاصة ان رواية «النخلة والجيران» هي من روايات الواقعية، وهي تروي عن شخوص سحبها الروائي من قاع المجتمع الواسع في الفترة الزمنية التي يتحدث عنها، وبنى عليها أحداث روايته.
- أو ان الكاتب في وعيه، أو لا وعيه، قد أطلق هذه التسميات، كي تفرز الشخصية الواحدة عن الأخرى. وهناك أشخاص لا أسماء لهم سوى انهم يصنفون حسب مهنهم، أو جنسهم، أو احدى صفاتهم الخلقية، أوالخُلقية. وهذه التسمية تتكرر مرة، وثانية، ولا يعد هذا تكرارا، لأنه لا تأثير له في مجريات الرواية. ان مثل هذه الشخصيات تبقى بدون محددات، وانما تعرف بمهنهم، أو جنسهم، أو أي صفة أخرى، لأنها شخصيات غير منجزة، وغير فاعلة ميدانيا. واذا سحبنا هذا القول على كل الأعمال الابداعية/السردية،العراقية،والعربية، والأجنبية، فانه يشملها كلها، وبلا استثناء، لأن العمل الابداعي/السردي هو عمل ابداعي عن الواقع المعاش، مهما صيغ، ومهما كان للمخيال من دور في هذه الصياغة الابداعية له. ان «النخلة والجيران» عمل روائي كبير في الفترة التي نشر فيها وما زال محافظا على قيمته الابداعية التي تكون كالبرزخ الذي يفصل بين الرواية العراقية التي كتبت قبل صدورها، وهي روايات غير ناضجة فنيا، ولم تمتثل للاشتراطات العامة للرواية الفنية الناضجة، كروايات ذو النون أيوب، وعبد الحق فاضل، وبين الرواية العراقية التي كتبت بعدها، الرواية التي يمكن أن نقول عنها انها وصلت لحد النضوج الفني، والكمال الابداعي، وامتثلت للاشتراطات العامة للرواية الفنية الناضجة، كروايات عبد الرحمن مجيد الربيعي، وروايات فؤاد التكرلي، وروايات عبد الخالق الركابي، وروايات مهدي عيسى الصكر، وروايات أحمد خلف، وروايات لطفية الدليمي، وغيرهم العشرات من كتاب الرواية العراقية الذين انتجوا روايات فنية ناضجة.

ان مئة عام مرت على كتابة أوّل رواية عراقية هي فترة غير طويلة في تاريخ الأدب السردي إذ ان الرواية تحتاج إلى تأن، واختمار، في كتابتها، وهذا ليس بعيدا عن كتابتها في مصر مثلا التي سبقت العراق بأعوام كثيرة في الكتابة السردية منذ أن كتب محمد إبراهيم عبد الخالق المويلحي (1858 - 1930) روايته «من حديث عيسى ابن هشام» حتى آخر رواية مصرية.

الهوامش:

(1) يمكن مراجعة كتاب الدكتور عبد الله ابراهيم «موسوعة السرد العربي»- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت - 2008. لأخذ فكرة عن السرد العربي القديم.

(2) داود سلمان الشويلي- الاشتغال الفضائي في المجموعة الشعرية «خطأ في رأسي» للشاعر زين العزيز- جريدة الحقيقة- السنة الثالثة- العدد 787 آيار -2016 ص9.

(3) برأينا المتواضع فاننا نعد الحكاية، والاسطورة، والخرافة، هي الأساس المتين لفنون السرد المعاصرة كالرواية، والقصة القصيرة، والقصيرة جدا.

(4) نشأة القصة وتطوّرها في العراق -1908- -1939 عبد الاله أحمد - مطبعة شفيق- بغداد -1969- ص6.

(5) المصدر السابق - ص56.

(6) النخلة والجيران - غائب طعمة فرمان - بيروت - 1966.

(7) الروائي - مجلة الكترونية تعني بشؤون الرواية- د.عبدالله إبراهيم - عن النخلة والجيران - 15 / 8 /2010.

نِساءٌ وَمَنادِيلُ*

يوسف ابو الفوز

(... مثل الجفافي ...)

تعلمت ان تروض نفسها. تحسب خطواتها المرتجفة، كلماتها المترددة، حركة شفتيها الجافتين، مكياجها الخفيف لاخفاء شحوب وجهها، لون الكحل تحت عيونها الوجلة، طريقة جلوسها الى الكرسي ايضا...

ـ ابنتي، عيون الناس لا ترحم وأنتِ ...

ما أن اجتازت باب القاعة الرئيسي، حتى هاجمتها وواجهتها الاضوية المشعة، اللافتات الملونة، البالونات في صدر القاعة مع باقات الورد البلاستيكي وابتسامات نساء ورجال التشريفات الذين صاحبوها خطوة خطوة وهي تتجه نحو مكانها في مقدمة الصفوف. شعرت أن ظهرها النحيل تخترقه عشرات الازواج من الأعين المتفحصة لكل شيء فيها وتتابع خطواتها. رجال ونساء مجهولين لها، لكنهم يعرفونها جيدا. بعضا منهم قابلته في مناسبات سابقة، ربما تحدثت معهم، ربما شدوا على اصابعها النحيفة المرتجفة، حدقوا في عينيها الذابلتين الوجلتين وسمعت كلماتهم المعادة التي يقولونها دائما بصوت خافت، بتلك النبرة التي صارت تؤلمها. تعرف ان كثيرين ربما حتى نسوا اسمها، وحتى ان عرفوه فهم يتجاهلونه، لم تعد بالنسبة لهم سوى:

ـ ارملة الشهيد!

طلقات كاتم الصوت الجبان، التي تسللت تحت الظلام في غفلة عن يقظة حبيبها الذي عرف بين اصحابه بأنتباهته وذكائه، رسمت مسار حياتها الجديد تحت عنوان في بدايته كان مبهرا ومشرفا، لكنه يوما بعد اخر صار ثقيلا جدا:

ـ أرملة الشهيد!

سنوات وهي تتحرك داخل هذا الأطار المعقد. في البدء كانت تتفاخر به كثيرا، لكن ما ان راح الاخرون يدفعونها اليه، مستغلين حبها ووفاءها لحبيبها، حتى صارت تضيق منهم. في كل مناسبة، في كل حدث يرن هاتفها المحمول الذي صار الجميع يعرفون رقمه:

ـ ولأحياء هذه المناسبة قلنا ان من المفيد ان تشارك ارملة الشهيد لذا اتصلنا بك ونعتقد ان ...

صارت تعرف متى يستدعونها ومتى يتذكرونها. تعتقد انهم يضعون اسمها في نفس القائمة لتهيئة قماش اللافتات

والبالونات والورد الاصطناعي. اذكياء في استغلال حبها ووفائها لحبيبها. تنتهي الاحتفالات الصاخبة ليعودوا الى زوجاتهم واطفالهم وصخبهم وتعود الى غرفتها حيث صورته المأطرة بالاسود لترى وجهه النحيل وعينيه الواسعتين تلومناها بأستمرار. حبيبها سبق الجميع في رؤياه لهذه الايام، وكأنه يستشف أيامها القادمة:

ـ لا أريد لنبرة الشفقة ان تحيط بك وبحياتك.

قالها وكانت قد مرت بضعة اسابيع على اغتيال أحد أصحابه المقربين. ظل لايام حزينا مهموما، يجلس الى النافذة القريبة يحدق الى الفضاء البعيد وعيناه تلمعان بالدمع. وقف عند باب الحمام بجسده النحيل، يفرك بالمنشفة شعر رأسه الكث، ثم فجأة ناداها بنبرات كانت تخشاها، اذ طالما ما سمعت منه أراء حازمة وواضحة يقولها بتلك النبرة التي تلازمه بعد تفكير عميق:

ـ حبيبيتي، اتعرفين بماذا كنت أفكر وانا تحت رشاش الماء؟

من أين لها ان تعرف أي رؤيا خطرت له هناك وهو يتطهر من غبار وتعب نهارات العمل المضني في المستشفى، وفي رأسه وروحه تتفاعل افكار حية واحلام نضرة لحياة جديدة للبلاد لما بعد سقوط صنم الديكتاتورية؟

ـ الظلاميون لن يتوقفوا عن محاولاتهم لقتلنا، فنحن من نقف بوجه مشاريعهم الظلامية، وأعرف ان اسمي، مثل كثيرين، على لائحتهم ...

وارتمت على صدره المبتل، فاحتواها بذراعيه الحانيتين والقويتين، ورفع باطراف اصابعه وجهها، لثم شفتها وواصل:

ـ لو ... اقول لو نجحوا ...

وغامت عيناها وشهقت:

ـ كيف لي بالحياة من دونك؟

ابعدها عنه قليلا، ولكنه لم يفلتها من بين ذراعيه:

ـ بالضبط هذا ما اريد قوله لك يا حبيبتي، علينا ان نقول لهم بشكل فعلي ان حياتنا لن تتوقف، وعليك ان تواصلي الحياة لا تجعليهم ينتصرون علينا بمفخخاتهم وبرصاصات غدرهم، فالحياة لا تتوقف عند موت رجل او امراة!

كيف لها ان تكون قوية مثله، وهو يحلم بالمستقبل البعيد؟

ـ نحن لا نعمل لحاضر قريب، نحن نعمل لمستقبل ربما لن نراه، لاجيال يجب ان لا تعاني مثلما عانت اجيالنا!

كيف لها، ان تخرج من إطار حبها له، وتتفهم حبه للناس والحياة:

ـ نذرنا نفسنا لفكرة سامية، وعلينا ان نكون مخلصين لسمو هذه المباديء وليس لذواتنا!

كيف لها ان تكون مثلما يريد حبيبها والاخرين يطوقونها بأسمه ويستفزون حبه لها ووفاءها له. لم تعد عندهم اكثر من كونها:

ـ ارملة الشهيد!

في الاحتفالات، المناسبات، المهرجانات والاجتماعات، لها كرسي محجوز دائما، في الصفوف الاولى، ما ان تصل حتى تسمع الهمس بنبرات خافتة:

ـ وصلت ارملة الشهيد!

ـ افسحوا الطريق لارملة الشهيد!

ـ هات نسخة من البرنامج لارملة الشهيد!

ـ ..... !

دائما هي هناك، في الصفوف الاولى، خافضة العينين، شاحبة الوجه، مكللة

بالسواد، تتخاطفها عدسات المصورين، الى جانب القادة وجلاس الكراسي الامامية بربطات عنقهم البراقة وكروشهم المندلقة، صورها تظهر احيانا في الصحف وبخط عريض يكتبون تحتها:

ـ ارملة الشهيد!

اذ تمر بين صفوف الناس، ينحنى لها بعض الواقفين احتراما بصدق ومحبة، ترتفع الايدي تحييها، ابتسامات تفترش الوجوه، وتسمع الهمس والاعين تشير لها خفية:

ـ ارملة الشهيد!

امها وعمتها وزوجة خالها، وكأنهن متفقات:

ـ ابنتي، انت عاقلة وذكية، انت ارملة شهيد كان اسمه يهز جبال كردستان، انتبهي الى نفسك، عيون الناس لا ترحم، فأنتبهي الى ...!

صارت تخاف صوتها، صارت تخاف الوقوف الى المرآة لتتملى وجهها وجسدها الناحل، لم تعد تبال للتجاعيد التي صارت تظهر تحت عينيها، لم تقرب طلاء الاظافر من سنين، في خزانتها تتكدس ألبسة من لون واحد، ملابسها الداخلية وقمصانها وثيابها من لون واحد. الاسود ولا لون غيره. أختها التي تشابهها في القياسات ولم تتزوج بعد، لم تعد تشتري لنفسها اي ثياب بلون اسود، ففي خزانتها تجد كل ما تريده، فالاسود هو عالمها. اختفت الاغاني والموسيقى من سماء روحها، لم يبق سوى صدى لاغان سمعتها يوما وطربت لها، واهتزت لها شغاف قلبها ...

(ثاري البنات اشكال .... !)

هز منديله، ضرب الارض بقدمه فتطاير التراب فأشاح القريبين منه وجوههم واشرأبت برقبتها من خلف كتف اختها تنظر الى قامته الناحلة، وعينيه تلاحقانها وعيون امها تفيض بنظرة فرح غامضة. سنين طويلة، لم تقرب المذياع لترفع صوته بأغان طالما سمعتها واياه. كان يملأ لها حياتها، لم تستطع بعد غيابه ان تتصور انه يمكن لرجل غيره ان يملأ غيابه في حياتها. تقدم العديدين لخطبتها، اعتذرت للجميع. شعرت بالقرف من اللذين فهمت انهم يريدون الزواج من ''ارملة الشهيد''. لم تعد تعرف من عالم الرجال سوى التحايا والايماءات. يوم ان صافحها أحدهم بحرارة، همست عمتها:

ـ لم اطلتِ الوقوف معه؟

ـ كان من اصحاب زوجي!

ـ لكن هذا الرجل بالذات يوجد عنه قصص كثيرة مع النساء و ...

ـ وهل تظنين يا عمتي أني سأكون في قائمة نسائه بمجرد ان رددت عليه تحيته وسألته عن زوجته واطفاله؟

صارت تخشى ان تصافح من لا تعرفهم، ترى في العيون مشاعر القلق والتضامن والشفقة، ويوم صافحها أحدهم وضغط باصابعه على باطن كفها ظلت لايام ترتجف. ماذا كان يريد منها؟ ماذا كان يقصد بتلك الاشارة؟ هل كان ذلك عفويا؟ ام انه كان متقصدا؟ وماذا كان يريد؟ لم تعد تعرف من عالم الرجال شيئا؟ بل وتكاد تنسى نفسها وجسدها. حين يقبلها اقاربها وناسها على وجنتيها او جبينها كانت تشعر بحمى تلتهب تحت جلدها. صار جلدها يتحسس لكل فعل خارجي. اختها انتبهت الى ان وقت اغتسالها واستحمامها صار قصيرا على غير عادة النساء. صارت تخشى الانفراد

بجسدها الناحل. اذ تنام ليلا صارت تضع ذراعها تحت الوسادة. كان حبيبيها قد انتبه الى طريقتها في النوم وهي تضع كفيها بين ساقيها المضمومتين، فأبتسم مشاكسا بشكل فاجأها:

ـ اتحمين شيئا هناك؟

كان الرجل الاول في حياتها. من سبقوه لم تجعلهم يقتربون منها كثيرا لتعرف منهم شيئا من عالم الرجال كما تسمع من صاحباتها وقريباتها وقصصهن. ابن الجيران الذي لاحقها طويلا، اذ شعر بأنها تستهويه راح يقذف لها رسائل ملفوفة بحجر، واكتشفت انه يكتب لها كلمات اغاني من الافلام الهندية التي يدمن مشاهدتها، فكفت عن متابعته عبر الحائط المشترك بين بيتيهما. حبيبها كان اول رجل تلامس اصابعه جسدها تحت ثيابها. تزوجا عن اعجاب متبادل سرعان ما تحول الى حب متكافيء. سمعت عنه كثيرا من اقرباء لها، عن ايام وجوده في الجبل ومقارعته للنظام الديكتاتوري. ابوها كان يعتبره بطلا لا يتكرر:

ـ هذا رجل لا يوجد مثيل لشجاعته، يأخذ طعامه من فم الاسد!

يوم حضرت زواج بنت عمتها كان هناك. مر بقربهما حين قالت اختها بصوت سمعه:

ـ أهذا هو؟

والتفت والتقت عيناهما وأبتسم، فلم تستطع الا ان ترد بأبتسامه. لم يكن يكبرها كثيرا كما قالت عمتها. نحول جسده يجعله يبدو أصغر سنا. في الحفل تطايرت الاغاني والدبكات، لمحته كيف طرب كثيرا لاغنية صارت لاحقا تتردد كثيرا في بيتهما المشترك:

(ثاري البنات اشكال مثل الجفافي
بيهن تخون بساع وبيهن توافي)

لوح بمنديله وهو يدبك، يبدو ان كونه طبيبا بين المقاتلين، لم يمنعه من تعلم الدبكة جيدا. قيل لها انه كان يحضر المعارك كطبيب وكمقاتل. وصفوه بالجرأة التي لمستها وهو يرمقها عدة مرات بنظرات متفحصة، فأصلحت من منديلها على كتفيها، لمحت امها وعمتها يتابعن نظراته اليها. بعد أيام جاءتها اخته واختلت بها طويلا وجعلتها تغط بالعرق وهي تسمعها كلامه. بعد اسبوع لم تتفاجأ حين اخبرتها امها بقدوم بعض وجهاء المدينة لخطبتها له. ليلة الزفاف لم يقربها وتركها يومين ترتب قلقها. كان يقدر خجلها وارتباكها، وحين انتهى كل شيء، وهي تشهق كأنها تغوص في ماء عميق، أطلق ضحكة مجلجلة:

(ثاري البنات أشكال .... !)

كل هذا صار حلما. حلما مرّ وانتهى وصار بعيدا. تشعر احيانا بنظرات شبقة تتطاير من أعين رجال يصادفونها، فترثي لهم ولحالها. لم تستطع ان تكون وفية لوصية حبيبها، ان تواصل حياتها مثلما كان يريد، ان تعشق من جديد وتحب من جديد وان ترقص وتغني وتشهق وتغرق في مياه عميقة مع رجل غيره. حياتها توقفت حالما انطلقت رصاصات الغدر التي سلبت منها كل ملابسها ومناديلها الملونة والمزخرفة، طلاء اظافرها، ملابسها الداخلية الملونة، ثيابها القصيرة وتنانيرها المزخرفة بالدانتيلا، اغانيها والاشعار وطعم القبل وسر الشهيق.

يوما، وجدت نفسها لوحدها امام خزانة

ملابس اختها فأرتدت دون وعي منها وعلى عجل أحد فساتين أختها الملونة. في المرآة اكتشفت نحول جسدها، تهدل نهديها، وتغضن جلدها. واجهتها أمراة ثانية لا تشبهها، لا تعرفها، امراة صارت تختفي خلف اسم اخر، جمالها بارع، لكنه خاص جدا، أمراة رقص قلبها يوما على ايقاع اغنية بعيدة ...

(ثاري البنات اشكال مثل الجفافي!)
31 آب 2012 هلسنكي

---

* القصة من مخطوط " بعيداً عن البنادق" معد للنشر، يحاول فيه الكاتب تسليط الضوء على حياة الانصار ما بعد نهاية حركة الكفاح المسلح، ورصد آمالهم، وذكرياتهم وخيباتهم وطموحاتهم!

(أل زهايمر)

طه الزرباطي

أشتَهي بَحْراً أغرَقُ فيهِ ،
مَوجَاً يَطعَنُني بِخَناجِرِ مائِهِ،
أسماكَ قِرْشٍ تُطارِدُ خَوْفِي ؛
تُحِيلُني ذرَّةً تَنْفَجِرُ ،
يومَ قِيامَةٍ تُنهي هذهِ المَهْزَلَةَ !
أيَعلمُ جايكوفسكي ؟
أنَّ روُحِيَ تَلَبَسَتْ بَجعَةً بَيْضاءَ ؛
وَتَراً قَلِقَاً في بيانو عَتيْقَةٍ ؟
حينَ أُراقِبُ حَباتَ المَطَرِ ،
أسمَعُ مُحاوَلَتَها للغِناءِ ،
مُحاولاتِها لِلبُكاءِ ،
مُحاوَلاتِها لِلبوْحِ ،
يَتَرَكبُني حُزنُ المُوسيقى ،
أشعُرُ مَعَ كُلِّ قطرَةٍ ،
بِنَشْوَةِ الرُّابِ ؛
بِشَهْوَةِ الذِكرى حينَ تَنْشُبُ ،
أفتَحُ أسرارَ زهورِكِ نَبْضَاً،
أمنَحُ الإرضَ طُمأنينَةً ،
(أسْكُبْني) في راحَتَيْكِ ،
شِميني ..

(استَنْشِقيني)...
كي أسكُنَ رئتَيْكِ ..
لِلْحيلولَةِ من ثَلْجِ نِسيانِك ؛
حين يُداهِمُني أل زهايمر ..
وَيَمسَحُ ذاكِرِي ؛
بِشَمي أتَذَكرُكِ ،
بأطرافِ أناملِي ؛
التي مارَسَتْ رِحْلَتَها فيك ،
ولو في خَيالٍ جامِحٍ لِنَهْرٍ غَرِيْبٍ !
أعودُ طِفلا أُمِيَّاً ...
سأكتُبُكِ شِعْراً مِنْ غيْرِ كَلِماتٍ ،
مَخافةَ أنْ تخونَني الكلِماتُ ،
ذاتَ نِسْيانٍ لاذِعٍ ...

قدْ أنسى أنَني نَسَيْتُ ...
وأشرَبُ كأساً من ذاكِرة القُبَلِ ؛
أتناوَلُ لمسَةً من ارتِجافَةِ يَدَيْك ،
أُلملِمُ البَرْدَ من أطرافِ أنامِلِكِ ،
أكتُبُ االأجوبَةً عن أسئلَةِ شفَتَيْكِ ،
وأُخبِرُكِ للمرّةِ الإلفِ أني أُحِبُكِ ،
وفي كُلِّ مَرَّةٍ أحِبُكِ بِطريقَةٍ أُخرى ؛
بِقَلْبٍ آخَرَ ،
بِلوعَةٍ أُخرى ؟
أُخبِرُ بُكاءَكِ بأفراحِي ؟
فرحَةً ...فَرْحَةً ؟
كَيْ ترسُمَ ابتِسامَةً مُبهَمَةً كمونالِيزا ....
هلْ هو ذا شارِعُنا ؟
الذي مارَسْتُ فيهِ ذاكِرَتي ؟
بِبَذَخٍ ..؟
أسمَعُ جايكوفسكي حيثُما ذَهَبْتُ
هلْ كُنْتُ بَجْعَةً في بُحَيْرَتِهِ ؟
هلْ شارَكتُ بتهوفن فقدانَهُ السَمْعَ ؟
كيفَ كُنْتُ أسمعُ أوتارَ شَعْرِكِ اذنْ؟
بروحِي ،
بيَديَّ ،
بأهدابِ كلماتي ،
بِنَبضِيَ ،
بالجِمْهورِ ؟
هلْ سأتَوقَفُ عن حُبِكِ ؟

او هلْ تَخونُني ذاكِرَتي ؟
تُرى تفكرينَ بِمَنْ ؛
حينَ لا أُجيدُ التَذَكُرَ ؟
وأنتِ تتَوسَدِيْن يدَيْكِ !؟
حينَ تشعُرينَ أنك تَجْتاحِينَ قَلَقاً لَذيْذاً ؟
رُبَما الانَ نُفكِرُ بِبَعضِنا ،
رُبَما ندخُلُ أفكارَنا ،
ربَما أقولُ ما لمْ أجرؤ على قولِهِ بَعْدَ قَرنٍ ؟
رُبَما اتَناوَلُ حَبيّْ عَنَبٍ من عُنْقودَيْكِ ،
أو أذوِّبَ الكرَزَ من شَفَتيكِ ،
رُبَما أشعِلَ آخِرَ حَرِيْقٍ قبْلَ نِسْيانِك ؟!
رُبَما سَتَقِفُ قُصَتُنا فُجأةً ،
كَشَجَرَةٍ وَسَطَ الطَريقِ ،
أشبَعَها العابِثونَ حَجَرا ،
ليسَ طَمَعاً في ثمَرِها ؛
إنَما تَمريناً في الرِمايَةِ ؛
ألا يَرْمونَ الشيطانَ ؟
لِتَمْرَحَ شياطينُ ذَواتِهِمْ ...
أضحَكُ على نَصيَّ ؛
حينَ أخرُجُ عنْ حُدودِهِ ..
الى النِسْيانِ ؛
فأتَذَكَرُ أنَني نَسَيْتُكِ ..!

طه الزرباطي 16/7/2022

كيف أطعم قروي اثنين من المسؤولين الحكوميين
قصة:سالتيكوف شيدرين*

قصة:سالتيكوف شيدرين*
ترجمة: عبد الجبار ناصر**

أديب روسي ساخر كبير في القرن التاسع عشر. قضى معظم حياته يعمل كموظف حكومي بصفات مختلفة. ومع أنه ولد في أسرة إقطاعية، إلا أنه ذاق مرارة الجوع والحرمان منذ نعومة أظفاره، وتعرف على ضروب الظلم والاستبداد حتى في جو الإسرة، حيث كان وأخوته غالباً ما ينامون على الطوى، وتنزل بهم أقسى العقوبات لإتفه الإسباب. دخل ميخائيل سلتيكوڤ المعروف بالاسم المستعار نيقولاي سلتيكوڤ شيدرين تاريخ الإدب الروسي والعالمي من بوابة الإدب الساخر، الذي كان واحداً من الإدوات التي استخدمها الديمقراطيون الثوريون الروس في الصراع ضد النظام القيصري وجهازه البوليسي البيروقراطي، من أجل غرس الحقد والكراهية تجاه ممارسات الظلم والاسترقاق في نفوس أبناء الشعب. إضافة إلى القصة القصيرة والطويلة والرواية، كتب شيدرين الكثير من الحكايات الشعبية التي يربو عددها على الثلاثين، وكلها ذات نَفَس ديمقراطي ثوري، وتعالج الموضوعات التي يتناولها في أعماله القصصية والروائية الإخرى. ظل شيدرين منكباً على التأليف إلى أن وافته المنية في سان بطرسبورغ مخلفاً موروثاً لا يزال يشغل واحدة من المراتب الإولى في الإدب العالمي، وترفي مؤلفاته الساخرة إلى مصاف عيون هذا الإدب وروائعه.

ذات يوم، وجد مسؤولان كبيران محدودا التفكير نفسيهما فجأة في جزيرة غير مأهولة، وكأنهما قد نُقلا إليها على بساط سحري!
كان الرجلان قد أمضيا كل سنين عمريهما في دائرة حكومية تُحفظ فيها سجلات الدولة؛ هناك وُلدا، وهناك ترعرعا، وهناك شاخا، وبالتالي، لم يكن لديهما أدني تصور عن أي شيء خارج جدران الدائرة. الكلمات الوحيدة التي أجاداها كانت: "تقبلوا فائق التقدير.. خادمكم المتواضع."
إلا أن الدائرة أُلغيت، وبذلك أُستغني عن المسؤولَيْن، ولم تعد خدماتهما مطلوبة، فمنحا حرية الخروج. انتقلا للسكن في شارع "بودياجيسكايا"، ولكل منهما راتبه التقاعدي الخاص.
استيقظا على تلك الجزيرة النائية وسط

ستاليكوف شيدرين

المحيط، واكتشفا أنهما معا تحت غطاء واحد. في البدء، طبعا، صعب عليهما إدراك ما وقع لهما، فتبادلا بعض العبارات وكأن لا شيء غير عادي قد وقع.

قال أحدهما بصوت مرتجف: "صاحب السعادة.. يا له من حلم رأيته البارحة! رأيت نفسي كما لو كنت في جزيرة غير مسكونة!!"

ما أن تلفظ بتلك الكلمات حتى قفز واقفا، وكذلك فعل الآخر.

تساءلا ذاهلين: "يا إلهنا! ماذا يعني هذا؟ أين نحن؟"
حدّق أحدهما في الآخر بإمعان ليتحققا أنهما لا يحلمان. اقتنعا أخيرا بالواقع المحزن الذي كانا فيه.
المحيط الواسع ممتد أمامهما، وبقعة صغيرة من الأرض وراءهما وبعدها يمتد المحيط مرة أخرى. أجهشا في البكاء- لأول مرة منذ إغلاق دائرتهما.
تبادلا النظرات، ولاحظ كل منهما أن الآخر لا يرتدي سوى ثوب النوم، وحول رقبته يتدلى أمر إحالته على التقاعد.
قال أحدهما: "علينا حقا تناول قهوتنا الآن" لكنه حين تذكر وضعه عاود البكاء.
قال مختنقا بعبرته: "ماذا سنفعل؟ حتى لو افترضنا أن علينا إعداد تقرير، ما الفائدة المرجوة منه؟"
أجاب المسؤول الآخر: "هل تعلم يا صاحب السعادة ما علينا فعله: تذهب شرقا، وسأذهب غربا. وقبل حلول الظلام نعود إلى هذا المكان ثانية، فلعلنا نعثر على شيء."
راح الاثنان يتحققان أية جهة هي الغرب، وأية جهة هي الشرق. تذكرا ما قاله لهما يوما رئيس الدائرة: "إذا أردت معرفة موقع الشرق، أدر وجهك إلى الشمال، عندها سيكون الشرق على يمينك." حاولا أن يجدا اتجاه الشمال، استدارا يسارا ويمينا وتطلعا إلى كل الجهات. لم تجدِ جهودهما شيئا لأنهما أمضيا عمرهما في دائرة السجلات.
قال أحد المسؤولَيْن، والذي لم يخدم فقط في دائرة السجلات، بل عمل أيضا معلما للكتابة اليدوية في مدرسة جنود الاحتياط، وبذلك كان أذكى من صاحبه بفارق ضئيل جدا: " في رأيي، يا صاحب السعادة، إن أفضل ما يمكن فعله أن تذهب باتجاه اليمين، وأنا باتجاه اليسار."
هذا ما قيل، وهذا ما جرى. ذهب أحدهما ناحية اليمين. وصل إلى أشجار محملة بكل أنواع الفاكهة. تصور نفسه فرحا وهو يقطف تفاحة، لكن كل الثمار معلقة عاليا ووجب عليه التسلق كي يقطفها. حاول التسلق عبثا. كل ما نجح فيه كان تمزق ثوب نومه. فوجئ بعد حين بوقوفه على ضفاف جدول تتلاطم فيه الأسماك.
فكّر وقد سال لعابه: "أليس رائعا لو كان لدينا كل هذا السمك في شارع بودياجيسكايا!"
واصل طريقه متوغلا في غابة فباغته وجود طيور الدرّاج والطيهوج، والأرانب البرية.
صاح وقد أشتد جوعه: "يا إلهي، يا له من طعام وفير!"
كان عليه العودة إلى نقطة الالتقاء خالي الوفاض. وجد الموظف الآخر في انتظاره.
"حسنا، كيف سارت الأمور مع سعادتك؟ هل وجدت شيئا؟"
"لا شيء سوى عدد قديم من صحيفة (موسكو غازيت)، لا شيء غيره."
استلقيا للنوم ثانية، لكن خواء معدتيهما لم يمنحهما الراحة. سلبت نومهما جزئيا فكرة من يتمتع بمعاش تقاعدهما الآن، وجزئيا ما رأوه في النهار من فاكهة وأسماك ودرّاج وأرانب برية.
قال أحدهما: "غذاء الإنسان في شكله الأصلي يطير، يسبح، ينمو على الأشجار، من تراه فكر بذلك يا صاحب السعادة؟"
رد المسؤول الآخر: "بصراحة، أنا أيضا لا بد أن اعترف بأني قد تخيلت أن لفات إفطارنا قد وُجدت في الدنيا كما كانت تظهر على الطاولة."

"يُستدل من ذلك أنه لو أردنا أن نأكل درّاجا، علينا الإمساك به، قتله، نتف ريشه وشويه. لكن كيف يتم ذلك؟"

"نعم، كيف يتم ذلك؟" كرر المسؤول الآخر. عاودا محاولة النوم، لكن جوعهما أرعب الرقاد وأبعده. تراءت لهما أسراب من الدرّاج والبط، وقطعان من الخنازير الصغيرة، يغطيها الدهن، ويزخرفها، بطريقة شهية مثيرة، الزيتون، والشفلح والمخللات.

قال أحدهما: "أظنني سألتهم حذائي الآن."

عقّب المسؤول الآخر: "القفازات ليست سيئة أيضا، خاصة أنها وُلدت في غاية النعومة."

حدّق أحدهما في الآخر بنظرات ثابتة. برقت عيونهما بشر مستطير، وصرّت أسنانهما، تردد من صدريهما أنين خافت. دنا أحدهما من الآخر ببطء. انفجرا في خبال مخيف. فجأة، تعالى الصراخ والتوجع، وتمزق ثوباهما. المسؤول الذي سبق له أن كان معلما للكتابة اليدوية بلع أمر تقاعد صاحبه، إلا أن منظر الدم أعاد المسؤولَين إلى رشدهما.

صرخا في آن: "ليعيننا الله.. بالتأكيد، لم يدر في خلدنا أن يأكل أحدنا الآخر. كيف آلت الأمور بنا إلى هذا؟ أي شر ماحق يهزأ بنا؟"

"لا بد لنا من الترفيه عن نفسينا، بكل الوسائل، لتمضية الوقت، وإلا سيكون بيننا قتل وموت."

"أبدأ أنت!"

"هل بوسعك شرح لماذا تشرق الشمس ثم تغيب؟ لماذا لا يحدث العكس؟"

"لست هازئا؟ تستيقظ أولا، ثم تذهب إلى عملك، وفي الليل تستلقي لتنام!"

"لكن لماذا لا يمكن للمرء أن يقترض عكس ذلك، يذهب إلى سريره ويرى أحلاما، ويستيقظ في الصباح؟"

"حسنا، نعم، بالتأكيد. عندما كنت في الوظيفة، أفكر دائما بهذا المنوال (الآن أنفلق الفجر، ستشرق الشمس ويأتي النهار، وبعد ذلك يحل موعد العشاء، وأخيرا يحين موعد النوم."

أيقظت كلمة "العشاء" حزن المسؤولَين، وأنهت المحادثة.

قال أحدهما: "مرة أخبرني طبيب أن بمستطاع البشر البقاء من دون طعام مدة طويلة بسبب ما تناولوه من سوائل"

"ماذا يعني ذلك؟"

"الأمر غاية في البساطة. كما ترى، السوائل الخاصة في جسم كل فرد تنتج سوائل أخرى، وهذه بدورها تنتج سوائل أيضا، وهكذا تستمر الحال حتى تُستهلك السوائل كلها!"

"ثم ماذا يحدث؟"

"وهكذا يدور الطعام في جهاز الهضم."

"اللعنة على الشيطان!"

بغض النظر عن الموضوع الذي يختاره المسؤولان، كانت المحادثة تنتهي إلى الأكل، مما سعّر شهيتهما أكثر فأكثر. لذا قررا التوقف عن الحديث تماما، وتذكرا حينها صحيفة "موسكو غازيت" التي عثر عليها أحدهما فأمسكاها وراحا يقرآن بشغف.

«العمدة يقيم مأدبة»

"أُعدت الموائد لمائة شخص. روعة المأدبة تجاوزت كل التوقعات. المحافظات البعيدة مُثلت في المأدبة بهداياها النفيسة. التقى سمك الحفش الذهبي من منطقة "شكسنا" مع الدرّاج الفضي من الغابات القوقازية مع الفراولة النادرة شتاء في مناطقنا.. "

صاح الآخر بقنوط تام: "اللعنة على الشيطان! توقف لخاطر الله عن القراءة، يا

صاحب السعادة. ألم تجد شيئا آخر لتقرأه؟"
خطف الصحيفة من يد زميله وبدأ يقرأ شيئا آخر: "أخبرنا مراسلنا في تولا أنه تم العثور أمس على سمك الحفش في أوبا (حدث لا يستطيع أكبر السكان عمرا تذكره منذ أيام نقيب الشرطة السابق الذي عثر على بعض الحفش). كان ذلك مناسبة لإقامة مأدبة في النادي. تم تقديم المأدبة في طبق خشبي كبير مزين بالمخللات، وحشرت حفنات من البقدونس في فم الحفش. الدكتور ف. تصرف كمشرف على المأدبة قدّم قطعة لكل من حضر. كانت الصلصة التي قُدمت مع السمك متنوعة ولذيذة وغير عادية-"
قال المسؤول الأول وهو يسحب الصحيفة من صاحبه: "اسمح لي يا صاحب السعادة. يبدو لي عدم حرصك على اختيار موضوع للقراءة." بدأ يقرأ: "اكتشف أحد سكان فياتكا وصفة طبخ محلية رائعة لحساء السمك. يؤخذ سمك القد ويضرب بقضيب حتى يتفتت." ... تدلى رأسا المسؤولين. كل ما وقعت عليه عيونهما كان ذا علاقة بالأكل. حتى أفكارهما كانت قاتلة. عبثا كانت محاولاتهما لإبعاد ذهنيهما عن شرائح اللحم البقري وما شابهها؛ عاد خيالهم الذي لم يتغير، بقوة لا تقاوم إلى ما كانوا يتشوقون إليه.
فجأة، انبثق إلهام في بال المسؤول الذي تولى مرة تعليم الكتابة اليدوية، فصاح فرحا" "وجدتها! ماذا تقول عن هذا، صاحب السعادة؟ ماذا تقول لو وجدنا قرويا؟"
"قروي؟ أي قروي يا صاحب السعادة؟"
"ماذا؟ قروي عادي. قروي مثل سائر القرويين. يهيئ لنا لفات الإفطار، ويمكنه أن يصطاد لنا الدرّاج والسمك."
"همم. قروي! لكن من أين نحضره، ولا يوجد هنا أي قروي؟"
"لم لا يكون هنا؟ القرويون في كل مكان. كل ما على المرء فعله أن يفتش عنهم. لا بد أن هنالك قرويا مختبئا في مكان ما، لذا يجب العثور عليه واخراجه للعمل."
ابتهج المسؤولان بالفكرة حتى أنهما قفزا في الحال للبحث عن قروي.
تجولا طويلا في أنحاء الجزيرة، لكن دون نيل النتيجة المرجوة، وأخيرا اقتحمت أنفيهما رائحة مكثفة منبعثة من خبز أسود وجلد خروف قديم، وقادتهما في الاتجاه الصحيح. هناك، تحت شجرة ضخمة، كان أحد القرويين ممدا، متوسدا يديه، وغارقا في نوم عميق. بدا جليا أنه هارب من أداء واجبه في العمل المكلف به، ولجأ إلى هذه الجزيرة. لم تكن لسخط المسؤولين حدود.
قالا له مغتاظين: "ماذا، تتمدد هنا نائما أيها الكسول! لا يهمك أن هنالك اثنين من المسؤولين الكبار يتضوران جوعا. انهض وتقدم إلى الأمام للعمل."
نهض القروي وتأمل السيدين المتعبين الواقفين أمامه. راودته فكرة الهروب، لكن المسؤولين وبسرعة أوقفاه. كان عليه أن يخضع لمصيره. كان عليه أن يعمل. تسلق أولا شجرة وقطف منها للمسؤولين عددا من أنضج التفاح. احتفظ لنفسه بواحدة عفنة. شرع في حفر الأرض وإخراج بعض البطاطا. بدأ بعد ذلك بإشعال النار بفرك قطعين من الخشب واحدة بالأخرى. صنع من خصلات شعره فخا واصطاد حجلا. وتصاعدت رائحة الشواء بشكل مشوق. طبخ أنواعا من الطعام لدرجة أن سؤالا تردد في ذهني المسؤولين إن كان في مقدورهما عدم ترك أي طعام لهذا الشخص العاطل. جهود

القروي أفرحت قلبيهما. نسيا تقريبا معاناتهما من الجوع في اليوم الماضي، كل ما فكرا فيه: "يا له من أمر حسن أن تكون مسؤولا. لا يمكن أن يحدث شيء سيء لأي مسؤول."

تساءل القروي الكسول: "هل أنتما راضيان، أيها السيدان؟"

أجابا: "نعم، ونقدر جهودك."

"هل تسمحان لي بالراحة قليلا؟"

"خذ قسطا من الراحة.. لكن عليك قبل ذلك بعمل حبل متين جيد."

جمع القروي سيقان نبات القنب ووضعها في الماء وراح يضربها بالأرض. ما صنعه كان حبلا قويا. أخذا المسؤولان الحبل وربطا القروي إلى شجرة كيلا يهرب، ومضيا للنوم.

هكذا توالت الأيام، وأضحى القروي ماهرا جدا حتى أنه استطاع طهي الحساء للمسؤولين بيديه العاريتين. غدا المسؤولان بدينين وسعيدين. ما أثار بهجتهما هنا أكثر أنهما لم يحتاجا إلى إنفاق أية نقود، وأن معاشهما التقاعدي، في هذه الاثناء، قد تراكم في سانت بطرسبرغ.

قال أحدهما للآخر بعد تناول الإفطار: "ما رأي سعادتك، هل قصة برج بابل حقيقية؟ ألا تعتقد أنها مجرد قصة رمزية؟"

"لا أبداً، يا صاحب السعادة، أعتقد أن شيئا ما قد حدث فعلا. ما التفسير الآخر لتعدد اللغات على الأرض؟!"

"إذا، لا بد أن الطوفان قد حدث أيضا؟"

"بالتأكيد، وإلا كيف تفسر وجود حيوانات ما قبل الطوفان؟ هذا إلى جانب ما تقوله صحيفة "موسكو غازيت"..."

بحثا عن العدد القديم من الصحيفة، وجلسا في الظل يقرآنها كلها من البداية إلى آخر سطر. قرآ أخبار احتفالات موسكو، تولا، بنزا وريازان، والغريب أنهما لم يشعرا بأي ازعاج من وصف الأطباق الشهية.

لم يُذكر كم طالت بهما الحياة هناك. ومع ذلك بدأ الملل أخيرا يتسرب إليهما، خاصة حينما يتذكران طاهييهما في سانت بطرسبرغ، بل كانا يذرفان الدموع في الخفاء.

خاطب أحدهما الآخر قائلا: "اتساءل يا صاحب السعادة كيف يبدو شارع بودياجيسكايا الآن."

"أوه، لا تذكرني بذلك، يا صاحب السعادة. أحترق من الحنين إلى مدينتنا."

"إنه رائع للغاية. إنه فعلا مكان لا ينقصه شيء، لكن الحمل لا بد أن يشتاق لأمه النعجة. والحسرة أيضا على الزي الرسمي الجميل."

"نعم، فعلا، زي الدرجة الرابعة ليس مزحة. تطريز الذهب وحده يجعل المرء يصاب بالدوار ".

الآن، راحا يلحفان على القروي في أن يجد وسيلة لإعادتهما إلى شارع بودياجيسكايا، ومن الغريب القول إن القروي كان يعلم أين يقع ذلك الشارع. احتسى الجعة هناك ذات يوم، وكما يقول المثل كل شيء سال على لحيته ولم يدخل، للأسف، فمه شيء.

ابتهج المسؤولان قائلين: "إننا مسؤولان من شارع بودياجيسكايا."

رد القروي: "وأنا أيضا من أولئك الرجال- هل تتذكرانهم؟ أولئك الجالسون على السقالات المتدلية بالحبال من السطوح ليصبغوا الجدران الخارجية. أنا واحد من أولئك الذين يدبون على السطوح كالذباب. ذلك ما أنا عليه."

القروي الآن مستغرق في التفكير كيف يمكنه أن يفرِح مسؤوليه اللذين كانا لطيفين معه،

وهو العاطل الكسول، ولم يزدريا عمله، وقد نجح فعلا في صنع سفينة. لم تكن في الواقع سفينة، لكنها كانت طوفا يشبه الزورق، في وسعه نقلهما عبر المحيط إلى شارع بودياجيسكايا.

عندما رأيا ارتفاع الطوف وانحداره، صاحا: "انتبه أيها الكلب، وإلا اغرقتنا!"

قال القروي: "لا تخافا. نحن القرويون معتادون على هذا."

كان الرجل قد رتّب للرحلة ما تحتاجه؛ بجعة للطعام، وما يشبه الأريكة للمسؤولين، وبدأ يجذف بهمة مبتعدا عن الشاطئ.

لا يمكن وصف كيف هلع المسؤولان في تلك الأثناء، كيف عانيا من دوار البحر خلال العواصف، وكيف تماديا في توبيخ القروي على تباطئه. مع ذلك، واصل القروي تجذيفه وإطعامه المسؤولين سمكا مملحا. أخيرا، وقع بصرهما على العجوز العزيزة نيفا. وبعد قليل، كانا في قناة كاثرين المجيدة، ثم، يا للفرحة! وجدا نفسيهما في شارع بودياجيسكايا الكبير. حين رأى الطاهيان المسؤولين بعافية تامة ووجهين مستديرين، غمرتهما السعادة. تناول المسؤولان القهوة وبعض الفطائر، ارتديا زيهما الرسمي وانطلقا إلى مكتب التقاعد. لا يمكن الوصف أيضا لما جمعاه من رواتب. لم ينسيا القروي. أرسل المسؤولان إليه كأسا من الشراب مع خمسة كوبيكات فقط. القروي الآن في منتهى الفرح!

---

* ميخائيل سلتيكوف (شيدرين) "1826-1889"

**عبد الجبار ناصر :صحفي وروائي ومترجم عراقي مقيم في أستراليا. صدرت له الروايات التالية: رواية فندق كاليفورنيا- الدار المصرية اللبنانية القاهرة 2019/ اليهودي الأخير- الدار المصرية اللبنانية 2018/غرباء مثل الحسين- الدار المصرية اللبنانية 2012/ أيام المستعصم الأخيرة- المكتبة العربية القاهرة 2009/ كتابة على التراب- لهيئة العامة المصرية للكتاب 12/2007. كما صدرت له دراسة بعنوان "ثقافة الصورة في وسائل الإعلام- الدار المصرية اللبنانية 2011، وترجمة مجموعة قصصية للكاتب الروسي فلاديمير كورولينو (قرية الله) عام 2022 عن دار المأمون في بغداد.

مسرحية «الكرة الباردة»

عامر حميو *

المسرح قاعة مفتوحة من الجانب على جهة الجمهور، ثمة ناس من الفئات العمرية كافة يتوسطون القاعة جلوساً على كراسٍ مرصوفة، قبالة منضدة خشبية عليها لاقطة صوت، صفت خلفها ثلاثة كراس أخرى فارغة، وعلى جدار القاعة المواجه للجمهور هناك لافتة (فلسكوب) كتب عليها (مع قرب الانتخابات البرلمانية تعلن مدينة طيبة للعالم أجمع أنها ستكون صندوقاً مغلقاً على أصواتها لابنها ومرشحها البار، ويتبرّأ أهلها من كل شخص لا يتضامن مع هذا العهد أو يثقّف ضده).

(يسمع لغط بين المتجمهرين وسط القاعة).

شاب بشعر يتهدّل على كتفيه (بتململ): ”ما هذا! عليهم أن يحترموا الموعد، ألم يعلنوا أن النائب سيلتقي الأهالي في الساعة الرابعة عصراً؟“.

شاب آخر (ينبري مصحّحاً): ”لا... فالإعلان يقول في الساعة الخامسة عصراً“.

الشاب ذو الشعر المتهدل على كتفيه: ”أخرج لباب القاعة وسترى الإعلان.. الساعة الرابعة عصراً“.

رجل كبير: ”اجتماعه بأهالي المدينة.. لأي شيء؟“.

رجل كبير ثان: ”ابن أصول ويريد أن يلتقي بأهله ويسلّم عليهم“.

الشاب ذو الشعر المتهدّل: ”يا عم..“.

(يلتفت المجتمعون في القاعة ناحيته)

الشاب ذو الشعر المتهدّل (يُكمل): ”قبل أسبوع كان يمشي بيننا، علينا أن نُفْهِمَه أنه وإن فاز فسيبقى إنساناً عادياً... مثل أي شخص فينا“.

رجل بكوفية: ”كيف تقول ذلك يا ولدي؟. السيد النائب إنسان دارس ويفهم الأمور أكثر منك ومني...“.

الشاب ذو الشعر المتهدّل: ”وحد الله يا عم.. (يشير بيده إلى الجمهور وسط القاعة) بين هؤلاء الكثير ممن يحمل علماً وشهادة أكثر من النائب بأضعاف مضاعفة... وحّدوا الله يا جماعة... لم يمض وقت طويل على إزاحة من جعلناه بمثل هذا الأسلوب يخنق علينا حتى أنفاسنا“.

الرجل ذو الكوفية: ”أنت صغير ولا تعرف شيئاً بعد... الله يستر عليك يا ابني لا تشوّش علينا، مرّ علينا الكثير ولم نذق طعم الراحة“.

الشاب ذو الشعر المتهدّل: "والراحة لا تأتينا إلّا بانتخابنا نائباً من مدينتنا!.. ها كم يا أهل مدينته، ها هو لم يحترم موعده معكم".
شاب ثان (يحمل بيده اضبارة فيها أوراق): "على الأقل مساعدوه صرحوا أنه سيستلم أضابيرنا، وسيُعَيِّننا بوظائف في مؤسسات الدولة"..
رجل عجوز (يقاطع): "حتى زوجته منذ أربعة أيام وهي تطرق الأبواب، توزّع قطع القماش على النساء مجاناً".
رجل ثالث: "كريم وابن كرماء".
رجل من الصفوف الأمامية: "سمعته يقول أنه سيبلط شوارع طيبة كلها".
الرجل الثالث: "كريم وابن كرماء".
الشاب ذو الشعر المتهدّل: "نائب البرلمان موظّف تشريعي... مهمته سن القوانين لعامة الناس".
شاب آخر: "الخدمات من اختصاص الجهات التخطيطية والتنفيذية".
رجل: "بالأمس كنت في بيته.. ما من مكان لك وسط حشود الناس عنده".
رجل ثان: "أي نعم... الرجل واصل، يعرف كل رجال الدولة".
صوت من وسط الناس: "لكن لِمَ تأخر كل هذا الوقت؟".
طفل (يجلس قرب والده): "بابا... بابا".
والد الطفل: "أصمت.. دعنا نستمع".
الطفل: "البلدية تبلط أحد الشوارع... أرأيتهم بابا؟".
والد الطفل: "نعم. الشارع ذاك الذي قرب حينا؟".
الطفل: "نعم بابا".
والد الطفل: "نعم رأيت آليات البلدية ترصف فيه".
الطفل: "كان الأستاذ يمشي أمام الآليات".
والد الطفل: "أي أستاذ منهم؟".
الطفل: "السيد النائب".
والد الطفل (يقرصه من ذراعه): "أسكت".
الطفل (معانداً): "والله بابا رأيته يمشي أمام الآليات... حتى أن مهندس المشروع رجاه أن يتركهم وحالهم، ليكملوا عملهم".
الرجل الشيخ: "كريم وابن كرماء".
الشاب ذو الشعر المتهدّل (بأعلى صوته): "اسمعوا يا ناس قبل أن تعضّوا أصابع الندم"..
(الصمت يعمّ الجمهور في القاعة)
الشاب ذو الشعر المتهدّل (يُكمل): "ما وعدكم نائبكم بالوظائف الحكومية، ولا وزّعت زوجته قطع القماش على نسائكم، ولا سار هو أمام آليات البلدية، وأعاق عملها حباً فيكم وفي تقديم الخدمات لكم...".
(يقاطعه لغط في القاعة)
الشاب ذو الشعر المتهدّل (بصوت أعلى): "هو يشتري أصابعكم التي ستنتخبه".
(يتقدم رجلان بملابس رسمية من خلف الكواليس، ويقتادان الشاب ذي الشعر المتهدّل، عنوة خارج القاعة).
صوت الشاب ذو الشعر المتهدّل (يسمع وهو خارج القاعة): "احذروا من يشتري أصابعكم، فغداً سيبيعكم من دون أن تدروا".
(يدخل فتية يوزعون العصائر وقطع الحلوى على الجمهور).

المشهد الثاني:
المكان نفس القاعة.
(لا يتغير شيء في ديكور المشهد غير أن الكراسي الثلاثة خلف المنضدة الخشبية يجلس عليها ثلاثة أشخاص بملابس رسمية،

ويظهر بين كراسي الجمهور وتحتها أغلفة علب العصائر وأغلفة قطع الحلوى مبعثرة بفوضى تحت الأقدام).

رجل من بين الجمهور (ينهض واقفاً ويخاطب الذي يجلس في وسط الأشخاص الثلاثة الجدد): "أستاذ... نحن ما أتينا لنتعبكم... ولا نريد منكم شيئاً غير أن يعزّكم الله، وتكون أنت بالذات حامياً لنا ومدافعاً عن وجودنا".

الرجل المعني (يكشر عن أسنانه مبتسماً باستحسان): "رحم الله والديك، والله إنك قد اختصرت عليّ كثيراً من الجهد والكلام".

(الرجل الذي يتوسط الجمهور يلتفت إلى جانبيه فرحاً بعد أن نال استحسان الرجل المعني)

الرجل المعني: "يشهد الله أنا لو أعلم أن انتخاب أي إنسان غيري سيكون فيه مصلحة لمدينة طيبة وأهلها، ما أتعبتكم في مناصرتي، ولا رشّحت إسمي لذلك.. (يصمت قليلاً) لكن ها كم أنظروا، إن لم تعطوني أصواتكم، فلمن ستعطونها؟... ثم هبوا أنكم انتخبتم غيري، وطبعاً هذا من المستحيل أن تفعلوه، وحاشاكم أن تفعلوه، لكننا نفترض ذلك... ترى ماذا سيحدث، أتستطيعون مثلاً أن تجلسوا معه مثلما أجلس معكم؟... أسيبلّط لكم شوارع طيبة مثلما أفعل!... ربما سيُصدر قانوناً يحتجزكم فيه ضمن حدود مدينة طيبة... إي نعم يفعلها، وما يعد في استطاعة أهل طيبة أن يزوروا أهاليهم في المدن الأخرى... انتبهوا.. الأمر يتعدى الصوت الانتخابي ويمس وجودكم، وعلى أهل طيبة أن يدركوا لمن يعطوا أصواتهم".

(يلتفت للشخص الجالس على يمينه): "جمعتم أضابير الشباب كما أوصيتكم؟".

الشخص الجالس على اليمين: "سنباشر بجمعها بعد انتهاء كلمتك".

النائب (يبدو متضايقاً): "يا أخي أنا ما جئت لألتقي الناس وأخطب فيهم، ثم متى ستفهم أنني تطوّعت خدمة لمصالحهم... (يشير بيده ناحية القاعة) قم واجمع أضابير الشباب".

(ينهض الشخص الجالس على اليمين ويباشر في جمع أضابير ملفات التعيين، وسط تزاحم أيدي الناس وتدافعها لنيل الأسبقية في تسليم ما بأيديها).

النائب (مستدركاً): "نسيت أن أخبركم شيئاً... (يصمت قليلاً ويعم القاعة الهدوء) يوم الانتخاب سيوفر لكم الشباب باصات تنقلكم إلى مراكز الاقتراع... طبعاً الباصات مجانية ذهاباً وإياباً. واعتباراً من عصر هذا اليوم ستباشر فرق جوالة، يختارها طاقمي لتوزع هدايا على البيوت (مدفآت نفطية وبطانيات وساعات جدارية) لمساعدتكم ولتخليد عرسكم الديمقراطي هذا".

رجل كبير في السن: "كريم وابن كرماء".

النائب (يرفع يده فوق رأسه امتناناً لقول الرجل الكبير في السن).

المشهد الثالث:

المكان: مكتب النائب.

مكتب مفروش بالسجاد، النائب يواجه الجمهور وراء مكتب خشب من الصاج، رُصِفَت عليه بانتظام أدوات مكتبية (أقلام، قرطاسية، حزمة أوراق بيضاء فارغة، ثاقبة أوراق، مجسّم دائري للكرة الأرضية، علبة حلويات، علم بسارية صغيرة) خلف الكرسي يستند على الحائط علمان كبيران من الجهتين.

النائب منكب على تقليب أوراق إضبارة سحبها من كدس أضابير مرمي بإهمال إلى جانبه على أرض المكتب.

(يطرق باب المكتب)
النائب (يرفع رأسه بعد أن يلقي بالإضبارة على الكدس وينفض يديه): "تفضل".
(تدخل امرأة عجوز تحمل إناءً معدنيا في يدها).
المرأة العجوز: "عذرا يا ولدي... عندي نذر، وها قد جاء وقت سداده... أتأذن لي؟".
النائب (يبتسم مشدوهاً): "نذر!".
المرأة العجوز: "نذرت إن فزت سأخضب جدران مكتبك ويديك بالحناء".
النائب: "جدران المكتب عندك خضبيها بحنّائك، أما يدي... فماذا سأقول للناس لو صافحتهم؟".
المرأة العجوز (متوسّلة): "الله يرضى عليك يا ولدي، لا ترد نذري".
(تدور المرأة العجوز داخل المكتب ملطخة جدرانه بمادة الحناء، ويسمع صوت طرقات على باب المكتب).
النائب: "تفضل".
(تتزاحم المرأة العجوز قرب باب المكتب مع رجل وشاب يدخلان)
النائب (متفاجئاً): "أهلاً أستاذ، شرَفت طيبة وأهلها بمجيئك... متى وصلت؟".
الرجل (مبتسماً): محرك سيارتي لازال حارّاً في باب مكتبك...من الشارع العام إلى مكتبك مباشرة.
(النائب يحضن الرجل والشاب بالتعاقب ويدعوهما للجلوس)
النائب: "يا أهلاً وسهلاً بكما... تفضلا... تفضلا".
(يجلس الثلاثة على أريكة وثيرة، والنائب يتوسط جلسة الزائرين)
الرجل الزائر: "حتى لا نُضيّع الوقت، فأنت تعرف أن المجلس البلدي لمدينة طيبة أعلن عبر الانترنيت حاجته لدرجة محاسب، لمسك الدفاتر الحسابية للمجلس (يصمت قليلاً)، وأنت تعرف طبعاً أهمية وظيفة المحاسب في المجلس البلدي لمدينة طيبة... لي ولكَ سوية! (يصمت ثانية ويبتسم)، خاصة وأن حصة المدينة من الميزانية العامة قد وصلت قبل يومين... والمشاريع المُعَطّلَة سيباشر في تنفيذها".
النائب (مبتسماً): "أنا بخدمتك وخدمة المشاريع المُعَطّلَة".
الرجل الزائر: "وهذا ابني خريج كلية الإدارة والاقتصاد فرع المحاسبة، وقبل أن تعترض أنا أعرف أن من شروط التعيين أن يكون المتقدم من سكان مدينة طيبة، وقد احتطت للأمر وأخرجت له بطاقة سكن تثبت الشروط التي يفرضها إعلان المجلس على المتقدم... أما كيف أخرجتها وماذا فعلت لأجل ذلك؟ فهذه دعنا منها".
النائب: "المهم أن تكون بطاقة السكن مقنعة إذا شكّك أحدهم فيها".
الرجل الزائر: "اطمئن يا رجل... أتعرفني سابقاً أعمل شيئاً ولا أحكمه".
النائب: "وهل تعرف أن من تقدموا لشغل الوظيفة وصل عددهم لخمسة وخمسين متقدماً؟".
الرجل الزائر: "الذي أعرفه أن المتقدمين من أهل طيبة عددهم أربعة وخمسون، وأما الخامس والخمسون فهو ابني هذا (يشير للشاب الجالس بجانبه).
النائب (يضحك): "إذا كنت تعرف كل هذه المعلومات فما الحاجة لي؟".
الرجل الزائر: "لأني أعرف أن الفوز بالدرجة الوظيفة سيتم بالقرعة، ومن سيجري القرعة هو أنت، تكريماً لفوزك كنائب عن

مدينة طيبة".
النائب: "أهل طيبة أعطوني أصواتهم لأفوز من خلالها، وأنا أعطي الوظيفة لشاب من مدينة أخرى!... ألّا تراني إن فعلت ذلك يا سيدي المقاول سأخون الأصابع التي منحتني ثقتها؟. أمممـــــ... حيّرتني والله يا صديقي!".
المقاول: "أنت الآن رجل سياسة وأنا رجل أعمال، وخذها حكمة مني... من أراد ممارسة إحدى المهنتين عليه أن يسحق ضميره بكعب حذائه، وأهم من ذلك أن لا يلتفت خلفه ليرى ماذا فعل".
النائب (يضحك): "أتمنى أن أجد من يعوضني خيراً عن ضميري".
المقاول: "فوز ابني بوظيفة محاسب المجلس البلدي لمدينة طيبة هو التعويض بعينه... وسترى ذلك في أول مناقصة مقاولة يرسو عطاؤها لي... لكن قل لي، كيف ستجعل ابني يفوز في القرعة؟".
النائب: "لا أدري... (يصمت قليلاً) لكن تلوح في رأسي فكرة... أتمنى أن تنجح".
المقاول (متسائلا بلهفة): فكرة... يا أله، تكلم يا رجل".
النائب: "لا... دعني أدرسها جيداً".
المقاول: "على الخير إن شاء الله... أدرسها على راحتك".
(ينهض المقاول وابنه ويصافحهما النائب بالتعاقب).

المشهد الرابع:

المكان: قاعة المجلس البلدي لمدينة طيبة.
المسرح قاعة مفتوحة من الجانب على جهة الجمهور، ثمة ناس من الفئات العمرية كافة يتوسطون القاعة جلوساً على كراسي مرصوفة، قبالة منضدة خشبية عليها لاقطة صوت، صفت خلفها ثلاثة كراسٍ أخرى يجلس عليها النائب وشخصين آخرين، وعلى جدار القاعة المواجه للجمهور هناك لوحة ببرواز مذهب خطت عليها عبارة (وأمرهم شورى بينهم).
(أحد الشخصين قرب النائب يقرّب لاقطة الصوت منه)
الشخص: "بسم الله الرحمن الرحيم... يا أهل طيبة الأعزاء، يسر المجلس البلدي ويشرفه أن يرحب نيابة عنكم بالسيد النائب، وهي فرصة طيبة لأن تكون يده ممثلة لأيدينا كلنا، مادامت أصابعنا هي من منحته ثقتنا فيه، وأنا بوصفي رئيساً للمجلس البلدي لمدينة طيبة أدعوه لأن ينوب عنّا كلنا في قرعة اختيار من سيكون أميناً ونزيهاً ومحاسباً على حركة السوق التجارية وسيولة أموال مدينة طيبة ادخاراً واستثماراً وصرفاً، وأود أن أنوه أن عدد الاستمارات الإلكترونية التي تقدم أصحابها لشغل الوظيفة بلغ خمسة وخمسين استمارة، ولأجل أن تكون القرعة شفافة وتراها كل أعينكم، وحتى لا يراود أحدكم شك في نزاهة إجرائها فقد ارتأى أعضاء المجلس البلدي أن يكون لكل صاحب استمارة رقم يمثل رقم الاستمارة الإلكترونية مخطوطاً على كرة بيضاء صغيرة بحجم بيضة الدجاجة، فالرجاء على من يظهر رقم استمارته الإلكترونية مطابقاً لرقم الكرة التي سيأخذها السيد النائب من بين الكرات الخمس والخمسون، أنْ يرفع يده بعد إجراء السحب للقرعة وظهور الرقم".
(صمت)
رئيس المجلس: "على الإخوة المنظمين للقرعة من موظفي المجلس البلدي أن يدخلوا

صندوق الكرات".
(تدخل بنت وولد يحملان صندوقاً زجاجياً فيه كرات بيضاء عليها أرقام).
رئيس المجلس البلدي: "باسم أهل طيبة أدعو السيد النائب أن يشرفنا بسحب رقم صاحب الحظ السعيد... فليتفضل مشكوراً".
(الجمهور يصفق، والنائب ينهض من وراء كرسيه ويتجه لوسط القاعة قرب صندوق الكرات)
(النائب يخلط الكرات متحسّساً بعضها، كأنه يبحث عن شيء)
النائب (يبتسم فيما يده لازالت تتحسّس الكرات): "والله يا جماعة لا يطاوعني قلبي أن أرضي واحداً من شباب طيبة وأفرحه، فيما أترك أربع وخمسين آخرين تصيبهم الخيبة والإحباط".
(ينهض الشاب ذو الشعر المتهدّل من وسط القاعة)
الشاب ذو الشعر المتهدّل: "مالك تتحسّس الكرات... اختر واحدة وأرحنا".
النائب (يبتسم مكرهاً، مكشّراً عن أسنانه بضيق): "خلاص... أمري إلى الله... اخترتها".
(النائب يدقق في الرقم الموجود على الكرة ويرمق المقاول وابنه بنظرة جانبية ثم يتجه صوب مكان رئيس المجلس البلدي ويعطيه الكرة)
رئيس المجلس البلدي (يرفع الكرة البيضاء بيده ويديرها باتجاه من يجلس في القاعة): "الفائز هو صاحب الرقم خمسة وخمسين".
(ينهض ابن المقاول ويرفع يده ليُعلِم الجميع بحضوره)
الشاب ذو الشعر المتهدّل (معترضاً): دقيقة... الأخ ليس من سكان مدينة طيبة... أنا أعترض، وأشك في نزاهة القرعة".
(ينهض ابن المقاول ويخرج بطاقة السكن من جيبه ويسلّمها لرئيس المجلس البلدي).
الشاب ذو الشعر المتهدّل: "يا شباب أهل طيبة..".
رئيس المجلس البلدي (مقاطعاً): "اجلس يا ابني الله يرضى عليك... (يدقق في بطاقة السكن لابن المقاول)بطاقة السكن تقول أنه الآن من سكنة مدينة طيبة... الأوراق الثبوتية مطابقة لإعلان المجلس وشروطه لمن يتقدّم لشغل الوظيفة".
النائب (موجّهاً الكلام للجمهور في قاعة المجلس): "هل رآني أحدكم أخرج الكرة من جيبي؟!".
(الجمهور يضحك)
(ينهض الشاب ذو الشعر المتهدّل)
رئيس المجلس البلدي (يصرخ بضيق): "اجلس... اجلس".
(يدخل اثنين من حماية النائب ويقتادان الشاب ذو الشعر المتهدّل خارج القاعة عنوة)
صوت الشاب ذو الشعر المتهدّل (من خارج القاعة): "أنقذوا طيبة قبل أن تضيع منكم".

المشهد الخامس:

المكان: مكتب النائب.
(النائب يتكئ على كرسيه مسترخياً، وعلى الكنبة الوثيرة يجلس المقاول وابنه، ويبدو على وجهيهما إمارات العرفان، والاستحسان لما فعله النائب أثناء سحب القرعة).
المقاول: "لكن.. ماذا فعلت؟".
النائب (يضحك): "ببساطة (يصمت) قبل أن أمد يدي لداخل الصندوق نزعت ضميري كما أوصيتني وسحقته بكعب حذائي".
المقاول: "أعرف... لكن كيف؟".

النائب: ”أرأيت البنت التي كانت مع الشاب؟... أقصد البنت التي أعانت الشاب في حمل الصندوق للقاعة؟“.

المقاول: ”نعم رأيتها“.

النائب: ”هذه البنت أنا من توسّط لها قبل أشهر عند رئيس المجلس“.

المقاول: ”وجدت لها وظيفة في المجلس؟“.

النائب: ”أجر يومي“.

المقاول: ”طيب... وكيف ساعدتك؟“.

النائب: ”أودعت لي الكرة التي تحمل الرقم خمسة وخمسين في ثلاجة المجلس ليلة كاملة، وأخرجتها قبل أن تُدخل الصندوق للقاعة بدقائق... وأنا تحسّست الكرات وسحبت الباردة منهن.. فقط.. هذا كل شيء“.

---

* روائي ومسرحي من بابل / العراق

مطبوعات وصلتنا :

- فيصل الفؤادي، ثلاثة عقود من النضال النقابي،ط1، دار الرواد المزدهرة- بغداد 2022
- محمد كحط عبيد الربيعي، المجلات التلفزيونية الصباحية في الفضائيات العربية، دار المتن للنشر والتوزيع - بغداد 2023.
- هادي عزيز علي ، المكتبة الفكرية والحماية القانونية لحق المؤلف ، دار المدى – بغداد 2023.
- جواد الاسدي ، اعمال مسرحية ، اتحاد الادباء والكتاب في العراق – بغداد 2023.
- د.فراس العتابي ، ديستوبيا الانثى المشرقية أو المرأة تحت مقصلة الشعر النسقية من الجاهلية حتى العصر الحديث ، دار الشؤوون الثقافية – بغداد2023.
- اليكس بنتلاند ، الفيزياء الاجتماعية ، كيف يمكن للشبكات الاجتماعية ان تجعلنا اكثر ذكاء (ترجمة د. هناء خليف غني)، دار سطور – بغداد 2022.
- فولفكانك بورشرت وآخرون ، مختارات قصصية ، ترجمة بهاء محمود علوان –،مؤسسة ابجد – بابل 2023.